

فتحی رضوان

# مصطفیٰ کا میل





اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طبلية

القاهرة

مكتبة  
الدكتور القطب محمد القطب طبعية  
فيود محمد قطب شارع محمد قطب  
المعادي

إفرا

تصدر في أول كل شهر ٢ نوفمبر ١٩٧٤  
رئيس التحرير: السيد أبو النجاة

٢ ديسمبر ١٩٧٤

رقم المكتبة  
١١٧ ٣



دار المعارف بمصر

مكتبة  
ALEXANDRIA  
مكتبة

دار المعارف





فتحی رضوان

مصطفیٰ کا میل

اقراء ۳۹۰

دارالمعارف بمطو



أقرأ ٣٩٠ - ديسمبر سنة ١٩٧٤

## للمؤلف

### من مطبوعات دار المعارف

#### من سلسلة إقرأ

- |           |                           |
|-----------|---------------------------|
| العدد ١٤٨ | (١) أخى المواطن           |
| العدد ١٧٥ | (٢) هذا الشرق العربى      |
| العدد ٣٣٩ | (٣) مومس تؤلف كتابا       |
| العدد ٣٧٧ | (٤) الإسلام ومشكلات الفكر |

#### وله أيضاً

- |                                   |                                     |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| (٥) دموع إبليس :                  | مسرحية من أربعة فصول ( طبعة ثانية ) |
| (٦) مع الإنسان فى الحرب والسلام : | دراسة تاريخية وسياسية               |
| (٧) إله رغم أنفه :                | خمسة مسرحيات من ذوات الفصل الواحد   |
| (٨) خط العتبة :                   | قصة طفل مصرى                        |

الناشر : دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.



## قرن مضى

مصطفى كامل ولد في ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٤ . . ونحن الآن في ديسمبر سنة ١٩٧٤ .

فيكون قرن كامل من الزمان قد مضى ، منذ رأى مصطفى النور حتى وضع هذا الكتاب المتواضع بين يديك ، وفوق القرن بضعة أسابيع : ولكن أية مائة سنة على مولد هذا الشاب الفريد الفذ ، في تاريخ الحركات الوطنية ؟

إنها بغير مبالغة أعظم مائة سنة عرفت الإنسانية ؛ فإنها لم تشهد مثلها قط ، وقد لا تشهد مثلها أبداً .

ولكى نعرف نصيب هذا الكلام من الحق والصحة ، سنحصى فقط الأحداث الكبرى التي مرت في هذه المائة السنة العظيمة .

عرفت الإنسانية ، خلال هذه الحقبة من الزمن ، أعظم مكتشفاتها العلمية وأعظم تطبيقات هذا العلم العملية ، منذ اهتدت إلى النار ، وإلى السفينة ذات الشراع ، وعرفت أصول الفلك ومبادئ الرياضة .

فقد انتقل الإنسان من النار إلى البخار ، فالكهرباء ، فالبتروول ومشتقاته ، فالذرة : وعرفت الإنسانية في مجال الانتقال والاتصال : العرببة التي تجرها الجياد والبغال ، فالقطار ، فالباخرة ، ثم الطائرة فالصاروخ فالمركبة الفضائية .

كما عرفت التصوير الشمسي ، فالسينما ، أى الصور المتحركة ، فالتليفزيون أى الصورة المرسلة من بعيد ، وعرفت من هذا التليفزيون ما يعمل بالكهرباء ، وما يعمل بالبطاريات الجافة .



وكانت قد عرفت قبل ذلك الاتصال عن بُعد بالسلك ، بنقل الصوت ( التليفون ) ونقل الإشارة ( التلغراف ) ، ثم سجلت الصوت على أقراص وعلى اسطوانات الفونوغراف ، ثم نقلت الصوت بغير أسلاك ( الراديو ) ، ثم انتهت إلى الترانزستور ، أعجب مخترعات الإنسان ، الذى أصبح فى مقدوره أن يتصل بأربعة أركان المعمورة ، يسمع الخبر والحديث والقصة والمحاضرة ، والبحث العلمى ، والمسرحية ، عن طريق صندوق صغير ، ينتقل به فى السيارة والطيارة ، ويأخذه معه إلى فراش نومه ، يؤنسه ويسليه ، حتى يعقد النوم أجفانه .

هذا الإنسان الخلاق المبدع عرف فى هذه المائة من السنوات حروباً طاحنة ، أتت على الأخضر واليابس ، وأهلكت الحرث والنسل ، ولكنها كانت كلها كلعب الأطفال وعبيثهم ، إذا قورنت بحرب سنة ١٩١٤ التى انتهت فى سنة ١٩١٨ ، فقد سقط فيها الملايين من شباب الأمم المتمدينة ، بل أكثر الأمم تمديناً وعلمياً وحضارة وتذوقاً للفن والثقافة : هدمت فيها مدن ، وهام بسببها الملايين على وجوههم جوعاً وعرايا ، ثم لم ينقض على تلك المجزرة أقل من عشرين عاماً حتى وقعت مجزرة أخرى أكثر هولاً شملت الدنيا كلها من أمريكا فى أقصى الغرب ، إلى اليابان والصين والهند فى أقصى الشرق ، إلى مصر وبلاد العرب فى وسط الدنيا . فضاعت عشرات البلايين من ثروات الأمم ، فى شكل مدن تهدمت ، وثروات فنية تبذرت ، وسدود وجسور ، ومصانع ومزارع ، وكتب وتحف ومعارض ومتاحف ، تحطمت وتبعثرت شظايا فى الهواء . فى هاتين الحربين عرف الإنسان أسلحة دمار جديدة : الطائرة والدبابة والمدافع البعيدة المدى والغازات الحارقة .

فى الحرب العالمية الأولى زالت من الوجود إمبراطوريات عتيقة ، كان يخضع لها مئات الملايين ، وكان وجودها من معالم الإنسانية .



زالت إمبراطورية الألمان ، وإمبراطورية الروس ، وإمبراطورية الأتراك ، وإمبراطورية النمسا والمجر ، وثُلثت بعدها عروش في إيطاليا ، ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وإسبانيا والبرتغال ، كما ثلثت عروش في مصر وتونس وليبيا والعراق واليمن . وقبل ذلك زالت ملكية الصين . وأن تزول الملكية في مصر وفي الصين معناه أن أقدم ملكيات التاريخ ، التي عاشت آلاف السنين ، قد اختفت :

وفي هذه الفترة وقعت أكبر ثورة اجتماعية ، فالروس بعد أن قطعوا رأس مليكتهم ومليكتهم في ثورة قامت في أكتوبر سنة ١٩١٧ أسقطوا رأس المال والملكية الفردية ، وجعلوا الدولة هي المالك الوحيد ، وبعد أربعين سنة ، اعتنقت هذا النظام الصين ، أي سدس العالم . وبعد قليل من نشوب هذه الثورة قامت ثورتان أخريان في ألمانيا وإيطاليا ، هما ثورتا الفاشستية والنازية اللتان جعلتا من عبادة الزعيم مذهباً ومن القوة وتقديسها ديناً ، ولم يسقط المذهبان إلا في أتون المجزة الثانية التي انتهت في سنة ١٩٤٥ ، بعد أن أسقطت إمبراطوريات لم تكن تحمل اسم الإمبراطورية ، وإن كانت أغنى وأقوى ما عرفه التاريخ من أشكال السلطان : إمبراطورية البريطانيين التي شملت أكثر العالم ، وإمبراطورية الفرنسيين التي أخذت مكانها إلى جانب شقيقتها البريطانية ، وإمبراطورية اليابانيين التي بدأت تزحف نحو الشرق ابتداء من الصين ، والتي استطاعت في أقل من سنتين أن تقوض سلطان الأمريكيين والبريطانيين في الشرق حتى قرعت بقبضتها باب الهند .

ولما أنهكت الحروب الإنسان ، وملاّت نفسه هموماً ، حاول أن ينشئ للنظام الدولي وللسلام العالمي هيئة أسماها لأول مرة «عصبة الأمم» عاشت من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٨ ، ثم لفظت أنفاسها حين قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ بعد أن ثبت للجميع أنها خالية من الروح والمعنى ، وأنها وسيلة الأقوياء لاستعباد الضعفاء . وبدأت المحاولة



الثانية في سنة ١٩٤٥ ، لإنشاء هيئة الأمم المتحدة ، ولا تزال إلى اليوم كسابقتها ، لا تحقق أملاً ، ولا تردّ حربياً ، ولا تعين على حل مشكلة . أتوا بها لتحل المشكلات ، فكانت هي أكبر المشكلات .

وفي خلال هذه التطورات ، وقعت ثلاث حركات تحرير كبرى ، لا تقتصر على شعب ، ولم تحققها أمة وحدها . إنها حركات الإنسان كله .

الأولى : حركات تحرير الشعوب ، فقد سقط الحكم الأجنبي في أكثر العالم ولم يعد من المستعمرات الآن سوى ثلاث أو أربع ، وإن تنقضى سنوات ، حتى تحطم الباقي من أغلالها : ولا أدل على ذلك من أن هيئة الأمم ، ممثلة الشعوب ، حينما بدأت حياتها سنة ١٩٤٥ كانت تضم ٥٠ دولة ، لم يكن بينها من دول السود والسمر إلا اثنتان : الحبشة وليبيريا ، والآن تضم نحو ١٣٥ دولة ، ثلاثة أرباعها من السود والسمر والصفير .

والثانية : تحرير العمال من ربقة صاحب العمل ومالك رأس المال . فقد أسسوا لأنفسهم ما عرفه القرن الذي نتحدث عنه بالثقبات تضم عمال كل صناعة ، وتكون من هذه الثقبات قوة قوامها ملايين العمال الذين يصنعون كل شيء : الإبرة فالسيارة ، فالطيارة ، ويغزلون وينسجون ، ويشكلون المعادن ، وينتجون الأسلحة وقيمون العمائر ، ويخلقون ثروات تقدر كل عام بالبلايين ، كما تحقق أرباحاً بالبلايين : والثالثة : أصبحت المرأة شريكة الرجل تقرأ ، وتكتب ، وتعلم الناس في الجامعات ، وتطير في الفضاء ، وقد أصبح لها حق انتخاب من يحكمون بلادها ، ثم حق ترشيح نفسها للحكم ، فوصلت إلى المجالس التشريعية ، ثم أصبحت وزيرة ، ورئيسة للوزراء . والطريف أنها وصلت إلى هذا المنصب في الشرق دون الغرب ، في الشرق وحده الآن .

على أن أكبر ما صنعتته الإنسانية في هذا القرن ، بعد أن أصبحت الطيارة قادرة على أن تطير بأكثر من سرعة الصوت ، وبعد أن أصبحت



الدنيا قرية صغيرة ، يقطع المسافر المسافة من أقصاها إلى أقصاها في ساعات ، وينطلق الخبر فيها من مكان إلى مكان في لمح البصر أن استخرجت من أصغر الأشياء ، وأبعدها عن الخضوع لحواس الإنسان ، أعظم الطاقات ، وأضخم القدرات : استخرجت من الذرة التي لا ترى بالعين ولا تمسك باليد ، قوة قادرة على أن تبعد أكثر العالم بكرة صغيرة ، تلقىها طيارة فيفتح الجحيم أبوابها ، ويبسط الفناء ظلاله ، وتهوى الدول وتشتعل البحار ناراً ، ويصبح الظلام نهراً ، تتحول الحضارة والحياة هلاكاً ودماراً . . وقد جرب الإنسان الشقي التعس هذه الطاقة المنبعثة من الذرة ، أصغر جرم في هذا الكون ، بقنبلتين ألقاهما في أغسطس من سنة ١٩٤٥ ، على مدينتين في اليابان ، وفي لحظات رفرف الموت بأجنحته الكالحة الكريهة على القصور والدور والشوارع والبيادين والملاهي والجامعات ، فإذا كل شيء خراب .

ولكن إلى جانب هذا الجنون كان الإنسان كالعهد به لا يرتكب حماقة حتى يقابلها بأعجوبة من أعاجيب عقله الخلاق المبدع .

لقد استطاع الإنسان بفضل هذه القدرة التي أودعها الله في عقله ونفسه ، أن يصعد إلى القمر فيقطع في ساعات مسافة ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وأن ينطلق من جاذبية الأرض ، وأن يسبح في الفضاء ، ثم يضع قدمه على سطح هذا القمر البعيد ويسير ، حيث لا هواء ولا ماء ولا جاذبية . . . ثم ينطلق من القمر إلى المريخ والزهرة . . إنه يود أن يحيط بهذا الكون ، فان شغفه بالمعرفة لا يشبع ، وحبّه للجديد لا ينفد ، وميله للمجازفة والمخاطر لا ينتهي :

وإلى جانب هذا ، وبفضله ، ارتاد الإنسان مئات الجوانب المجهولة من حياة الإنسان ونفسه وعقله وأعصابه وما يفكر فيه ، وما يحلم به ، ونشأت من ذلك علوم جديدة كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم أجناس الإنسان وثقافته ، وعلم الاقتصاد ، وتخطيط المدن ،



والمحيطات ، والجريمة والإحصاء . : ونازل عشرات أمن الأمراض التي كانت أوبئة مدمرة ، فضبطها وألحمها ، وما زال يصارع الحنى من الأمراض والعلل ، يتعثر ويقف ، ويفتق وينجح ، ولكنه لا يعمل ولا يئأس . . . واستطاع بمنتجات الكهرباء والفزياء والكيمياء أن يجمّل الحياة ، ويضع فى خدمة الإنسان البسيط مغائن الثقافة وروائع الفن ، ولكنه يأبى إلا أن يفسد كل شى جميل يصنعه ، وأن يدمر كل شى عظيم يخلقه . . . السياسة تمسك بخناق أزمات المال ، لتفضى إلى أزمات الحروب ، وهكذا أعطى الحياة شقاء لا حدود له وسعادة لا مثيل لها . . .

كل ذلك تم فى هذا القرن . . أليس هو أعظم القرون ؟  
وفى مصر وقعت ، خلال هذه المائة الفريدة من السنوات ، أمور لم يقع مثلها فى قرون مضت :

\* فى هذه المائة سنة وقعت ثلاث ثورات : ثورة سنة ١٨٨٢ ، وثورة سنة ١٩١٩ ، وثورة سنة ١٩٥٢ . وبين الواحدة والأخرى ثلاث وثلاثون سنة تقريباً .

كما وقعت ثورة السودان الأولى فى سنة ١٨٨١ ، وهى ثورة المهدي ، ثم وقعت الثورة الثانية فى عام ١٩٢٤ بقيادة الضابط على عبد اللطيف احتجاجاً على طرد الجيش المصرى من السودان .

\* وفى هذه السنين المائة عزل أربعة من الملوك : عزل الإنجليز اثنين هما : : إسماعيل سنة ١٨٧٩ ، وعباس سنة ١٩١٤ : وبين العزلين [٣٥ سنة :

وعزل الشعب اثنين هما : فاروق بعد ٣٨ سنة ، ثم فؤاد الثانى بعد سنة .

\* وفى هذه السنين المائة سقطت الملكية المصرية أقدم الملكيات فى تاريخ الإنسانية ، الملكية التى استمرت خمسة آلاف سنة متصلة لم يتخللها حكم جمهورى ولو لساعة .



\* في هذه السنين المائة فقدت مصر استقلالها ، واستردته مرتين .  
فقدته سنة ١٨٨٢ ، ثم استردته سنة ١٩٥٦ ، ثم عادوا إلى احتلالها في  
السنة نفسها ، بعد أشهر ، ثم جلوا عنها أيضاً في السنة نفسها بعد  
أشهر كذلك

\* في هذه السنين المائة وقع حريقان سياسيان الأول في الإسكندرية  
في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، وكان نذيراً بالاحتلال وضياح الاستقلال ،  
والثاني في القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان بشيراً بسقوط الملكية ،  
وزوال الاحتلال ، وعودة الاستقلال .

\* في هذه السنين المائة تحول النيل سنة ١٩٦٤ عن مجراه الطبيعي للمرة  
الثانية ، بعد أن حوله مينا منذ ثلاثة آلاف سنة .

\* في هذه السنين غاب اسم مصر ، البلد الوحيد الذي ذكر في  
القرآن خمس مرات صراحة وأكثر من عشرين مرة بطريق الوصف  
والكناية ، كما ذكر في التوراة ، غاب عندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا ،  
ولكنه عاد بعد اثني عشر عاماً .

\* في هذه السنين المائة زالت أنظمة كانت تبدو مقدسة ونخالدة  
لاتزول : زال الوقف والحكر ، والامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة ،  
والمجالس المالية والشرعية .

\* زال من فوق الرؤوس الطربوش الأحمر ، وبقي مكانه شاغراً :  
\* في هذه السنين المائة فقدت ملكية الأرض الزراعية قداستها التي  
صاحبت آلهة المصريين القديمة ، وانتقلت إلى الفلاح لتكون من  
مقدساته التي يجود في سبيلها بالحياة . أصبح الحد الأعلى للملكية الزراعية  
مائتي فدان ، فمائة ، فخمسين . وعرف المصري « الإصلاح الزراعي »  
لأول مرة .

\* في هذه السنين المائة سقط أيضاً النفوذ الأجنبي الذي استأثر  
بالمصارف والوكالات التجارية وشركات التأمين ، وأقام له قلاعاً في مدارسه



التي لا تعلم العربية ولا التاريخ المصري ، عاد كل ذلك إلى المصري ،  
بملكه ويديره ويشرف عليه .

\* في هذه السنين المائة حقق المصريون ثلاثة آمال : الدستور  
والجامعة والمصرف القومى .

\* عرف المصريون من الدساتير : اثنين فى عهد إسماعيل : دستور  
سنة ١٨٦٦ ودستور شريف المقترح سنة ١٨٧٩ .

واثنين فى عهد توفيق : دستور سنة ١٨٦٦ ، ودستور الثورة  
العربية فى ٢ يناير سنة ١٨٨٢ .

واثنين فى عهد عباس : دستور اللورد دوفرين ، أول مايو سنة  
١٨٨٣ ، دستور اللورد كيتشنر ، أول يولية سنة ١٩١٤ . الأول أنشأ  
مجلس شورى النواب والجمعية العمومية ، والثانى أنشأ الجمعية التشريعية .

واثنين فى عهد فؤاد : سنة ١٩٢٣ ، وسنة ١٩٣٠ :

واثنين فى عهد الثورة الأول : ١٩٥٦ و ١٩٥٨ المؤقت .

واثنين فى عهد الثورة الثانى : ١٩٦٤ ، ١٩٧١ .

\* وعرفت مصر جامعتين : أهلية سنة ١٩٠٨ ، ورسمية سنة ١٩٢٦ . ثم  
عرفت جامعة الإسكندرية فأسيوط فطنطا فالمنصورة فالزقازيق .

\* وولد بنك مصر فى مايو سنة ١٩٢٠ .

\* فى هذه السنين المائة عرفت زعيم الوطنية الأول ، مصطفى كامل ،  
بعد زعيم ثورتها الأولى أحمد غرابى ، ثم زعيم اقتصادها الأول : محمد  
طلعت حرب ، وشاعرها الأكبر : أحمد شوقى ، ومثاها الأول :  
محمود مختار وملحنها الأول : سيد درويش .

\* فى هذه السنين المائة عرفت مصر ، بعد مقتل كليبر فى مطلع  
القرن التاسع عشر ، على يد سليمان الحلبي : القتل السياسى :

ففى هذه السنين المائة قتل ثلاثة من رؤساء الوزارات ، وشرع فى  
قتل سبعة ، كما قتل وزير واحد ، وشرع فى قتل أربعة ..



وقتل من رؤساء الأحزاب ثلاثة ، وشرع في قتل اثنين .

• وفي نوفمبر سنة ١٩٢٤ قتل الضابط البريطاني السيرلي ستاك باشا حاكم السودان العام ومفتش الجيش المصري ، وترتب على قتله طرد الجيش المصري من السودان ، ثم قبض على سبعة من شباب مصر ، الذين قاموا بالعمل السري الوطني سنين ، وهم الدكتور شفيق منصور ، والطالبان الشقيقان عبد الحميد وعبد الفتاح عنایت ، والعاملان إبراهيم موسى وراغب حسن ، والموظفان : محمود راشد ومحمود إسماعيل ، وشنقوا جميعاً ما عدا الثالث فقد عفى عنه ، رحمهم الله جميعاً وغفر لهم .

• في هذه السنين المائة وقعت أكبر فضائح السياسة الدولية ، تلك هي إنشاء إسرائيل على أرض فلسطين . وقد هزت هذه القضية العالم ، ولا تزال مصدراً للقلاقل والاضطرابات التي تدنى هذا العالم من شفا الحرب العالمية .

فكانت تحدياً للعرب ، ليرأبوا الصدع في وحدتهم وليشحنوا ملكات التنظيم والمخطيط ، وحشد القوى ، وحسن الاتصال بالمنابر الدولية ليتسنى عرض القضية ، بنجاح ، وكسب الأصدقاء ، وتحليل الأحداث ، وإعداد الدعاة والخبراء والباحثين .

• في هذه السنين المائة حدث أعظم تطور في مجال المال والاقتصاد والسياسة معاً . فقد أصبح الشرق العربي سيد أعظم رصيد للنفط ، مصدر الطاقة التي تعتمد عليها الصناعة والزراعة والحرب والسلام ، والثقافة والعلم ، كما أصبح الشرق العربي مالك أعظم المال ، السيد الأكبر للدول والجماعات والأفراد . والشرق العربي في أعز موقع من العالم : بين القارات ، في موطن الحضارات ، ومهبط الرسالات ، فهل يخرج من كل هذا شيء جديد لعالم جديد بفكر جديد ؟

هذا ما نطرحه علينا المائة سنة الماضية .







## الحياة والموت

تتعاقب الحياة والموت في كل بيت : يولد طفل ويموت شيخ ، ولكن على غير وتيرة ثابتة . فقد يموت طفل ويبقى شيخ حتى يبلغ أرذل العمر ، فالموت والحياة هما المفاجأتان الدائمتان للإنسان ، يغيب عنان من نتصور طول عمره ، ويهمل علينا من لا ننتظر قدومه ، ويشقى الميثوس من علاجه ، وتنتهى حياة من يبشر بحياة مليئة بأسباب القوة . ولولا هذا التجديد المستمر في منهج هذين الضدين المتكاملين لفاضت حياة البشر رتابة وسأمًا :

وقد كان للحياة والموت المنهج نفسه في بيت مصطفى كامل : كان والد مصطفى كامل ريفيًا ، ولد في سنة ١٨١٤ في قرية « كتامة الغاب » التابعة لمركز طنطا ، وكان أبوه من تجار الفلاحين يتاجر في الغلال ، ولو لم يأت عهد محمد علي ، ويفتح المدارس لأبناء التجار والعمد والمشايخ ليصنع منهم موظفين في الحكومة ومهندسين وأطباء في الجيش المصري وإداراته ومستشفياته وبناء الكبارى والجسور له ، لو لم يأت هذا العهد لبقى « علي محمد » والد مصطفى في القرية يتلقى مبادئ القراءة والكتابة وقواعد الحساب الأصلية ، ويحفظ نصيبًا من القرآن ، ويعين بعد ذلك في تجارة أبيه ، ويخلقه بعد موته . ولكنه اختير وهو في العاشرة ، مع أنداده ، ليلحق بمدرسة « طرة » وكان من زملائه الصبي إسماعيل محمد ، الذي أثبت فيما بعد أنه مهندس نابه ، وقد اختير آخر الأمر رئيسًا لمجلس شورى القوانين في عهد الخديو توفيق ، بعد أن منح رتبة الباشوية . ولما ذهب « علي محمد » إلى المدرسة



بطرة ، حرص أبوه على أن يؤجر له بيتاً على مقربة منها ، وأن يرسل معه والدته لتوفر له ما يلزمه من أسباب الراحة ، فقد كان التغرب عن الأهل في تلك الأيام محنة لا يسهل احتمالها عند أهل القرى المصرية ، وقد سعى والده لدى ناظر المدرسة « سليم أغا » حتى يأذن لابنه أن يخرج من المدرسة متى شاء ، بعد ساعات الدرس — ليأوى إلى أمه ويأنس بها ، وهذا عمل إن دلّ على شدة حب الوالد لولده فإنه يدل أيضاً على أن الوالد كان ميسور الحال ، لأن إعداد منزل إلى جانب المدرسة غير بيت العائلة عبء لا يحتمله ريفي محدود الدخل : وانقضت على التلميذ « على محمد » أربع سنوات في المدرسة ، فلما كانت سنة ١٨٢٨ تخرج فيها وهو على رأس أقرانه ، ومنح رتبة الملازم الثاني ، في سلاح المدفعية ، ثم عين معيداً في المدرسة التي تعلم فيها مما يدل على كفايته واقتداره .

ولم يكد الملازم الأول يتخرج ويتسلم وظيفته في مدرسة طرة حتى زوجته والدته ، لتكتحل عينها برؤية أولاده ، ولكن الحياة أبت إلا أن تلعب إحدى لعبها المفضلة ، فقد بقى الأب الشاب الصحيح البدن ، محروماً من الأولاد حتى انتهت فترة شبابه ، وبدأ عهد الرجولة ، إذ رزق بأول بنيه واسمه « محمد » وهو في الثانية والأربعين ، أى بعد أكثر من اثنين وعشرين عاماً من زواجه ، وقد كتب لمحمد هذا ألا يكمل الخمسين وأن يموت في الثامنة والأربعين في سنة ١٨٦٦ ، وهي سن — حسب متوسط الأعمار في مصر — تعتبر سنّاً صغيرة ، وقد أتم محمد تعليمه واشتغل بالصيدلة ، وقد رزق بدوره أولاداً كان منهم الأستاذ أحمد زكى كامل الذى بلغ أعلى مراتب السلك القضائى ، إذ عين مستشاراً بمحكمة النقض . ثم رزق على أفندى محمد ابنه الثانى سليمان علوى الذى أتم دراسة الحقوق وعين فى المحاكم المختلطة ، ثم توفاه الله شاباً فى التاسعة والعشرين من عمره ، وذلك فى سنة ١٨٨٧ ، ثم رزق أطول أولاده عمراً وهو حسين واصف الذى تخرج من مدرسة الهندسة



(المهندس خانة) ، ثم عمل في مصلحة الري مهندساً ، ورفق إلى وظيفة المفتش ، وعين وزيراً للأشغال ومنح رتبة الباشوية . وكان بالنسبة لمصطفى وإخوته رب الأسرة ، يحبونه ويطيعونه ، ويفخرون به ، وهو يرعاهم ويحسن توجيههم .

وماتت زوجة على أفندى الأولى ، فتزوج ابنة المهندس عبد الرحمن خليل ، فرزق منها ولداً نابهاً أتم تعليمه في مدرسة الطب ، ولكنه لم يكمل يفرغ من الدراسة ويستقبل الحياة العملية ، حتى أصيب بحمى التيفوس ، فوافاه أجله في السادسة والعشرين من عمره في الثامن من سبتمبر سنة ١٨٨٦ ، وكان يستمع في صباح ذلك اليوم إلى مقال كتبه أخوه مصطفى ونشرته له إحدى الصحف اليومية ، وفي مساء هذا اليوم نفسه فاضت روحه في الساعة الثامنة مساءً وكان مصطفى عند وفاة أخيه عبد الفتاح في باريس ، فقرأ نعيه وهو في قهوة «كافيه دي لاييه» في إحدى صحف القاهرة فأبرق إلى أخيه : هل صحيح ما نشر عن أخينا ؟ وكان عندما وقع نظره على النعي دارت به الدنيا ، وكاد يسقط إلى الأرض لولا أن تداركه اثنان من أصدقائه : عمر لطفي القانوني الكبير وأحمد زكي الذي عرف بعد ذلك « بأحمد باشا زكي شيخ العروبة » . ولما تلقى مصطفى رداً على برقيته من كلمتين اثنتين « عليك بالصبر » ساءت صحته ، وأرسل يقول لأهله : إني مريض للغاية ، وفي حالة خطرة ، سأبرح مرسيليا السبت على الباخرة كليوباترة ، فأصل إلى الإسكندرية الخميس صباحاً ، أرسلوا أخى علياً ينتظرني .

وهذا وحده يرينا جانباً من شدة إحساس مصطفى ، وتأجج عاطفته ، وتعلقه بمن يحبهم تعلقاً شديداً .

وفي سنة ١٨٦٨ تزوج على أفندى محمد للمرة الثالثة من السيدة حفيظة بنت اليوزباشي (النقيب) محمد أفندى فهمي ، فرزق منها في سنة ١٨٧٠ ابنه علي فهمي . وفي سنة ١٨٧٤ ولد له أعظم أبنائه :



مصطفى كامل ، وكان الأب يومذاك في الستين من عمره ؛ ثم رزق ثلاثة أولاد ذكور توفوا جميعاً وهم أطفال ، ثم رزق حسن حسنى كامل الذى عمر حتى تجاوز الثمانين ، كما رزق بنتين هما نفيسة وعائشة ؛ فهذه عائلة عرفت كل ما تجود به الحياة وكل ما يجود به الموت (إن كان الموت يجود) من أحداث : فمن بينها من مات طفلاً ، وفيها من مات شاباً ، وفيها من عمر حتى تجاوز الشيخوخة وبلغ الهرم ، وفيها من مات على فراش المرض ، مات ثلاثة من الأطفال ، ومات ثلاثة من الشبان هم سليمان علوى فى التاسعة والعشرين ، وعبد الفتاح فى السادسة والعشرين ، ومصطفى كامل فى الرابعة والثلاثين . وفيها من مات فجأة ، ومن هؤلاء الوالد نفسه على أفندى محمد ، فقد مات بالسكتة القلبية فى الثانية والسبعين وذلك سنة ١٨٨٦ ، وكان ابنه مصطفى فى الثانية عشرة . كما مات على فهمى كامل فجأة موة جديرة بالأبطال : مات وهو فى السادسة والخمسين على المسرح حتماً لا فعلاً ، بعد أن عاش بعد أخيه وأستاذه وزعيمه مصطفى كامل ثمانية عشر عاماً . وكان مساعداً نشيطاً لأخيه يخطب ويكتب فى الصحف ، ويشرف على إدارتها وعلى المدرسة التى حملت اسم مصطفى كامل ، ويضطهده الإنجليز إبان عمله ضابطاً بالجيش ، ويدخل السجن بعد ذلك ، وقد اجتمع فى شخصه المقاتل بالبيان والمقاتل باللسان ، فقد كان ضابطاً ، ثم تعلم القانون واشتغل بالمحاماة .

وفى اليوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٦ كان الوطنيون يحتفلون بذكرى محمد فريد فى سينما متروبول بالقاهرة ، وبعد أن خطب « على » خطبة ، على طريقته وبأسلوبه المتدفق الذى تتوارد بفضله على ذهنه الخواطر ، وتلاحق على لسانه الألفاظ ، ويدوى صوته مجلجلاً راعداً ، جياًشاً بالعاطفة ، جلس فتعثر فى حركته فسقط على الأرض ، فحسب الناس أن ذلك عثرة قدم ، أو لحظة إغماء ،



إلا أن الأطباء أعلنوا أن القضاء قد حمى ، فضج المكان بالنحيب وعلت الأصوات بالعويل ، وفتش ملابسه الذين حملوا جثمانه إلى داره ، ليخرجوا منها ما عسى أن يكون فيها من نقود أو أوراق حرصاً عليها من الضياع ، فلم يجدوا معه ، إلا ما يكفي للعودة إلى المنزل في قطار الترام!! أى عدة قروش ؟

ولقد مات على دون أن يتزوج ، كما لم يتزوج أخوه مصطفى ، وهؤلاء الشبان ماتوا قبل أن يأخذوا من الحياة نصيباً : لا الزوجة ولا الولد ولا المنصب ولا العمل . . .

ولكن من أية طبقة كان هذا الوالد ، الذى امتحن بأشق ما يمتحن به الرجل : ثكل الولد وفقد الزوجة .

أورد عنه على فهمى كامل ، فى كتابه عن أخيه مصطفى كامل ، أمرين يدلان على خلقه ، وعلى صفاته الممتازة . ودما ثباته ورباطة جأشه ، وقوة خلقه ، فقد قال : قد ترك بعد وفاته ضمن كتبه وورقه خمسين وخمسين نتيجة زمانية ( أجندة ) خمسة وخمسين عاماً .

ثم قال : توفى الكثيرون من إخوانه وأقرانه فقام بالنيابة عنهم فى تربية أبنائهم ومؤاساة عائلاتهم حتى كان يوماً وكيلاً عن ٣٢ عائلة ، وكان يسميه أهل الصليبية « أبو اليتامى » : وقد شهد فى حقه على باشا مبارك ، وزير المعارف العظيم ، ورائد التربية والثقافة فى مصر ، بعد رفاعة الطهطاوى ، شهادة جديرة بأن تذكر من رجل عادل حسن التقدير ، كعلى مبارك ، قال عن المرحوم على أفندى محمد : كان معيداً على فى مدرسة طرة فسأله ابنه « على » عن سبب تخلفه عن إخوانه الذين وصل منهم إلى الوزارة عديدون وإلى المناصب الأخرى غير قايدين فقال : إنه كان من جهة وحيد والدته فلم ترض أن يسافر ، ولم يرض أن يتركها مع أول إرسالية مصرية إلى أوروبا ، ومن جهة



أخرى كان شديد المراس أئى النفس لا يعرف التملق ولا النفاق ، وقد كنا جميعاً نحبه ونجمله كثيراً .

ولا شك فى أن هذه الشهادة هى الحق كله ، فقد عرفت ، على محمد ، فى أولاده الذين جمعتنى بهم الأيام بعد وفاته ، ومن كان منهم ناجحاً ، ومن كان منهم قليل الحظ من النجاح . فقد كانت فيهم صفة مشتركة هى الصوت الجهير ، والثقة بالنفس ، والميل إلى إعلان الرأى والجهر به . وكره المجاملة إذا كانت على حساب الحق .

وكل واقعة من هذه الوقائع التى ذكرها ابنه ذات دلالة عظمى : فأن يحتفظ رجل من أوساط الناس بيوميات يقيد فيها ما يجرى له يوماً بعد يوم حتى يكمل العام ، ثم يبدأ فى العام الجديد ، بتقويم جديد (أجندة) يثابر فيها على القيد ، ويحتفظ بها سليمة ، ويتركها لأولاده ، تصور حياته وأهم ما جرى لها فيها لا سنة ولا عشر ولا عشرين ، بل خمساً وخمسين سنة ، فإن هذا عنوان وحديث فصيح عن أكثر من فضيلة : « المثابرة والنظام والإرادة والثقة بالنفس » . فالرجل الذى يقيد حوادث حياته ، لا بد أن يكون حسن الظن بنفسه ، وحسن التقدير لحياته ، أخذاً كل ما فيها على وجه الجد .

وأن يحمل نفسه مسئولية الأيتام ، ليس ذلك ، حناناً منه فحسب ، فالعهد بالعاطفة وحدها أن تقف عند حد الانفعال داخل النفس ، ما لم تؤيدها فضائل أخرى كالعزم والصدق فى خدمة الغير ، والقدرة على تحمل الأذى فى سبيلهم ، إنكار الذات وحرمان النفس من الراحة فى سبيل هذه الغاية ، فطالب الأيتام كثيرة ، تقتضى القائم بها بانتقالاً وتردداً على أصحاب السلطة .

وكونه لم يتقدم فى الحياة العملية ، لأنه منذ البداية رفض أن يترك أمه التى تركت أباه لتقيم معه بجوار مدرسته فى طرة ، إنما هو وفاء «وتضحية» ؛



وَأَلَا يَعُوْضُ نَفْسَهُ عَنْ هَذَا ، بِالتَّلَطُّفِ لِلرُّؤَسَاءِ ، وَالتَّيَاسِ وَسَاطَتِهِمْ ، وَمِنْ  
زَمَلَائِهِ وَزُرَّاءِ ، وَمِنْ تَلَامِيذِهِ رُؤَسَاءِ ، فَهَذَا دَوْرُ التَّعَفُّفِ فِي أَجْمَلِ صَوْرِهِ  
وَأَسْمَاهَا .  
وَقَدْ أَوْرَثَ ابْنَهُ مِصْطَفَى أَكْثَرَ هَذِهِ الصِّفَاتِ .



## صبي قلق

ما أصدق قول القائل : الرجل ابن الطفل !  
فأكثر ما يحققه الرجال والشيوخ أحلام تساورهم وهم أطفال ، فأحلام  
الأطفال هى حقائق الرجولة . وإذا أردت أن تعرف الرجل فابحث عن  
أسرار عظمتة فى طفولته .

وقد كان مصطفى كامل مناضلاً فى حياته القصيرة التى دامت  
أربعاً وثلاثين سنة ، بدأت فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٤ ،  
وانتهت فى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ . بدأت والحر فى أعلى ذروته ،  
وانتهت والبرد فى غاية قمته .

كان النضال مفتاح شخصيته . وقد صاحبه النضال منذ كان  
صبيّاً ، بل منذ كان طفلاً . فى طفولته كان يجلس مع إخوته حول  
أبيه ، على طريقة تلك الأيام ، حول صينية من النحاس عند تناول  
الطعام ، وكانت هذه الصينية منقوشاً عليها : « ملك عبد الرحمن  
الشنوائى سنة ١١٤ » ، وكان الأطفال يتنافسون على الجلوس أمام هذا  
النقش ، وكان مصطفى أصغرهم ، وأحقهم بالتسليم بالهزيمة ، لأن  
الذين ينافسونه يكبرونه فى السن ، ويتفوقون عليه بقوة الجسم ، ولكنه بقى  
مشاركاً فى المنافسة ، حتى حسمها الوالد يوماً ، بأن خص الطفل  
مصطفى بهذه الميزة . وقد لا تدل هذه المنافسة على قدرة على النضال ،  
لأن الأطفال مطبوعون على التعلق بكل ما يملكه الكبار ، وهم يملكون  
سلاحاً يائراً يغلبون به من يكبرهم فى السن وهو البكاء والصراخ ، ولكن



مصطفى كان قد تجاوز سن البكاء ، فلم يكن عنده من سلاح إلا ثقته بنفسه ، وإصراره على مغالبة الذين يكبرونه .

ولكن لدينا دليل آخر ، مبكر غاية التبكير ، يكشف عن شخصية هذا الطفل العجيب : أنه تلقى الدروس الابتدائية في ثلاث مدارس : أم عباس ، والسيدة ، والقريبة .

وتلقى الدروس العليا في أربع كليات ، الحقوق الحديوية ، والحقوق الفرنسية ، وحقوق باريس وحقوق طولوز .

وقد تلقى الدراسة الثانوية في المدرسة الحديوية لأنها كانت المدرسة الثانوية الأولى في مصر ، وربما لا يكون لها نظير آنذاك .

ولكنه في المدرسة الثانوية كانت له ثلاث وقائع أيضاً تدل كلها على أن حياته تأبى أن تمضى خالية من الصدام والوقائع المثيرة :

لم يترك مدرسة من هذه المدارس إلا بعد صدام ، وكان الصدام دليلاً على أن الطفل كان شديد الثقة بنفسه ، عظيم الاحترام لها ، مرهف الحس إلى أقصى الغاية .

عرف كيف يصاحب الرجال من طفولته ، فكان يصاحب أباه في صلاة الفجر ، واستطاع أن يحفظ ورد السحر ، لشدة انتباهه إلى أبيه وهو يردده ولأنه يود أن يكون كالكبار ، فلا بد أن تكون له مؤهلاتهم ، فيحفظ ما يحفظون ، ويرددهما يرددون .

ولا يستطيع قائل أن يقول إن باعث الطفل مصطفى على ملازمة أبيه في صلاة الفجر هو الفضول الذي هو أبرز صفات الأطفال ، فإن الأطفال يكرهون كل ما يحرمهم من النوم الهنيء في الساعات الباردة خصوصاً في الشتاء ، وقد حدثنا العقاد في ترجمة حياته ، كيف كان يتخلف عن صلاة الفجر في أسوان ، حيث يكون الجودافئاً ، وحيث تطلع الشمس مبكرة ، وكيف كان أبوه ، يؤدبه عند هذا التخلف ويقسو في تأديبه .



ولما رأى إخوة مصطفى أنه يلازمهم ويقلدهم ، ويقوى على أداء ما تقتضيه هذه المصاحبة وذلك التقليد ، أحبوه وألفوا أن يقرأوا أمامه دروسهم ، وأن يسمعه بعضهما ، ويشرحوا له بعضها الآخر ، حتى ما كان منها أعلى عن أفهام أمثاله ، فقد اتخذ من أخويه غير الشقيقين سليمان علوى الذى توفى شاباً ، وحسين واصف الذى عاش بعده ، طويلاً ، صديقين ، يسألهما ويردان عليه . فلما دخل المدرسة الابتدائية كان يجمع بين النقيضين : جسم نحيل ، يكره صاحبه الطعام ، ويصدف عنه ويهيم بأمرين هما فى الحقيقة غداؤه : السؤال والحركة . وكلاهما حركة .

السؤال حركة ذهن ، والتنقل من مكان إلى مكان حركة جسم . والثانية نتيجة الأولى . فلولا أن ذهنه دأب الالتفات إلى الأشياء والأشخاص منهموم بمعرفة الأسباب والأسرار ، معجب بكل ما تقع عليه حواسه مما لا يفهمه ، من ظواهر الطبيعة أو ظواهر الاجتماع ، لما ضاق بالسكون والاستقرار لأنهما صفتا الحيوية القليلة ، والصبر الطويل .

ولما دخل مصطفى المدرسة الابتدائية ، بعد أن كان قد حفظ شيئاً من القرآن ، كان صبيّاً ناضجاً عرف من مبادئ المعرفة ما لا يحيط به أنداده ، وربما لا يعرفه أستاذه . فقد كان أبوه يقص على أولاده القصص ، ويروى لهم نوادر البطولة ، وكان أخواه يطرفانه بالسهل اللطيف من حقائق العلم وغرائب التاريخ ، وقد علمه هذا كله ، ونمى عنده موهبة تجعل الصبي الصغير يبدو كبيراً ، وهى موهبة التعبير الحسن ، قرب جملة ما تلقى إلقاء حسناً تستوقف نظر الرجل والشيخ وتستلفتها فى إعجاب وتقدير إلى الصبي الذى قالها وقد لا يعرف الكثير غيرها . فنصف جمال الكلام فى حسن أدائه .

وكانت أولى وقائعه فى مدرسة والده عباس باشا الأول ، وكانت قريبة من داره الواقعة بحارة درب الميضاة بشارع الصليبيه بحى قيستون ، المعروف الآن بقسم الخليفة . عاد آخر النهار إلى أبيه غاضباً ومحتجاً



ومصممًا على أن يترك هذه المدرسة لأن مدرستًا فيها ظلمه وأهانته معًا .  
فقد سأل المدرس أحد التلاميذ سؤالًا ، فملكأ التلميذ المسئول ، فأسرع  
مصطفى إلى الرد ، لأنه يعرف الجواب . وهذا أمر مشاهد بين الصبيان  
وأحيانًا بين الكبار ، فمن كان يعرف شيئًا يفرح بالإفشاء به ، وتزداد  
رغبته في هذا الإفشاء ، إذا كان غيره عاجزاً عن الإجابة . وغضب  
المدرس من هذا ، وهذا أيضًا طبيعي فسب مصطفى والسب وسيلة  
تلقائية عند المدرسين ولا سيما في تلك الأيام . والخروج على النظام ، ولو كان  
غير ضائر ، مسوغ جيد وللضرب السب ؛ ونقاد صبر المدرس وكرمه كل  
ما يجري في الفصل ظاهرة عالمية منذ خلق الله المدرس والتلميذ . ولكن  
المدرس لم يقنع بسب مصطفى بل حبسه ساعتين .

وظفل ناجح كمصطفى ، ينظر إلى نفسه كأنه نداء للرجال ، يجالسهم ،  
ويسامرهم ويصلي معهم ، ويعمل مثلهم ، تكبر عنده الإهانة التي تلحقه .  
ولكن أباه لم ينسق مع شكواه وقال له : « ألم أقل لك من يتدخل فيما لا يعينه  
يسمع ما لا يرضيه » ، ولكن كان عند مصطفى رد مقنع إذ قال :  
لقد عاقبنى المدرس على غلطة واحدة بعقوبتين وهذا ظلم . سبني ثم  
حبسني ولو حبسني فقط لما غضبت ، أما السب فلا أقبله . وأنا لا أقبل  
هذه الإهانة ، ولو قتلت في سبيل رفضها . وذهب أبوه معه وحقق  
في الأمر ، ووجد أن ابنه محق فنقله إلى مدرسة السيدة زينب الابتدائية .

وإني أفسر هذا النقل بسببين : أولهما أنه رأى أن بقاء ابنه في المدرسة  
بعد شكواه من مدرسه والتحقيق في الشكوى سيجعل مصطفى هدفًا لغضب  
هذا المدرس ، وقد يكون هو مدرس كل المواد أو أكثرها ، والسبب  
الثاني أن حب على أفندي لأصغر أولاده وقتذاك وأكثرهم ذكاء ،  
وأعظمهم فصاحة ، كان حافزه لهذا النقل ، على سبيل تدليله وإظهار  
إعزازه .

وانتقل مصطفى إلى مدرسة السيدة زينب ، التي عرفت فيما بعد بمدرسة



محمد علي ، وكانت من أعظم مدارس الحكومة الابتدائية ، وتقع على مقربة من قسم السيدة زينب . ولكن لم يلبث أن اصطدم بمدرس اللغة العربية السيد أفندي الحسنى . فقد كان الصبي يسمع طرفاً من التاريخ يرويه له أخوته ووالده . فتاق أن يتلقى دروس التاريخ في مدرسته ، فسأل مدرس اللغة العربية متى نتلقى دروس التاريخ ؟ فقال له المدرس الإجابة الطبيعية والمنطقية التي لا إجابة غيرها ، إذ قال إن مادة التاريخ تحتاج إلى سن أكبر من سنه ، وإلى نضوج أكثر ، فلا تتعجل الأمور ، حينما تكبر ستتعلمها . فرد مصطفى بأسلوب فيه من الاعتداد بالنفس مالا بد أنه بدا للأستاذ غروراً أو قحّة إذ قال له : إن هذه المدرسة أصغر مما كنت أظن ، فإن أبى يحدثنا في التاريخ فأفهمه كما أفهم دروس المدرسة الأخرى .

ويبدو أن ما زاد في اعتداد مصطفى أنه كان أول فرقة يومذاك . فغضب المدرس من هذه الإجابة وأمره بأن يترك الفصل ، فكبرت الإهانة على مصطفى . فخرج من الفصل والمدرسة معاً . ولما كان يعرف المكان الذي يجلس فيه والده في هذه الساعة من النهار بعد أن أحيل إلى المعاش ، فقد قصده حيث يجلس أمام صيدلية فتحى أفندي بجوار قسم الصيدلية الذي كان يطلق عليه وعلى غيره ( قره قول ) وهى كلمة تركية .

وكان عادة أهل ذلك الزمان تقضى بأن يتخذ عملاء الصيدلية منها ومن المساحة القليلة الواقعة أمامها منتدى يجلسون فيه ، ويتسامرون ، ويقرأون الصحف ويعلقون عليها ، وكان يجالس على أفندي خورشيد باشا طاهر ، فسلم على الاثنين ، وروى لوالده ما جرى ، فأخذه الوالد فور اللحظة وذهب به إلى المدرسة ، واعتذر للمدرس ونفى عن ابنه رذيلة الغرور ، وخطيئة الوقاحة .

وفي هذه المدرسة أصيب مصطفى بأول أمراضه الطويلة ، فقد نزل به



المرض فألزمه الفراش شهرين كاملين ، ويبدو أن الأطباء لم يهتموا إلى سبب العلة ، حتى برى بمقاومة جسمه ، وإن كان جسمًا نحيلًا .  
وفي أثناء دراسة مصطفى بهذه المدرسة مات والده ، فتولى أمره أخوه حسين واصف ، وكان آنذاك من مهندسى وزارة الأشغال بمصلحة الري ، فطلب منه مصطفى أن يبعث به إلى مدرسة القرية ، لأنها قريبة إلى بيت جده لأمه النقيب محمد أفندى فهمى ، فأجابه أخوه إلى ما طلب ، فكانت المدرسة الثالثة .

وفي ختام الدراسة أنى مصطفى إلا أن يتهيأ بحدث سياسى ، إرهابيًا لحبه للسياسة وانقطاعه لها ، وتألقه فيها ، فقد كان أول فرقته ، وكانت « نظارة » أى « وزارة » المعارف يومذاك عظيمة الاحتفال بتوزيع شهادات النجاح على التلاميذ ، وكانت تقيم لهذه المناسبة مهرجانًا لا يحضره الوزير فقط ، بل الخديو أيضًا ، فيوزع بيده الشهادات والجوائز ، ويوصف هذا الاحتفال فى الجريدة الرسمية . ولا غرابة فى ذلك ، فالمدارس — ولو كانت ابتدائية — كانت من القلة بحيث كان التلميذ فيها شخصية من شخصيات المجتمع ، وبحيث يكون نجاحه فيها ، ولا سيما إذا كان هذا النجاح فى ختام هذه المرحلة ، حدثًا جديرًا بأن يذكر .

جاء الخديو توفيق الى مدرج المعارف الذى أقامه القدير العظيم على مبارك على مقربة من مبنى الوزارة ومعه رجالات الدولة ، والغازى مختار باشا مندوب تركيا السامى . ويقول على فهمى شقيق مصطفى كامل فى التاريخ الذى كتبه لشقيقه إن مصطفى ارتجل خطابًا فى تحية الخديو على البديهة ، وإن هذا الخطاب أعجب الخديو ، فسأل مصطفى عن اسمه واسم أبيه وعن سنه ، فأجاب كما كان يجب أى طفل سواه ، ذكر اسمه واسم أبيه وسنه . ولكن على فهمى يقول إن ضابط المدرسة الذى كان يقف وراء كل تلميذ يتسلم شهادته ، أخذ يلقن مصطفى الإجابة



التي كان يراها أليق وذلك بإضافة : عبد سموكم مصطفى ، وعبد سموكم على محمد . . وأحسب أن القصة تنتهي هنا ، ولكن « علياً » يقول إن مصطفى ذهب إلى الضابط يسأله لماذا كنت تريدني أن أصف أبي وأصف نفسي بأني عبد الحديو ؟ لست أنا وليس أبي عبداً لأحد ، ولو قلت غير ذلك لكنت كاذباً . ولم لو يحدث من مصطفى شيء من هذا ، لما نقص قدر الحكاية بغير هذه الإضافة ، فهي تدل على أن مصطفى كان أول فرقة ، وأنه مثل مدرسته عند قدوم أمير البلاد ، وأنه ارتجل خطاباً في تحية الأمير ، وأن حسن إلقائه ورباطة جأشه استوقفت النظر ، وهذه دلائل نبوغ ، وثقة بالنفس واعتداد بها ، وطلاقة لسان وحضور بديهة مبكرة ، وهذا يكفي .

في سنة ١٨٨٧ ، دخل مصطفى كامل وكان قد بلغ الخامسة عشرة المدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك في القاهرة - وهي المدرسة التجهيزية ، التي عرفت فيما بعد بالمدرسة الحديوية ، والتي حملت بعد ذلك اسم مصطفى كامل نفسه . .

وقد اتضحت ميول مصطفى العقلية : كان رياضياً بالخلقة ، وكان متفوقاً في اللغة العربية ، ضعيفاً في اللغة الفرنسية ، التي أصبحت فيما بعد لغة الكتابة والخطابة بالنسبة له .

وقد يبدو غريباً ، لدى النظرة الأولى ، أن يكون هذا الخطيب الكاتب المتمكن من ناصية اللغة ، المحب للفظ الجميل ، والقادر على التصوير والتعبير به عن أدق الإحساسات ببراعة كسبت له الإعجاب والحب - أن يكون رياضياً ، محباً للأرقام ، وقادراً على أن يفهم مدلولها ، وأن يشبع غرامه بها ، فيكتب على كل ورقة تطوّلها يده عمليات وأشكالاً هندسية ، فإذا نفذ الورق كتب على الجدران والأبواب حتى ينهيه أبوه ، ومن أكبر منه فينتهي فوراً . . كيف يجتمع هذان الغرامان في قلب واحد ، والمقول إنهما غرامان متنافران ؟ والحق أنه لا غرابة في تفوق مصطفى كامل

في الرياضة وحبه للكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي ، فمصطفى كامل لم يكن قط كاتب خيال ، فهو لم يكتب قصة ، ولا قصيدة بوحى من الخيال ، وإنما كتب كل ما كتبه بوحى من الواقع ، وبتأثر منه ، وبرغبة في تغييره ، فهو لا يغيب عن هذا الواقع ولا يفر منه بحلم نوم ولا بحلم يقظة ، لو كان هذا الحلم في صورة قصة أو شعر . والطبيعة والرياضة هما تجسيد للواقع ، وتعامل معه ، فحبهما يتفق مع طبيعة مصطفى العقلية ومع رسالته وأمله في المستقبل القريب .

وإذا كان مصطفى قد قال في خطبه ومقالاته ورسالاته كلاماً يذوب رقة ، ويبلغ في جماله وحسن إيقاعه وموسيقاه مبلغ الشعر ، فذلك لشدة انفعاله وصدق هذا الانفعال ، وقدرته على التعبير عن هذا الانفعال المستوحى من الواقع الذي يصطدم به مصطفى ، ويعمل كل ما في وسعه ليزيله ويغيره ، بالإرادة والعمل ، الإرادة الحية ، والعمل القائم على حقائق الأمور لا على مجرد تمنى تغييرها .

فمصطفى كامل لم يكن شاعر حركة وطنية ولا خطيبها ولا كاتبها فقط ، بل كان زعيمها وقائدها وسياسيها ، وكانت الخطابة والكتابة بعض وسائله ، ففكرته هي التي ألهمته الكتابة والخطابة وصقلت استعداده لهما ولو لم يهتد إلى فكرة الجلاء ومقاومة الاحتلال البريطاني لمصر لكان رياضياً نابغاً أو علماً رفيعاً من علماء الطبيعة أو التاريخ الطبيعي ، أو لكان من هؤلاء الرياضيين الذين يتذوقون الأدب ، ويحسنون الكتابة ، ولكنهم لا يكتبون إلا في العلم ، أو في تاريخه أو في تقريره للناس .

ونحن نذكر هنا أسماء مدرسيه الذين كانوا يعجبون بتلميذهم في الرياضة والعلوم والكيمياء ، وينوون بحسن استعداده العلمي ، ويتنبأون له بمستقبل باهر بين العلماء ، وهم أحمد بك كمال وأحمد أفندي حمدي وعثمان أفندي أنور ومحمد أفندي إدريس وعالم الطبيعة الدكتور محمد بك كامل الكفراوي الذي كان أكثرهم تحدثاً عن تلميذه .



وقد بلغ من ثقة هؤلاء المدرسين بهذا التلميذ أنهم كانوا يعفونه من الامتحانات الدورية التي يعقدونها لغيره من التلاميذ ، لكنه كان مقابل هذه الثقة يحرم نفسه من متعة الراحة بين حصص الدراسة ، ولاسيما فترة الراحة الطويلة بين دروس الصباح ودروس بعد الظهر ، فكان يقضيها كل يوم في معمل الطبيعة والكيمياء بالمدرسة يحضر التجارب ويكررها ، ويتأمل الأجهزة ويسأل عن عملها ، ويشاهد العمليات غير المقررة عليه والمفروضة على الذين يكبرونه في السن ، وكان إسماعيل أفندي فهمي معيد هذين العلمين يستقبله ، ويفسح له صدره ، ويترك له أحيانا المعمل ، يجري فيه ما يريد له من التجارب .

ولما كان العهد بمصطفى أن يعبر عن قلقه بالصدام مع المدرسين أو سلطات المدرسة ، ثم يترك المدرسة إلى غيرها ، فقد بقي وفيما لعادته ، إذ كان له في المدرسة التجهيزية واقعتان من هذا الطراز ، الأولى ذهب من أجلها إلى وزير المعارف علي مبارك باشا ، وكان قد رسب مع سائر تلاميذ السنة الأولى بالمدرسة التجهيزية ماعدا طالبين اثنين ، ذلك لأن الوزارة رفعت درجة النجاح إلى ١٦ درجة من ٢٠ درجة ، وهي نسبة عالية وغير معهودة في تلك الأيام ولا في أيامنا هذه ، ولما كان مصطفى تلميذاً نحيف البدن يبدو عليه أنه صبي أكثر من كونه شاباً فقد رده حاجب الوزير ، فدفع الحاجب وهو يقول كيف تمنعني وأنا ابن الوزير ، فخلى الحاجب بينه وبين الطريق إلى الوزير ، فاستقبله الوزير مندهشاً ومشجعاً معاً ، فقد كان منهج علي مبارك في التربية القومية أن يشجع بل أن يجريء الصغار على مجالسة الكبار ، والمحكومين على مخاطبة الحاكمين ، ولذلك كان يجتمع في بيته بالريف في أثناء العطلة وأيام الراحة بالفلاحين ويتحدث إليهم ويصبر على أسئلتهم وطلباتهم ، ويذهب عنهم الوحشة ؛ فلما سأله أحد أصحابه عن هذا المسلك ، قال إن هؤلاء طبعوا على الخوف ممن هو دون الوزير ، فلا سبيل إلى نزع هذا الخوف ،

والتأكيد لهم بأن الوزير مثلهم ، وأنه لا شيء فيه يخيف سوى المظاهر والحراس والحجاب وما ألفناه من الخضوع لصاحب السلطة ، إلا بأن أجعلهم مع الوزير نفسه وأتبسط معهم ، وأنا لا أملك إلا نفسي . لذلك لم يكن غريباً على هذا الرجل العظيم أن يحسن استقبال تلميذ وجد عند نفسه الشجاعة ليقصد بابه بغير حاجة إلى طويل تحقيق . وقد سأل الوزير مصطفى ، وهو يعلم أنه ابن أستاذه ، عن المشكلة التي جاء يشكو منها ، ببساطة تامة ، وبغير المقدمات التي أورد ما على فهمي كامل في كتابه ، ونميل إلى أنها تزيد من المؤلف ، أو أنها نقلت إليه مع الأيام بهذه الحواشي كما هو الشأن في كل حادثة مهمة تقع في محيط عائلة . جملة الأمر أن الوزير عرف أن الشكوى عادلة ، وأن صاحبها محق فيها . ثم أراد أن يمتحن حضور ذهن هذا الشاكي الجريء فقال له : هب أني لم أستمع إلى شكواك ، فماذا أنت صانع ؟ فقال له ما معناه إنه وزملاءه يهزءون إلى عدله من جوره . فقال له على مبارك وهو يخفي ابتسامة سرور : دعك من الاستعانة بالعدل الذي أعزه من الجور الذي أكرهه ، فربما كان للقرار الذي تشكومنه حكمة تخفي عليك وعلى زملائك ، واقتضت مشيئتي ألا أعدل عنه ، فماذا يكون منك .

فقال مصطفى ما نتصوره ، على غير ما جاء في رواية هذه الحكاية في كتاب شقيق مصطفى ، إذ نعتقد أن مصطفى قال للوزير . إني سأعود إلى زملائي ، وأقول لهم إني عرضت مظلمتهم ، ورجوت الوزير ، ولكنه لعله لا أعرفها رفض شكواكم وأصر على قراره ، ولم يزد . أما أنه قال إنه سيخبر التلاميذ أن الجالس على كرسي الوزارة قد نسي الأبوة ، فهو كلام جارح ونخال من كل أدب وكياسة . ولذلك قال الوزير لمصطفى : اذهب إلى إخوانك وبشرهم بأن القرار ألغى . وانصرف مصطفى انصرف المحامي الشاب الذي ترافع في أولى قضاياها فنجح فيها نجاحاً عظيماً ، فقد التفت التلاميذ حوله ، وسألوا عن الخبر ، فلما علموه



أذاعوه في المدرسة ، حتى بلغ كل ذى أذن فيها من مدرسين مصريين وأجانب ، إلى الناظر ومعاونيه الإداريين . وقد ثبت هذا النجاح ثقة مصطفى بنفسه ، وبقدرته على عرض القضايا والدفاع عنها .

أما الحادثة الثانية فقد كانت عدوانًا ظالمًا على مصطفى ، فقد بدرت من أحد التلاميذ وهم وقوف صفوفًا في ( حوش ) المدرسة عبارة نابية . فحسب الضابط الذى ينادى أسماء التلاميذ الذين وقعت عليهم جزاءات أن مصطفى هو قائلها فجاء بين الصفوف ، حتى وقف أمام مصطفى فضربه بعصا على ذراعه اليسرى ضربة مؤلمة ، ثم أتبع ذلك بشتمه شتمًا قارسًا وبصوت عال سمعه كل التلاميذ : وقد احتج التلاميذ على هذا الظلم الصارخ ، لأن مصطفى كان آخر من يرتكب هذا الخطأ ، وكان العقاب قاسيًا ومهينًا في وقت واحد ، فصدرت عنهم أصوات تعبر عن هذا الاحتجاج ، ثم وقع هرج ومرج ، إذ التف التلاميذ بالضابط وكادوا يعتدون عليه لولا أن مصطفى نهاهم عن هذا كله ، ثم قصد من فوره إلى وزارة المعارف ، فقد عرف طريقة إليها ، وعرف أن الوزير سينصفه لا محالة ، وطالم يجده في مكتبه قصده في بيته ، ولما روى له ما حدث غضب الوزير لهذا المسلك من الضابط غضبًا شديدًا ، فقد كان يكره من كل قلبه أن يعامل التلاميذ بالقسوة التي تقذف في قلوبهم الخوف وتحرمهم الشجاعة وتخرجهم منذ نعومة أظفارهم اتباعًا للسلطة ، يتقون غضبها ولو كان جائرًا . واعتبر أن هذه فرصة لا بد أن ينتهزها ليلقى من خلالها درسًا ، ودعا بعربته ، فركبها ومصطفى إلى يساره ، فلما وصلت إلى باب المدرسة نزل الوزير والتلميذ على صورة لم تشهدها مدارس مصر من قبل ، ولعلها لم تشهدها من بعد . الوزير الكبير الخطير والتلميذ الناشئ المجهول ، الواحد بيد الآخر ، حتى دخل الوزير على ناظر المدرسة وكشف عن موضع الضربة على ذراع مصطفى ، ثم أمر فدق ناقوس المدرسة ، فاصطف التلاميذ صفوفًا ،

فسألهم الوزير عن حقيقة ما وقع ، فشهدوا بأن مصطفى لم يبالغ ولم يرو إلا الواقع ، فدعا الضابط وأفهمه سوء مسلكه ، وأفهمه أنه سيصدر قراراً بفصله ، لأن هذا الاندفاع ليس سمة المربين ، والاعتداء على التلاميذ بالضرب والسب المهين بغير « تثبت » يعلم الأولاد قبول الظلم ، ورده على من هو أضعف منهم ، ولكن الناظر استعطف الوزير ، فقبل أن يعفو عن الضابط المخطئ على أن يعتذر للتلميذ المعتدى عليه ، ففعل الضابط ، وانصرف الوزير راضياً .

وأحسب أنه كان يكفي أن يعلم الإنسان هذه الواقعة من حياة مصطفى المبكرة ، حتى يقطع بأنه سيكون الرجل الذي كان .

وزار على مبارك المدرسة بعد ذلك بأشهر ، فدخل الفصول ليمتحن التلاميذ ، وكان مصطفى آنذاك في السنة الأخيرة ، وكانت الحصة حصّة لغة عربية ، فطلب الوزير من مدرس الفصل أن يختار له أقدر تلاميذه على الإنشاء والإلقاء ، فوقع الاختيار بطبيعة الحال على مصطفى ، الذي ارتجل — بناء على طلب الوزير — خطاباً صغيراً موضوعه ماذا ينوي أن يصنع بعد الدراسة الثانوية . فمنحه الوزير ، بعد أن أعجبته الخطبة وأعجبه الخطيب ، لقب « امرئ القيس » . والغريب أن يمنح الخطيب لقب شاعر ، ولم يمنح لقب خطيب ، ثم أيد هذا اللقب بمكافأة مالية قدرها مائة قرش تصرف في المدة الباقية من السنة النهائية .

وفي صيف سنة ١٨٩١ ، حصل مصطفى على شهادة الدراسة الثانوية ، فأرسل إلى أخيه في ١٢ يولية رسالة من الإسكندرية — وكان قد قصد لها ترويحاً للنفس بعد طول الجهد — يعبر فيها عن سروره بهذا الذي فكّ قيده من الدراسة الثانوية ، وقال : « اليوم أبشرك بأن العقبة الكؤود التي كانت أمامي ، وهي شهادة الدراسة الثانوية ، قد زالت من أمامي ، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي ، فأصبح نحيلاً لا صحيحاً ولا عليلاً ، ولكنني أؤمل أن تعود إلى القوى لأدخل مدرسة الحقوق ،



فقد عولت على الانضمام إلى صفوف طلابها .

ومن خلال هذه الأسطر القليلة ، نلمح شخصية مصطفى كامل تتكامل ، فهذا الطالب الذى يأتى أحياناً على رأس أقرانه ، والذى قد يتأخر إلى السابع بينهم ، يحتاج إلى جهد يضمنه لينجح في امتحان السنة النهائية ، مما يدل على أنه يأخذ كل الأمور جدياً ، وعلى أنه - مع تفوقه في الرياضة والعلوم واللغة العربية - كان ضعيفاً في الفرنسية والإنجليزية ، وكان في حاجة إلى جهد في مواد أخرى ، فهو لا يمكن أن يكون تلميذاً نموذجياً ، ، وإن كان شاباً نموذجياً ، فقد كانت الدراسة عنده وسيلة لا غاية ، إذ كانت أمامه أهداف عرفها جيداً ، وأصبح تواقاً إلى تحقيقها ، وهى لا شك تشغله عن هذه الدراسة العادية التى ينقطع لها التلاميذ الذين ينتهى أملهم إلى الأولوية في الامتحان ، ليدخلوا امتحاناً آخر ، ليحصلوا على الشهادة التى تؤهلهم لوظيفة . ولقد اختار مدرسة الحقوق ، فلم يتردد ولم يسأل أحداً أن يرشده إلى المدرسة التى تليق به . وقد وصفها بأنها مدرسة الكتابة والخطابة ، ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وهو تلميذ جامع مانع ، يدل على أن مصطفى فكر فأطال التفكير ، وأنه اختار المدرسة التى ستفضى به إلى معرفة هذه الحقوق ، والدفاع عنها بالوسيلتين اللتين أشار إليهما : الكتابة والخطابة . وهو قول ملى بالدلالات والإشارات ، سندخره للتعليق عليه ، في الموضع الذى يناسبه .

ودخل مصطفى المدرسة التى أحبها ، مدرسة الكتابة والخطابة ، في خريف سنة ١٨٩١ ، وهو يعلم أن دون النجاح فيها إتقان اللغة الفرنسية ، التى كان يشكو فيها من ضعف بين ، وقد كانت الدراسة كلها في هذه المدرسة باللغة الفرنسية ، وهذا وحده يريك كيف كان مصطفى قوى العزم ، فإن إتقان لغة تدرس بها كل المواد في المعهد الذى اختاره ، كان يحتاج إلى تحمل وصبر ، مع ثقة بالمستقبل ، إذ قد لا تواتيه القدرة على إتقان هذه اللغة ، فيصبح دخوله هذه المدرسة

ضرباً من المجازفة ، بل من قصر النظر .  
 فإذا عرفت أن مصطفى - عند حصوله على الثانوية العامة - كان  
 فى السادسة عشرة من عمره ، أدركت كم كان نضجه مبكراً ، فاستقلاله  
 بإصدار هذا القرار ، وبهذا الجزم ، مع قيام هذه العقبة ليس بالشئ  
 القليل .

وقد ثبتت من عزم مصطفى أنه كان قد عرف صديق عمره . وزميل  
 جهاده فيما بعد ، محمود فؤاد سليم بن لطيف باشا سليم ، فقد كان طالباً  
 بهذه المدرسة وقد كان منزلهما متجاورين ، مع فارق بين الدارين ،  
 فملطيف سليم باشا والد محمد فؤاد كان من الأغنياء ، وقد كان له دور  
 مشهود فى أخريات حوادث عهد الحديو إسماعيل ، إذ كان على رأس  
 الضباط الذين اعتدوا بالضرب على رئيس الوزراء نوبار باشا الأرمنى  
 الأصل ، وريفيرزولسن وزير المالية الإنجليزى الأصل ، حتى أنقذهما  
 من يده الحديو إسماعيل نفسه .

وقد كان تعارفهما منذ اللحظة الأولى فى الدراسة العليا ، فقد كانت  
 أنظمة التعليم وقتذاك تقضى بإجراء امتحان دخول للراغبين فى اللحاق  
 بالمدرسة العليا ، ولا تعتبر الشهادة الثانوية إلا مجرد جواز مرور  
 إلى هذا الامتحان لا إلى المدرسة العليا ، فتعارف مصطفى وفؤاد وهما يؤديان  
 الامتحان ، وزادت صلتهم حينما دخلا مدرسة الحقوق ، فكانا يذهبان  
 معاً ويعودان معاً ، ولا شك أن مصطفى هو صاحب الفضل فى توثيق  
 عرى هذه الصداقة فقد كان دائماً العنصر الإيجابى فى كل علاقة تقوم  
 بينه وبين أحد أصدقائه : هو الذى يخطب الود ، وهو الذى يبقى على  
 هذا الود ، بما ينميه من كلامه وخطاباته ، وعتابه عند التقصير ،  
 وصفحه عند الإساءة . وسرى الكثير من دلائل هذه الحيوية العاطفية .  
 وقد سمعت أخيراً أنه قد دبت فى الأيام الأولى لهذه الصداقة قطيعة بين  
 الصديقين ، إذ نقل إلى فؤاد أن مصطفى يتحدث عن المصريين



المنحدرين من أصول شركسية بأنهم أصل ما يصيب مصر من بلاء ،  
ولما كان فؤاد سليم شركسيًا فقد جاء إلى مصطفى ، واشتد معه في القول ،  
ومدّ يده إليه بالضرب ، فتماسكا ، وتقاطعا ، ثم عادا فاصطاحا ، ودامت  
بينهما المودة . والمعروف أن هذه المشاجرة بلغ نبؤهما إدارة المدرسة ،  
فحرمتم التلميذين من الدراسة أسبوعًا . وبعد أن انتهت مدة الحرمان  
عاد مصطفى ، ولكن فؤاد سليم آثر أن يلحق بمدرسة الحقوق الفرنسية ؛  
ويخيّل إلى أن مردّ ذلك أن فؤاداً لم يكن متمكناً من اللغة العربية بالقدر  
الذي يعينه على دراسة المواد المقررة باللغة العربية كالشريعة الإسلامية  
ومواد الإنشاء والبلاغة ، وكانت هذه المواد ضمن ما يدرسه طلاب  
الحقوق . وبعد أن اطمأن مصطفى إلى تمكنه من الفرنسية بعد فترة من  
الزمن ، استأذن أخاه حسين بك واصف في أن يجمع بين المدرستين :  
المصرية والفرنسية ، وكانت الأولى تؤدي دروسها في الصباح ، وكانت  
الثانية تفتح فصولها في المساء ، فكان الجمع بينهما سهلاً ميسوراً ؛  
ولما كانت الدراسة في كليهما بالفرنسية ازداد الأمر سهولة ، ولما كان  
المدرسون هنا وهناك فرنسيين أوشكت المدرستان أن تكونا مدرسة واحدة .  
كما أوشك ما يلتقى في إحداهما أن يكون تكراراً وتشبيهاً لما يلتقى في  
الثانية .

وفي أثناء الدراسة في الحقوق وقعت أزمة وزارية حاول فيها  
الحديو عباس أن يعزل رئيس الوزراء مصطفى فهمي ، صديق بريطانيا  
وأكثر الوزراء المصريين ولاء لها وإيماناً بسياساتها ، فلما اعترض كرومر  
على ذلك العزل ، وألزم الحديو أن يعين رئيساً آخر غير حسين فخري  
الذي اختاره عين مكرهاً رياض باشا خروجا من الأزمة بحل وسط .  
وغضب تلاميذ مدرسة الحقوق لتدخل الإنجليز ، وأسفوا لهزيمة الحديو ،  
فأضربوا إظهاراً للعطف على موقفه ، واستنكاراً لموقف الإنجليز ، وقصدوا  
جريدة المقطم ، التي كانت لسان حال الإنجليز في هذه الأزمة ، تؤيدهم ،

وتندّد بالخديو ، وسار طلاب الحقوق فى مظاهرة لعلها أولى مظاهرات مصر الحديثة ، وهاجموها ، وعلى رأس المصريين والمتظاهرين مصطفى كامل الذى خطب فى إخوانه ، خطبته البكر ، خطبته السياسية الأولى .. وكان آنذاك فى السابعة عشرة من عمره .

وانتقل مصطفى من السنة الأولى إلى السنة الثانية بمدرسة الحقوق وسافر يوم الجمعة ٢٦ يونية سنة ١٨٩٣ ليقضى الامتحان الأول بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وكان يصحبه فى هذا السفر أخوه حسين بك واصف ، وقد نجح فى هذا الامتحان ، وأرسل إلى أخيه على فى ١٧ من أغسطس أنه عائد إلى بلده يوم ٢٣ أو ٢٤ من الشهر نفسه ، وبمجرد عودته ذهب إلى منزل راعيه الوزير على مبارك الذى رحب بعودته وسأله عن مشاهداته ، فتحدث مصطفى عن انصراف الفرنسيين إلى العمل وإكبابهم على الدرس ، وأن الملامى ودور السهر فى باريس ، يرتادها الذين يقصدونها من أنحاء العالم للتسرية وطلب اللهو ، فأيد على مبارك كلامه وقال إنه لما أرسلته الحكومة فى عهد محمد على ليدرس فنون أركان الحرب ، وجعلت له مرتباً قدره أربع مائة فرنك كان يحمل فى جيبه مائتين ويبعث إلى أهله مائتين ، ولما رأى أن النقود كثرت فى جيبه ، وأنه مال إلى رؤية محلات اللهو قصد مدير البعثة ، وسأله أن ينقص مرتبه لأن كثرة النقود أوشكت أن تفسده ، فضحك المدير وقال إن العاقل يطلب الشيطان ، فإذا كان جيبك مملوءاً بالنقود ونفسك مليئة بالتصميم والعزم نجوت من كل غواية ، أما إذا كانت استقامتك رهناً بنفرك فاستقامتك حينئذٍ الفضل فيها لخلو جيبك لا لقوة عزمك ، ولم يمض على هذا الكلام سوى شهر حتى زيد مرتب على مبارك مائة فرنك أخرى فأصبح ٥٠٠ فرنك ، فعرف كيف يقتصد ولا يزل .

وفى سنة ١٨٩٣ أدى مصطفى امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، فوسب فى إحدى المواد ، فالتمس له أخوه « على » عذراً ، لا أحسبه عذراً



مقبولا ، فقد قال إن مناقشة دارت بين مصطفى وبين حسن باشا عاصم - وكان من رواد ندوة لطيف باشا سليم التي كانت تضم خيرة المصريين في الأدب والسياسة والإدارة - فتعصب مصطفى لرأيه ، واشتد في الدفاع عنه . مما أغضب حسن باشا عاصم ، وكان من الأساتذة الممتحنين ، فتعمد إسقاط مصطفى في المادة التي كان يمتحن فيها التلاميذ بما أعاق مصطفى عن الانتقال إلى السنة الثالثة . والذي أعرفه أن مصطفى يذكر حسن عاصم بعد ذلك في خطاباته إلى صديقه فؤاد سليم بالخير ، ولا ينسى أن يبعث إليه بالتحيات . فسبب رسوب مصطفى أنه كان في تلك الفترة مشغولا بالأمور العامة ، يصرف أكثر وقته في قراءة الصحف ومجالسة رجالات مصر في دار لطيف-سليم وفي غيرها . وقد روى علي فهمي بعد هذه الرواية مباشرة أن الشيخ حسونة النواوي - الذي عين فيما بعد شيخاً للأزهر - سأل مصطفى يوماً سؤالاً في الشريعة ، فلم يستطع الإجابة لانشغاله بما بين يديه من الصحف . وقد اتخذ مصطفى بسبب رسوبه في امتحان السنة الثانية قراراً عجيباً . إذ اعتزم أن يؤدي امتحان السنتين الباقيتين في مدرسة الحقوق الفرنسية في سنة واحدة ، هي سنة ١٩٨٤ ؛ فهو طالب أجنبي عن فرنسا غريب فيها . لا يملك أن يفرض إرادته على أنظمة راسخة ومستقرة ومنبعة في جامعاتها . ويقول علي فهمي إن مصطفى وعد أخاه عبد الفتاح بتحقيق هذا العزم ، فشجعه عليه . وقد سافر فعلاً في أول يولية إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا . وقد ودعه إخوته حسين وعبد الفتاح وعلي ، وعدد من الأقرباء والأصدقاء ، وكانت دائرة أصدقائه بدأت تتسع لما بدأ ينشر مقالاته في الأهرام والمؤيد سنة ١٨٩٣ . وجاءت ساعة تنفيذ الوعد الذي قطعه علي نفسه لأخيه الحبيب عبد الفتاح الذي لم يكن يعرف أنه لن يبقى على قيد الحياة حتى يشهد هذا النصر ، فقد توفي إلى رحمة الله كما ذكرنا في الثامن من سبتمبر سنة ١٩٨٤ . وعاد مصطفى إلى القاهرة بسرعة

مهملود القوى شديد الحزن، بعد ذلك ، ليكون بين أهله ، ليخفف وجوده شعوره بالصدمة ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا في التاسع من أكتوبر من السنة نفسها ، وقد أدى الامتحان الخاص بالسنة الثالثة في كلية باريس ونجح فيه، وبدأت محاولة إقناع سلطات الكلية بأن تأذن له بأن يؤدي امتحان السنة النهائية بعد ذلك بأشهر . ويقول أخوه على : « فدهشت إدارة الكلية لهذا الطلب لاعتبارات كثيرة أهمها أن ذلك مخالف لقوانينها التي لا تسمح لطالب أجنبي مهما كان جاهه أن يقضى امتحانين لسنتين في سنة واحدة .

وقد نصحه أستاذه الفرنسيان اللذان كانا يعلمانه الاقتصاد في مدرسة حقوق أن يقدم طلباً بهذا المعنى إلى كلية أخرى هي كلية حقوق طولوز . فقدم طلباً بنقل أوراقه إليها فأجيب إلى طلبه ، وأرسلت كلية حقوق باريس أوراقه إلى كلية طولوز ، ثم قدم طلباً إلى هذه الكلية الأخيرة ليؤدي أمامها امتحان السنة النهائية ، فانقسم مجلس إدارة الكلية في صدد هذا الطلب على نفسه ، فقد عارضه مدير شرف الكلية ، وأيده مديرها العامل ، وانقسم الأعضاء بين المديرين ، ولكن أغلبيتهم انضمت إلى رأى المدير العامل فانتصر ، وقد كان مدير الشرف يرى في إجابة طلب مصطفى خطأ من مدير الكلية ، لأن هذا الطالب نفسه رفض من مجلس إدارة كلية باريس التي كان مصطفى منتسباً إليها أصلاً ، وكانت أحق بمجاملته وأن كلية طولوز ليست أقل من كلية باريس شأنًا . أما المدير العامل فقد كان يرى في معونة طالب مجده ، يريد أن يوفر وقته ، ما يشرف الكلية لا ما يخطط من قدرها ، وأحسب أن المدير العامل كان ينظر إلى هذا الطلب نظرة سياسية بخطة ، فقد كان يرى في تشجيع مصري مشغول بالسياسة ، يكتب في صحف بلاده ، ويهاجم الإنجليز ، كسباً للسياسة الفرنسية في مصر ، واستجاباً لعطف الرأى العام عليها ، وكان المدير الشرفى ينظر إلى الموضوع من جانبه التعليمى والبحث .



وقد انصرف مصطفى كامل إلى مذاكرة مواد السنة النهائية في بيت استأجره بطولوز ، وانقطع فيه للقراءة والدراسة عشرين يوماً متصلة ، وقد لاقى في هذه المذاكرة عناء ونصباً ، ولكنى ما أحسب أن هذه المدة كانت كافية للإحاطة ببرنامج سنة كاملة ، ولا سيما إذا كانت السنة النهائية في كلية لا عهد لمصطفى بها ، ولكن نجاحه الذى حصل عليه كان بجدارة . لا من قبيل التسامح من الممتحنين . قال مصطفى في رسالة لأخيه : « لم أعرف من طولوز غير مسكنى حيث أكّد ليّل نهار ، وقد سقم جسمى ، ولكنى سأتغلب بمشيئة الرحمن على كل شىء للوصول إلى بغيتى ، وقد عزمّت أن أستمّر كذلك أزود القريحة بما هو مسطور في كتب السنة الأخيرة ، لأنى شاعر بحرب هائلة سيثيرها المدير المشرف علىّ عندما أقع بين يديه في الامتحان . ، أو بين يدي من عضدوه في رأيهم من الأساتذة الممتحنين ، فادع الله معى ، واطلب من السيدة الوالدة الدعاء الصالح حتى أجتاز هذه العقبة وأعود إليكم بقلب يجسر بكل شرف أن يقابل ولّى نعمته أخاه الأكبر ، بل الصادق ، جزاه الله خير الجزاء » .

وفي يوم الجمعة ٢ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ تلقى أخوه رسالة يقول فيها مصطفى : « ربما ظهرت نتيجة امتحانى في يوم ١٧ أو ١٨ الجارى ، فانتظروا منى تلغرافاً في مساء أحد هذين اليومين » .

وجاءت البرقية تحمل بشرى النجاح ، ثم جاءت بعدها رسالة يقول فيها : « اليوم أحمد الله حمداً كبيراً وأشكره شكراً جزيلاً أن فك قيد أسرى ، ومنّ بإطلاقي في ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق ، وقد عولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الأفراد ، وأرجو أن أبلغ ما أتمنى لأكون المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع » .

ثم شرح ظروف هذا الامتحان الغريب فقال : . . . حتى إذا

جاء ميعاد الامتحان دخلت إليه ضعيفًا نحيلًا ضئيلاً ، فلما ذكر اسمي أمام القسم الأول من اللجنة التي كان يرأسها المدير العام نظر جنابه مبتسماً مندهشاً « أنت ضعيف يا مسيو كامل » ، فأجبتته بكل خضوع : إن من يريد امتلاك قلعة عليه أن يضحى شيئاً من صحته . وبعد أن قضيت الامتحان أمام لجنته في ثلاثة عاوم كنت فيها أرى من המתحنيين موافقة على كل جواب ، ورفقاً في المناقشة ، وتلطفاً في الاختيار ، انتقلت لتمضية القسم الآخر من الامتحان أمام اللجنة الأخرى ، فلقيت العكس في المعاملة من عضوين منها ، هما الرئيس الشرفي وأحد مساعديه في معارضة قبول طلبي تأديتي الامتحان أمام كلية طولوز . ولما كان ما رأيته منهما ينقل المرء من الحلم إلى السخط ، ومن الرضا إلى الغضب ، فقد جلست أمام الأول وهو الرئيس الشرفي فأخذ يسألني في القانون الدولي أسئلة كنت أراها سهلة فأجبت عنها جواب الائق المستبشر بسرور وانشرح صدر ، ولكني كنت قبل أن أفرغ من الجواب عن كل سؤال أجدهم ذلك الأستاذ عنتاً غريباً ومغالطة ظاهرة واعتراضاً غير لائق . . . بل كنت أراه يضرب الأرض بقدميه صارخاً في وجهي مبثراً بكلتا يديه ليشير بخاطري ، ولكن الله ألهمني السداد فلم أجبه على عمله ولم أظهر له تألماً ولا استياء ، بل صابرته وحاسنته حتى سود علامتي وانتقلت من أمامه إلى زميله الذي لم يكن بإزائي أقل منه إتقاناً لهذه المعاملة القاسية .

وقد حدث بعد ذلك شيء عوض مصطفى كامل عن هذا العنت ، فقد دعاه بعد ظهور نجاحه المدير الشرفي نفسه وهناك أحسن تهنئة على هذا النجاح ، « وسألني أن أعتبر ما صنعه معي غيرة على سمعة فرنسا وشرف كلياتها ، لأن هذا الاستثناء الذي عوملت به لم يقع حتى الآن لأجنبي في جميع تاريخ الكلية » .

ولاشك في أن القسمين : القسم المتلطف مع مصطفى كامل ،



والقسم المتشدد ، قد لاحظا أن مصطفى كامل شاب يحسن لغة بلادهم ويعبر بها جيداً ، ويفهمها فهماً حسناً ، وأنه مهما كان نصيبه من العلم الذى يتمتع فيه قليلاً فهو يدرك من أصول هذه المادة وكمياتها ما يكفى ليواجه الحياة العملية التى تزود التلاميذ ذوى الاستعداد الطبيعى ، الراغبين فى الحياة ، بالعلم الذى يلزمهم ، وبالخبرة التى تحتاج إليها وظيفتهم .

لذلك منح مصطفى إجازة الليسانس من فرنسا ، وأصبح قادراً على أن يتزل بقاربه الصغير إل محيط الحياة العامة ، لا فى مصر وحدها بل فى الدنيا قاطبة ، ليناجز أكبر دول الأرض قوة ، ويندد بأخطائها فى حكم بلده ، وبسوءات احتلالها لوطنه ، ويطالبها بالجلاء ، ويطالب بنى قومه أن يقفوا معه صفياً واحداً لتحقيق هذا الهدف العظيم . وانتهت صفحة هذا التلميذ القلق ، لتبدأ صفحة السياسى المثير لحب أنصاره وقلق أعدائه .





وأصبح أباه الروحي ، خطب بين يديه ، كما نخطب بين يدي الحاديو  
توفيق ، فكشف بنفسه لنفسه موهبة الخطابة ، وقرر أن يتخذ منها  
سلاحاً يحارب به في مستقبله . وعرف في نفسه أنه قادر على أن يرفض  
العدوان الواقع عليه ، وأن يرده في حزم ، وأن يثار لما يصيبه من أذى .  
وهذا أول طريق الزعامة . فالصبي الذي لا تربكه الإهانة من الكبار ،  
فلا يفقد عقله ، ولا يخطئ سبيله ، ولا يشعر بنقص في ثقته بنفسه ،  
لا يصرفه شيء عن طريق الزعامة إلى طريق التأمل واجترار الألم ، فيصبح  
أديباً أو فيلسوفاً ، أو متصوفاً ، أما إذا غلبته الهزيمة فقد يرسب في القاع  
شخصاً بلا مستقبل ولا دور .

وفي السنة الثانية بالمدرسة التجهيزية أسس جمعية أدبية وطنية اسمها  
جمعية « الصليبية الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يعيش فيه ، ودعا بعض  
زملائه ليكونوا أعضاء فيها ، واتخذ منهم جمهوراً له يسمع خطبه ومحاضراته ،  
وعلم بأمر جمعية أدبية أكثر من جمعياته انتظاماً هي جمعية « الاعتدال »  
التي تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان ، فانضم إليها ، ليوسع  
دائرة معارفه ، وليعرض موهبته في الحديث والخطابة ، والظاهر أن التوفيق  
حالف هذه الجمعية ، فانضم إليها سبعون عضواً .

ودخل مدرسة الحقوق لأنها مدرسة الخطابة والكتابة ومعرفة حقوق  
الأفراد والأمم ، فأعلن بهذا التعريف لهذه المدرسة بأنه لن يضيع شيئاً  
من وقته دون العمل لهدفه الكبير الذى سيستولى على لبه وعقله حتى  
آخر لحظة من حياته ، وأضاف إلى رياسته لجمعية الصليبية الأدبية ،  
وعضويته في جمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان عمله في جمعيتي  
« الهدى » و « العلم المصرى » ، وأصبح يتنقل بين الجمعيات الأربع  
كالنحلة التي تحط على كل زهرة ، وتعود آخر اليوم وقد امتلأت  
بالرحيق ، وانتقل من العمل في جمعيات الشبان إلى التعرف على الشخصيات  
الكبيرة ، فعرف الشاعر الفكاهة الضاحك على الليثي ، الذى امتد عمره

حتى بلغ المائة ، كما عرف أعظم رجالات مصر في ذلك العهد . وفي مقدمتهم أمين باشا فكري مدير الدائرة السنية وإسماعيل صبرى باشا وكيل وزارة العدل وشاعر مصر الرقيق الأنيق ، ومحمد مجدى بك المستشار بمحكمة الاستئناف ، ومحمود بك سالم القاضى بالمحكمة المختلطة الذى عاش حياته فى خارج مصر . داعياً للإسلام ، فى محلاته « عرفات » كيف استطاع صبي صغير فى هذه السن أن يكون صديقاً لذلاء ؟ وكيف قبلوا أن يكون بينهم وبينه ما يكون بين الرجل ونادته ؟! وفى سنة ١٨٩٢ سافر إلى الإسكندرية التماساً للترويج عن النفس ، فقدمه خليل مطران الشاعر الكبير ، الذى كان قد تعرف عليه مصطفى قبل ذلك ، إلى بشارة تكلا باشا صاحب جريدة الأهرام ورئيس تحريرها ، الذى أعانه بعد ذلك ، وقدم له خدمات جليلة الشأن ، ثم بدأ يكتب مقالاته فى جريدته وقّعها أولاً باسم مستعار : « مصرى صادق » و« مصرى أمين » و « مصرى » فقط ، وفى ٢٠ من يناير سنة ١٨٩٣ تزعم مظاهرة ضد المقطم ، وفى ١١ من فبراير سنة ١٨٩٣ نشر أول مقال له فى جريدة الأهرام بعنوان « نصيحة وطنى » بإمضائه الصريح ، وبعد أيام صدر مقاله الثانى ، وفى السنة نفسها أصدر رسالة صغيرة عن الرق عند الرومان ، ثم سافر إلى مرسيليا فى ٢٣ من يونيو ، وكانت تلك هى سفرته الأولى . ومن فرنسا أرسل مقاله الثالث ، وفى مارس نشر مقاله الرابع ، وفى أبريل نشر مقاله الخامس وكان موضوعه « الجامعة » وبعد قليل نشر المقال السادس فى الشهر نفسه ، وفى أغسطس عاد إلى مصر ، وفى أول العام الدراسى انتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية ، وفى أول يولية سنة ١٨٩٤ كانت سفرته الثانية إلى فرنسا ، ومن فرنسا أرسل إلى الأهرام خمس مقالات ، كلها عن معارض رآها فى ليون وفى أنفرس ببلجيكا ، وعن معرض موقعة « واترلو » الذى يمثل الموقعة التاريخية التى هزم فيها نابليون هزيمة التى أنهت حياته العامة سنة ١٨١٥ ، وعاد إلى



فرنسا مريضاً وحزيناً حينما بلغه نبأ وفاة أخيه الشاب عبد الفتاح فتحى ، ولكنه لا يابث أن يعود إلى فرنسا وينجح فى مغامرته الغربية ، مغامرة التقدم إلى امتحان سنتين فى سنة واحدة وفى كلياتين فى فرنسا ، وختم سنة ١٨٩٤ بوضع مسرحية « فتح الأندلس » ، وهى أول مسرحية مصرية توضع فى هذا الوقت المبكر من حياة التأليف المسرحى والأدبى فى حياتنا ، ولو أحصينا الأعمال الأدبية غير القصائد والمقالات لما وجدنا إلى جانب هذه المسرحية قصة ولا مسرحية أخرى فيما عدا قصة « علم الدين » التى وضعها على مبارك ، فى تاريخ متأخر ، وعاد مصطفى فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٩٤ إلى نشر المقالات فى الأهرام . وفى ٢٨ من يناير سنة ١٨٩٥ نشر أول حديث صحفى له ، ولعله من أوائل الأحاديث الصحفية فى مصر ، فى تلك الأيام كان العمل الصحفى فى بدايته كله مقالات ، وكانت الأحاديث شيئاً غير معروف ، وكان الحديث مع شقيق اللورد كرومر حاكم مصر الحقيقى . وقد أثار هذا الحديث بصراحة المتحدث إليه ضجة يهناً عليها مصطفى كامل باعتباره صحفياً ناشئاً ، وفى ١٥ فبراير سنة ١٨٩٥ أصدرت حكومة الاحتلال قانوناً منشئاً للمحكمة المختصة التى تحاكم المعتدين على جيش الاحتلال ، وهى محكمة لا تتقيد بقانون لا فى إجراءاتها ولا فى أحكامها ، فكتب مصطفى مقالا نارياً يندد بها ويبويع الاحتلال من إنشائها ، وفى ٢١ من مارس فى هذه السنة وصل النائب الفرنسى « ديلونكل » صديق مصر ، فاستقبله مصطفى كامل وإخوانه ، وأقاموا له الحفلات ، مما أغاظ دوائر الاحتلال ، وفى ١١ من أبريل أقام لديلونكل حفلة وداع ، وفى ٥ من يونية سنة ١٨٩٥ هدىته سليقته الدعائية إلى تقديم لوحة إلى المسيو بريسون رئيس مجلس النواب الفرنسى لكى يخرج من إسطار المقالات والنداءات إلى لون جديد يكون أطرف وأوجز ، وكان قد عهد إلى فرنسى فنان رسم لوحة تمثل فرنسا « ماريان » رمز هذه الدولة وقد اتشحت بالعلم الفرنسى المثلث

وهي تتسلم من شباب مصرى طلبا ؛ وإلى جانبها الأمم التي حررتها فرنسا ؛ وهي الولايات المتحدة واليونان وبلجيكا وإيطاليا ؛ وفي الجانب الأمامي من اللوحة وقفت فتاة ترمز إلى مصر مكبلة بالأغلال يحرسها جندي غشوم مدجج بالسلاح يرمز إلى الاحتلال البريطاني ؛ ويقف إلى جانبه أسد يرمز إلى إمبراطورية البريطانيين ؛ وإلى جانب الفتاة النيل يمثلها شيخ يتكئ إلى جرة ينساب منها الماء غزيراً ، وقد نظم مصطفى تحت هذه اللوحة الملونة أبياتاً من الشعر البسيط ؛ وترجمتها إلى الفرنسية ؛ وقصد إلى أمانة مجلس النواب الفرنسي ومعه عدد من إخوانه المصريين وأودع فيها هذه اللوحة ، ورسالة كتبها مصطفى بأسلوبه النادر الذي يجمع بين البساطة والسهولة والحرارة وحسن الإيقاع ؛ وقد رحبت الصحف الفرنسية أيما ترحيب بهذه اللوحة ؛ وانهاالت الصحف البريطانية ؛ على مصطفى بأشد اللوم وأقصى النقد ؛ وكسب مصطفى من كل ذلك شهرة ومكانة . ولم يكد يفرغ من هذه الحملة الموفقة حتى أرسل إلى مصر ؛ وإلى أخيه في السودان مئاة من النسخ من هذه اللوحة ؛ فكان الناس يتداولونها سرا ؛ وكل من وصلته في مصر نسخة منها حرص عليها ؛ وعددا من ذخائر بيته وربما أورثها أولاده بعد حياته .

ثم سافر مصطفى إلى برلين ؛ وكانت هذه سفرته الأولى إلى ألمانيا ؛ وكأنه اهتمدى منذ البداية أن الواجب الوطني يقتضيه أن يوسع نطاق نشاطه الدعائي والسياسي ؛ وأن يستكثر من الأصدقاء والأصحاب والمناظر السياسية والصحفية ؛ وكان « ديلونكل » النائب الفرنسي قد قدم مصطفى إلى رئيس تحرير جريدة « البرلنر تاجبلاط » وهي أهم الصحف الألمانية ، فنشأت بين الشاب المصري الناشئ والصحفي الألماني الكبير صداقة أفادت مصطفى كثيراً . وعاد إلى فرنسا فأجرى حديثاً مع رئيس تحرير جريدة الجورنال ، نشر في عدد ٢ يولييه ، ثم سافر إلى طولوز ، إذ دعته كلية الآداب ليخطب فيها ، وطولوز هي المدينة صاحبة الفضل



عليه ، فقد يسرت له الحصول على الليسانس بامتحان واحد عن سنتين دراسيتين ، فألقى خطاباً في الرابع من يولية شرح فيه للأساتذة ورجال الصحافة والنواب أموراً يجهلون بها تماماً عن شؤون مصر ، وما يجري فيها ، وعما يصيب النفوذ الفرنسي والثقافة الفرنسية من المطاردة والتضييق . وفي اليوم التالي نشرت جريدة « لادى بيش دى طولوز » مقتطفات من خطبة أمس ، تحت عنوان « الجلاء عن مصر » . ولا شك أن هذه المقالة كانت أول مقال ينشر في صحف طولوز عن الاحتلال البريطاني في مصر ، ويكشف عن حركة المقاومة له . واطلعت الصحف الألمانية والنمساوية على هذه المقتطفات فعلمت عليها ، ولم يترك مصطفى طولوز حتى أقام وليمة دعا إليها كبار الكتاب والساسة والصحفيين ليشكرهم ما أبدوه نحوه من الاهتمام وما أبدوه نحوه قضية مصر من حسن التفهم ، وعند انتهاء المائدة قام كل من « لويس إريست باسريو » نقيب الصحفيين ورئيس تحرير « لادى بيش دى طولوز » فألقى كل منهما كلمة دافع فيها عن مصر . ثم شكرهم مصطفى بكلمة تضمنت ترويحاً لأفكاره ضد الاحتلال البريطاني ، وبعد أن أقام بضعة أيام بين برلين وباريس ، رحل إلى فيينا عاصمة النمسا فوصل إليها ٢٠ من يولية سنة ١٨٩٥ ؛ وعقب وصوله أدلى بحديث إلى جريدة « اكسترا بلات » وهذه الجريدة هي بمثابة جريدة التيمس في لندن ، والبرلينز تاجبلاط في برلين والطان في فرنسا ، وقد تكلم في حديثه هذا عن خطر موقع مصر ، وخطر مزايها السياسية والثقافية ، وعاد مصطفى إلى مصر ، فرأى أنه قد تجمع من حصيلة مقالات العام الماضي ما يكفي لإصدار رسالة تضمها ، فترجم مقالاته وأحاديثه تلك إلى الفرنسية ، ونشرها تحت عنوان « أخطار الاحتلال البريطاني ، ووزعها يميناً ويساراً ، على الصحف والساسة ، وقد أكسبته هذه الرسالة صداقات كان في مقدمتها صداقته لمدام جوليت آدم ، صاحبة « المجلة الجديدة » الفرنسية الذائعة الصيت ، وهي الصداقة التي استمرت إلى آخر عمره . وفي وقت صدور رسالته هذه ألغت الحكومة

المصرية ، بضغط من الاحتلال البريطاني ، البعثة المصرية العلمية إلى باريس . فانتهاز مصطفى هذه المناسبة الشيرة لخواطر الفرنسيين وأدلى بحديث إلى جريدة « الإكلير الفرنسية » في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٥ .

والفرنسيون حساسون لكل ما يمس نفوذهم وثقافتهم في مصر ، فقد كانت مصر عندهم طليعة زحف النفوذ الفرنسي الثقافي والسياسي على المنطقة العربية ، وما بعدها ، ولم ينس الفرنسيون قط ما تمتعوا به طول حكم محمد علي وسعيد وإسماعيل من نفوذ . وفي ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ أرسل مصطفى رسالته التاريخية إلى دمام جوليت آدم التي قال لها فيها : « إني لا أزال صغير السن ، لكن لي آمالا كباراً ، إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من طولوز ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما في سبيل الوطن العزيز ورفعته . فأعينني ياسيدتي ، فإن وطنيتك بلغت حداً يجعلك تفهميني وتقوين عزى وتشدين أزرى » .

ثم عاد إلى باريس وطلب مقابلة ، فحددت له موعداً في التو ، وعلقت على هذه المقابلة فقالت : « ولا كنت بطبيعتي عدوة للدودا لإنجلترا وصديقة حميمة لمصر ، ظلمت أنتظر سنين طويلة نهوض مصري في وادي النيل ، وكنت واثقة دائماً أن الله يبعث عندما يحين الوقت ، على لسان بعض الناس ، الكلمة الطيبة التي تجد مرتعاً خصباً في النفوس فتثمر فيها بعد جذب » .

مست رسالة مصطفى شغاف قلب هذه الصحفية المتمرسية ، الغنية ذات النفوذ ، زوجة رجل من أكبر رجال السياسة الفرنسية ، وكانت آنذاك قد قاربت الستين ، وقد عمرت بعد ذلك حتى بلغت المائة ، إذ ولدت سنة ١٨٣٦ وتوفيت سنة ١٩٣٦ . وأصبحت له أمماً منذ رآته ، وأعجبت بلطف شخصيته ، وحرارة حديثه ، وصدق لهجته وبساطته ، وانهقطاعه للعمل الوطني في بلده ، وكانت له « أمماً » بحق ، عنيت بتقديمه إلى الصحفيين



والساسة ، كما عانيت برعاية صحته ، كلما كان قريبا منها ، وقد عرفت ضعف بنيته ، واستعداده للمرض الذى يزيد منه المجهود المصنى الذى يتحملة ، الحرمان المستمر الذى يعيش فى ظله .

واقترحت جوليت على مصطفى أن يكتب مقالا لمجلتها الشهرية فى العدد الذى يصدر فى الخامس عشر من نوفمبر ، فها له أن ينتظر شهراً كاملاً ، فلما اعتذرت له بأن عدد منتصف أكتوبر قد تم إعداده وأرسلت مواده إلى المطبعة فعلاً ، أعلنها بأنه لا يريد أن يكتب فى المجلات الشهرية لأنه يود أن يتصل بالهماهير على نطاق واسع ، وعلى وجه السرعة والاستمرار ، الأمر الذى لا يتوافر فى مجلة شهرية ، وإن كانت مجلة فى خطر ومكانة مجلة « لانوفيل ريفو » ، المجلة الجديدة ، التى تصدرها مدام جوليت آدم . ولم تغضبها هذه الحماسة من مصطفى ، واتفقت معه على حل وسط ، إذ رضى أن يكتب مقالا موجزاً عن الإسلام وبريطانيا ، تضمنه مقالاتها الافتتاحية فى عدد منتصف أكتوبر ، على أن تقدمه لمن تعرفهم من كبار المحررين وأصحاب الصحف ، ولم يكده مقال « بريطانيا والإسلام » ينشر فى المجلة الجديدة حتى طلبت جريدتنا « لوجولوا » و « لوجرنال » ؛ من مصطفى حديثاً يكون موضوعه واحداً ، إذ سألته الصحفيتان : هل تستطيع مصر إذا غادر المحتل أراضيه أن تحكم نفسها بنفسها ؟ وما هو الضمان الذى تستطيع أن تقدمه مصر فى هذه الحالة لدائنيها محافظة على ديونهم ؟ ثم ماهى وسائل الإصلاح التى يريد المصريون إدخالها إذا سلمت لهم مقاليد الأمور ؟

فى أواخر سنة ١٨٩٥ عزم مصطفى كامل على السفر إلى الآستانة عاصمة تركيا ، لولا نشوب أزمة وزارية خطيرة فى فرنسا بسبب فضيحة مالية فى سكك حديد جنوبي فرنسا وأمور أخرى ، فانتظر مصطفى حتى تنجلي الأزمة ، لأنه لم يكن مجرد كاتب يكرر كلاماً واحداً فى كل مناسبة وإنما كان سياسياً ، يهمه أن يعرف مهاب الريح ، وفى تلك الأثناء ،

وبالذات في يوم ١٣ من نوفمبر ، ألقى اللورد سالسبوري رئيس وزراء بريطانيا خطابا في مقر محافظة لندن المعروف بـ « جيلدهول » دافع فيه عن الأرمن ، وحمل حملة شعواء على تركيا ، فتصدى له مصطفى كامل إذ أرسل إليه رسالة بين فيها سوء وقع خطاب رئيس وزراء بريطانيا في الأمم الإسلامية التي لم تعد تثق ببريطانيا . ونشرت صحف فرنسا من هذه الرسالة المفتوحة مقتطفات ، وأظهرت إعجابها برجاحة عقل كاتبها وصراحته وحسن أسلوبه في الجدل ، كما علقت عليها صحف النمسا وألمانيا وروسيا لارتباط مشكلة الأرمن بكل منها على وجه من الوجوه ، وللمنافسات الظاهرة والخفية بين تلك الدول ، ولاتصال هذه الأزمة كذلك بمركز سلطان تركيا التي كانت كل هذه الدول تطمح في أملاكها وتود أن تقسمها فيما بينها .

وقبل أن ينتهى عام ١٨٩٩ ألقى مصطفى كامل خطابا في الجمعية الجغرافية في باريس ، وهي جمعية من أكبر جمعيات عاصمة فرنسا ، ومنبرها لا يتاح إلا لذوى المكانة والأهمية في دنيا السياسة أو العلوم الاجتماعية ، وقد أدار مصطفى خطبته على بيان جهود بريطانيا في إحلال نفوذها محل النفوذ الأوربي بصفة عامة لأنها تملأ الوظائف في مصر ببريطانيين ، وبعضهم حل محل الفرنسيين وغيرهم ، وغايتها أن تخضع الإدارة المصرية أو تصبغها بالصبغة البريطانية ، مع التضييق على الحديد الذي زعمت بريطانيا أنها جاءت لتحميه وتحمي سيطرته .

فلما أهل العام الجديد بادر مصطفى كامل بتوجيه رسالة إلى جلادستون رئيس الوزراء البريطاني السابق في ٢ من يناير ١٨٩٦ ، يسأله فيها ألا يزال على رأيه من أن الجلاء عن مصر هو الحل الوحيد للمسألة المصرية ، باعتباره من أكبر أنصار هذا الجلاء .

وفي ١٤ من يناير سنة ١٨٩٦ رد جلادستون من مصيفه بيارتز في النمسا على مصطفى قائلا : « إن زمن الجلاء ، على ما أعلم ، قد حان



منذ سنين « . وقد كان لهذه الرسالة ولارد عليها دوى فى دوائر السياسة المصرية والبريطانية والفرنسية والعالمية على السواء ، فجلا دستون قطب من أقطاب السياسة البريطانية والدولية ورئيس حزب الأحرار البريطانى ، وكان لردده قيمة كبرى . وتلقفت الصحف الفرنسية رد جلا دستون ورسالة مصطفى فعلمت عليهما ، وفى مقدمة تلك الصحف « الديبا » صاحبة النفوذ ، و « الفيجارو » العتيدة ثم « لوسوار » التى أخذت بهذه المناسبة حديثاً من « جول دولانوس » النائب الفرنسى الذى يهتم بالمسألة المصرية . ثم جريدة « لوكاير » فى اليوم التالى .

وعاد مصطفى إلى بلاده بعد هذه الجولات الواسعة فى الصحف والعواصم ، وفى ٣ مارس ذهب إلى الإسكندرية ليلقى خطاباً فى « تياترو عباس » احتشد لسماعه فيه نحو ثلاثة آلاف مصرى . وقد كانت الاجتماعات السياسية يومذاك لا تجد هذا الاهتمام ، ولا يجتمع فيها نصف هذا العدد أو أقل — ولكن أنباء مصطفى التى كانت تملأ الصحف ، ونشاطه المتجدد ، والمبتكر من الرسالة إلى الصورة إلى المقالة ، إلى الحفلة إلى الحديث ، وكلها وسائل لم تكن معروفة للمصريين ، جعلته مثيراً للاهتمام . فلما عاد مصطفى من الإسكندرية ، ودعه على المحطة مئات من الذين سمعوه بالأمس ، وقدموا له وساماً من الفضة كتب على أحد وجهيه : « برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

ولما كانت بريطانيا قد قررت أن تنفذ حملة إلى دنقلة فى السودان ، بدعوى مساعدة إيطاليا التى هزمها نجاشى الحبشة فى موقعة « عدوة » هزيمة منكرة ، فى حين أن الغاية الحقيقية من هذه الحملة كانت بدء استرداد السودان بجيش المصريين وبقيادة بريطانية — سارعت جريدة « لوكاير » الفرنسية وأجرت مع مصطفى حديثاً ندد فيه بهذه الحملة ، وكشف القناع عن نوايا بريطانيا وسوء ما تعتزمه فى السودان .

ثم عاد إلى المنبر ثانية ، فخطب فى ١٣ من أبريل سنة ١٨٨٦ ،

فى كازينو « زيزنيا » بالإسكندرية خطبة علق فيها على الأحداث الجارية ، وتناول فيها المسائل الدولية بالشرح والتعليق ؛ فكان خطابه هذا كسابقه حملة على الاحتلال البريطانى من جهة ، ودرساً للمواطنين والأجانب فى الشؤون الدولية من وجهة النظر المصرية ، فقد تناول مصطفى فى هذا الخطاب الشؤون الإفريقية كما تناول الشؤون الإسلامية ، والمسألة الآسيوية ، التى تدور حول صراع دول الغرب الكبرى مع اليابان وحول الصين :

وقد علق على هذه الخطب جرائد الإسكندرية الأجنبية مثل « لوفار ألكساندرى » « والريفورم » ، ثم أفردت الصحف الأوربية والأمريكية لها أعمدتها ، أما الصحافة الإنجليزية - وعلى رأسها الجريدة الوقور « التيمس » - فقد تنازلت عن وقارها ، وقالت لمصطفى : إننا - نحن البريطانيين - مستعدون للجلاء عن مصر ، إذا ما رأينا جمعاً غفيراً من المصريين فى وطنية مصطفى كامل الذى ينفرد من بينهم بحماس .

وفى ٧ من سبتمبر سنة ١٨٩٦ تحدث إلى جريدة « ليبر بارول » عن مشاعر المصريين نحو فرنسا ، فصارح المندوب بأن مركز فرنسا تزعزع لما تبديه فرنسا وحكومتها من الضعف أمام الاحتلال البريطانى الذى يتغول فى مصر وفى إفريقيا ، وبعد أيام قليلة أفضى إلى جريدة « لوكليز » بحديث بمناسبة ذكرى ١٤ سبتمبر ، ذكرى احتلال البريطانيين للقاهرة .

وفى منتصف شهر أكتوبر سافر إلى برلين ، واتصل برجال السياسة والصحافة الذين كان قد سبق له التعرف بهم فى الزيارات السابقة ، وزاد عليهم عدد غير قليل ، فقامت الصحف بتقديمه إلى قرائها ، ولاسيما صحيفة « البرلنرتاجبلاط » التى اعتادت أن تنشر له الأحاديث وتذكر عن نشاطه الأنباء و « ودى بوست » صحيفة حزب المحافظين الألمان . وفى ٢٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٦ أرسل مصطفى إلى النائب النمساوى



جوزيف يويوسكى المهتم بالسياسة الدولية رسالة يرجو فيها أن يشرح رأيه في السياسة التي يجب أن ينتهجها التحالف الثلاثي المكون من بلده «النمسا وألمانيا وإيطاليا» ، فرد عليه رداً أزعج خاطر مصطفى ، لأنه قال له إن الظاهر أن المصريين راضون عن الاحتلال البريطاني ، بدليل أن جيش الاحتلال لا يزيد على بضعة آلاف في حين أن الجيش المصرى ورجال الشرطة يفوقونه عدداً . . وقد كانت هذه الملاحظة ، مع كونها قارصة ، مما يجب أن يسمعه مصطفى ، لينكر في جانب العمل الإيجابي إلى جانب النشاط الدعائى ، وفى ١٨ أكتوبر من السنة نفسها نشرت له جريدة اكسترتاجبلاط النمساوية حديثاً ، وفى ٢٧ أكتوبر وصل مصطفى إلى الآستانة ، بعد أن أقام يومين في بودابست ، فكان نزوله في الآستانة في ضيافة سلطان تركيا ، وفى أول نوفمبر سنة ١٨٩٦ زار الصدر الأعظم ، أى رئيس وزراء تركيا ، فأفصى إليه رئيس الوزراء بأن السلطان خوله الحرية التامة في الاتصال بالشخصيات التي يهيمه الاتصال بهم ، وسأله عن الرتبة والأوسمة التي يحملها ، فعلم أنه لا يحمل وساماً ولا يتمتع برتبة ، ثم تحدث في ٣ من نوفمبر إلى أحد محررى جريدة فارنكفورت كورييه الألمانية التي تصدر في تركيا ثم أفصى بعد أسبوع بخديث إلى مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» الأمريكية في الآستانة .

وقد أصبح مصطفى كامل ، بفضل هذا النشاط المتصل والمتقد ، صديقاً لعدد من المشتغلين بالسياسة في مختلف الأقطار ، على البعد ، يكتبون له ، ويردّ عليهم ، دون أن يلتقوا لقاء الأجسام ، من ذلك النائب «الدكتور هوفمان زينفر» رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألماني الذي أرسل إليه في ١٨ من نوفمبر رسالة يقول له فيها إنى قرأت أعمالك الأخيرة ، وتتبع كل خطواتك دفاعاً عن بلدك العزيز ، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطني نخلص ، ذكى نشيط ، فأهنتك بهذه المكانة التي تدهش كل من وقف عليها ، وعرف أن سنك هي سنك ( أى اثنان وعشرون عاماً ) .

كما تلقى من النائب الإيطالى « كافى فورشيلا » كتاباً قال فيه لمصطفى فى ٢٤ من نوفمبر : « إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والحديد ، وتعيد ذكرى الزراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ، ودخلوا جنة الصناعة ، إنك لا تقل فى نظرى عن أورنى ذى رأس كبير محنك » .

ثم كتبت بعد ذلك جريدة « الإندبندانس بلخ » البلجيكية الشهيرة فصلاً بعددها الصادر فى ٢٣ من نوفمبر عن المسألة المصرية .

وبقى مصطفى فى الآستانة حتى نوفمبر سنة ١٨٩٦ ، ثم عاد إلى مصر فوصل إليها فى ١٥ من الشهر نفسه فاستقبل على محطة العاصمة بالتحية والترحاب من جمهور غفير تتبع أعماله . ولكن السلطات الإنجليزية والسلطات المصرية التى تأتمر بأمر الإنجليز كانت قد ضاقت بنشاطه ، فأرادت أن تسكت صوته فادعت أنه أخطر بتاريخه تجنيده ولم يدفع البذل النقدى فى الموعد القانونى ، فأصبح تجنيده واجباً ، لأنه لم يطعن فى هذا الإخطار فى الموعد القانونى ، ولكن وطنية شيخ الحارة الذى يتبعه منزل مصطفى - وهو الشيخ محمد زيدان - أثبت عليه أن يساير السلطات فى كيدها الحقيقى ، فأبى أن يقرر أنه أعلن مصطفى أو أحد ذويه بإشعار التجنيد ، فباءت المكيدة الحقيرة بالإخفاق ، وأكسبت مصطفى عطفاً عاماً ، فقد طيرت شركة « هافاس » الفرنسية للأنباء هذه المحاولة ، وعلقت عليها بقولها : « إن المحتلين يريدون تجنيد مصطفى كامل السياسى الشهير مع أن القوانين تستثنى من القرعة حاملى شهادة الحقوق القادرين على دفع البذل ، لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر » .

واستفتح مصطفى كامل سنة ١٨٩٧ بنداء وجهه إلى الشعب الألمانى بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور غليوم الثانى ، ليعرض على الشعب الألمانى القضية المصرية طالباً منه أن يخرج من عزلته وحياده ، ويؤيد مصر



في كنفها . وبعد أيام نشرت جريدة « برلينر تا جيبلاط النداء وشتمته بالتعاقب التالي :

« إن هذا النداء الموجه من وطني عظيم ، يدفع ألمانيا إلى الاهتمام بالشعب المصري ومؤازرته عملياً لا الاكتفاء بالعطف عليه . يجب على ساستنا — وهم يعضدون اليوم حقوق البوير المسلوبة — أن يضيفوا إلى هذه القضية القضية المصرية » .

وفي الثالث عشر من مارس وصل مصطفى كامل إلى « تريستا » . وسافر منها إلى « فيينا » حيث أقام أسبوعاً اتصل خلاله برجال السياسة والصحافة ، وفي مقدمتهم « هانز ريزنر » الذي ألف كتاباً عن مصر عنوانه « مصر تحت الاحتلال البريطاني ، والقضية المصرية » .

وفي ٢٤ ما مارس سنة ١٨٩٧ أقام مصطفى مآدبة في فندق متروبول لعدد من أعضاء البرلمان والصحفيين ورجال السياسة والشخصيات العامة ، وتحدث إليهم جميعاً عن الاحتلال البريطاني الذي ادعى الإنجليز أنه إجراء مؤقت لا يستمر أكثر من نصف سنة ، فاستمر حتى تاريخ هذه المآدبة ١٥ سنة ، وطالبهم جميعاً أن يعملوا على معاونة مصر على تحقيق هدفها وقال : « مصر وفية لا تنسى جميل من يحسن معها صنعة » . ورد عليه صديقه الدكتور « هانز ريزنر » بخطبة ختمها بقوله : إن المصريين برهنوا على أنهم أهل مدنية عالية ، وإن الذين يقولون إن سكوتهم ناشئ عن جبن ليسوا إلا مفترين على الحق .

ومن فيينا سافر إلى بودابست يوم ٢٦ من مارس ، فودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمساويين الذين كانوا يزدادون عاماً بعد عام ، بفضل استمرار علاقته بهم ، وكثرة تردده على عاصمتهم . وما إن وصل إلى بودابست عاصمة المجر حتى وجد في انتظاره عائلة الكونت « كرونزروث » التي عرفته بها مدام جوليت ، وقد قدمته هذه العائلة إلى رئيس وزراء المجر « جولد شوفسكي » ، ونجحت هذه العلاقات

فى لفت نظر الصحف المجرية إلى مصطفى ، فرحبت به وأثنت على جهاده ؛ ثم سافر إلى برلين فى ٥ من أبريل سنة ١٨٩٧ ، وقابل كالعادة الصحفيين والسياسيين ، وأجرى مع جريدة « برلينر تاجبلاط » حديثاً عن شؤون مصر ، كما أفضى بحديث آخر إلى جريدة « برلينر توست تخرختن » الألمانية ، ثم عاد إلى باريس ، فوجد فى موقف صحافة باريس منه نفوراً عرف أن سببه مقال نشرته جريدة « الإيجيشيان جازيت » التى تصدر فى القاهرة بالإنجليزية حملت فيه على الحزب الوطنى ، ونسبت إليه وإلى مصطفى كامل أنه عامل على إفساد العلاقة بين المصريين والأجانب القاطنين بمصر ، وذلك بمناسبة دعوة مصطفى إلى التبرع للجيش التركى إبان الحرب بين تركيا واليونان ، ونقلت هذا الافتراء جريدة « الليبرتيه » الفرنسية ، فتأثرت به الصحف الأخرى ، فردّ على « الليبرتيه » نفسها برسالة نشرتها وعلقت عليها بقولها : إننا ننشر هذا الرد ليعرف قراؤنا الحقيقة التى شوهد بها الإنجليز والتى ينطق بها هذا الوطنى المصرى الكبير .

وعاد إلى مصر فى ١٢ من مايو سنة ١٨٩٧ ، وأخذ بمجرد وصوله إلى مصر يعدّ خطبة يوضح فيها موقف الوطنيين المصريين من المسألة اليونانية — التركية ، ويوضح علاقة مصر بتركيا ، التى أراد خصوم مصر أن يصورها أنها علاقة قائمة على كره الأجانب والمسيحيين معاً ، والتعصب ضدّهما .

وقد نجح هذا الاحتفال ، ونجحت الخطبة التى ألقاها فيه مصطفى حتى إن جريدة « ألفاردو ألكسندري » التى تصدر فى الإسكندرية باللغة الفرنسية أثنت عليه ، كما أثنت عليه جريدة الوطن التى كان يصدرها مخائيل عبد السيد ، وقد قالت هذه الجريدة بالذات : « قد انشرح صدر كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى أفندى كامل ، لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية



بالاعتدال والرزانة والخص على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة» ، ونقلت قول مصطفى في هذه الخطبة : « إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما إلى الأبد » .

وعاد إلى سنه وتجوالة ، في يوم ٢٦ من يونية سنة ١٨٩٧ غادر الإسكندرية إلى الآستانة عاصمة تركيا فوصل إليها يوم ٢٩ ، فتوافد عليه في الفندق الذي اختاره مراسلو الصحف ، على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، ثم سافر إلى بودابست فوصل إليها يوم ٧ يولية ، فأحسنت الصحف الترحيب بمقدمه - وقد صادف يوم ١١ يولية يوم ضرب الأسطول البريطاني الإسكندرية سنة ١٨٨٢ ، فأرسل من بودابست برقية احتجاج على مسلك بريطانيا القديم ، وعلى بقاء الاحتلال البريطاني جائئاً على صدر مصر ، حتى تاريخ إرسال البرقية ، ثم أبلغ الصحف المجرية نص هذه البرقية فعلقت جريدة « يسترلويد » عليها بقولها : أما نحن المجرين الذين توارثنا في دماننا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية فنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنتهم بوجود رجال بينهم مثل « مصطفى كامل » الذي نسميه بحق « كوشوت مصر » . وكوشوت هو بطل التحرير المجرى ، ضد الحكم النمساوى .

وقالت جريدة « روبا وجيانوك لانجا » : « إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطنى بالوطنى ، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بالجللاء عن مصر » . وترامت أصداء نشاط مصطفى كامل إلى الولايات المتحدة ، فنشرت جريدة « النيويورك هيرالد » إحدى أكبر خمس جرائد في الولايات المتحدة كلها ، رسالة للمسيو سيمون تحدث فيها طويلاً عن مصطفى ، قال فيها : « إن العالم المتمدين يسمع في هذه السنين الأخيرة صوتاً رناناً وطنياً من الشرق ، وهو صوت سليل الفراعنة . هذا الصوت أسمع بكل انشراح ، وأقرؤه بكل

إمعان» ثم قال : « وإذا سأل الإنجليزي مصطفى كامل : أين أسلحة مصر ، وبواخرها وذهبها لتغلب أمته ، الإنجليزي وتملك مصر ، فالجواب عندي : أن بواخر مصر هي نيلها ، وأسلحتها إرادة أبنائها ، وذهبها جمال وضعها » . وقد علقت جريدة « النيويورك هيرالد » على هذه الرسالة بقولها : « إن غرض مصطفى كامل شريف . وقد قدمناه لقرائنا باسان جريدتنا ، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته ، ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ، ولا وزير حكومة ذات سلطان . قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة يهدونها طريق السداد » .

ومن بودابست سافر مصطفى إلى فيينا ، وعاد إلى باريس فأفصى بحديث إلى جريدة « الإكلير » الباريسية حمل فيه على السياسة الإنجليزية ، وعلق الكاتب الكبير « إدوار فلدنوفل » في جريدة « الأيبية » مؤيداً مصطفى ، كما أيده جريدة « الدييتس كولونيال » .

وفي أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ دعا مصطفى كامل المصريين والأتراك المقيمين بباريس إلى الاحتفال بعيد جلوس سلطان تركيا ، ولكنه كالعادة أدار الحديث في خطبته على ذكرى ١٤ سبتمبر ، ذكرى احتلال مصر ، وقد قال في هذا الاحتفال كلمة حدد فيها مسئولية المصريين بإزاء الاحتلال البريطاني فقال : « لا تظنوا أيها الإخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ، ولم تعملوا على إخراج الأجنبي من ديارها . قد يظن الكثيرون في مصر أن الذي لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه برىء من جريمة مصائبه ، غير مسئول عن الأخطار التي تتساقط عليه ، كلا ، إن الذي يرى النار بعينيه ، ويقف عند حد المشاهدة . فلا يعمل على إطفائها ، إنما هو شريك لمن أضرمها » .

ذهب بعد ذلك إلى برلين حيث الصحفي المشهور « هنري



روشنور » ، وكانت قد قدمته إليه مدام جوليت وزكته لديه .  
 وفي سبتمبر أرسل أحد أعوان الاحتلال البريطاني رسالة إلى العالم  
 الألماني « شتاينفورت » الذي حضر إلى مصر ١٨٦٣ لإجراء بحوث  
 علمية فيها ، يقول فيه : إن الذين يدافعون عن مصر ، وعلى رأسهم  
 مصطفى كامل ، ليسوا مصريين ولا تجرى في عروقهم دماء مصرية ، فنشر  
 العالم الألماني هذه الرسالة في ٣٠ من سبتمبر في جريدة « فولكيس  
 تسايتونج » وما إن قرأها مصطفى حتى سارع بالرد عليها ، وكان آنذاك  
 في مدينة فيينا ، فنشر رده في الخامس من أكتوبر ، الذي قال إن جميع  
 المصريين القائمين بالحركة الوطنية هم مصريون من سلالة مصرية صميمة ،  
 وأغلبهم أبناء فلاحين ، فليسوا هم من الفئة الغنية الغربية أصلاً عن  
 الفلاحين ، ولسنا كذلك بظالمى الملاح في الماضي ، لأنهم إما إخوتنا أو  
 آباؤنا . أما اكتتابنا للجيش العثماني فهو ثمرة وعى قومي صادق ، لأننا  
 نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا لضرر مصر ،  
 وإن فرحنا بالانتصارات التركية هو نفس فرحنا بانهزام السياسة  
 الإنجليزية .

وعاد مصطفى إلى بلاده في ١٠ أكتوبر ضعيماً ، أنهكته الرحلات  
 والزيارات والخطب والمقابلات ، وكل منها يكلف القائم به جهداً لا نعدم  
 الأعوان ولكثرة الأعداء ، وامتلاء الطريق بالعقبات . ذهب مصطفى  
 ليستجم ويستشفى في حلوان .

وأهل عام ١٨٩٨ ، الذي يجب أن نسميه بحق « عام فاشودة » :  
 فقد وقعت فيه حادثة فاشودة التي سنرى وقائعها بعد حين ، وكالعادة  
 لا يدع العام الجديد يمرّ دون عمل جديد في بدايته ، ففي ٨ من  
 يناير سنة ١٨٩٨ أقام طلاب المدارس العليا حفلاً بحديقة الأزبكية ،  
 بمناسبة عيد ارتقاء عباس حلمي العرش ، وقد أسمع مصطفى الطلاب  
 في هذا الاحتفال معنيين من أكبر المعاني التي بقيت مصر تفتقد أثرهما

في حياتها إلى اليوم . أولهما ألا يظن الطلاب أنهم انتهوا من حياة العلم بمجرد حصولهم على الشهادة العليا ، فحياة العلم ممتدة إلى آخر العمر ، والمعنى الثاني ألا يحملهم حصولهم على شهادة عالية على الظن بأنهم أعلى من مواطنيهم الذين لم تتح لهم فرصة التعليم . وشعرت دوائر الاحتلال بأن صاة مصطفى بالشباب المصري متمثلاً في طلاب المدارس وثيقة ، وتزداد توثقاً ، وأن ما يلقيه في وعيهم من المعاني يدعوهم إلى اتخاذ نهج قوى في الحياة ، ينضى إن عاجلاً وإن آجلاً ، إلى حركة تطرد بطبيعتها كل أسباب الضعف ، وفي مقدمتها الاحتلال البريطاني . فاتهمت هذه الدوائر مصطفى بأنه يدبر مع الطلاب ثورة . واعتبرت هذه الدوائر أن ما تخيلته حقيقة . فخرجت صحفها المأجورة ، وفي مقدمتها «لوريا» التي يصدرها بالفرنسية الصحفي الفرنسي بول مارتس ، تقول إن مصطفى يدعو إلى ثورة ، واتهمت المصريين بنكران الجميل لأنهم يطالبون بجلاء الاحتلال البريطاني الذي نظم مالية بلادهم . وأعاد السودان لمصر ، ونشر التعليم فيها ، فرد مصطفى كامل على جريدة «لوريا» في ٣ من فبراير ، رداً منيحاً قال فيه : « أيعدّ الدفاع عن الأوطان في نظركم لؤماً ولا تعدون السكوت عنه خيانة وجبناً ؟ وإذا كنتم أنتم الفرنسيين قد ثرتم في وجه حكوماتكم الوطنية مراراً دافعاً للظلم ، فكيف تجدون جموداً بالفضل أن تقوم في وجه المظالم النازلة بأرضنا من سلطة أجنبية » .

وفي ٧ من أبريل تلقى مصطفى رسالة من «هانز رزور» الصحفي الألماني صديق مصطفى تضمنت أربعة أسئلة عن عدد المدارس التي أنشأها الاحتلال البريطاني ، وعن عدد الطلاب الذين توفدهم الحكومة ليطلبوا العلم في أوروبا ، وعن عدد الموظفين الأجانب قبل الاحتلال وبعده ، وعن ثروة البلاد الفعلية وعن قيمة الديون الأجنبية وحالة الصناعة والتجارة القومية ومدى استعداد مصر للحكم الذاتي . وقد كانت هذه



الأسئلة فرصة لمصطفى كامل ، يفضح فيها الاحتلال ، ويبين كذب دعاويه من أنه ينشر العلم في مصر وهو يطارده ، ويهين المصريين ليحكموا أنفسهم وهو يسلط عليهم الأجانب وينحهم عن الوظائف الأساسية ، ويزعم أنه وازن ماليتهم ، ولو تركت مصر وشأنها لكان دخلها القوى وحده كفيلاً لسد الديون الأجنبية

وفي ٢٣ من أبريل سنة ١٨٩٨ ظهر لمصطفى أول كتاب سياسي بعنوان « كتاب المسألة الشرقية » يتناول بالشرح والتعليق تاريخ العلاقات التركية الأوروبية ، منذ وصول تركيا إلى الشاطئ الأوربي وطمع الدول الكبرى في ممتلكاتها ، ودعاويهم الكاذبة في مناصرة الحريات وفي حماية الدين المسيحي . وقد بقي هذا الكتاب فريداً في تاريخ السياسة المصرية حتى اليوم ، إذ لم يكتب سياسي مصري آخر في الشؤون الدولية كتاباً قائماً بذاته ، بل لم يكتب سياسي مصري واحد مقالا شاملاً للسياسة الدولية في أية مرحلة من مراحل القضية الوطنية . وقد انقضى على صدور كتاب المسألة الشرقية ثمانون عاماً ، كانت كفيلاً بأن يزداد خلالها السياسيون الذين يقرأون ويكتبون ويحدثون مواطنيهم في شئونهم العامة ، ويؤلفون لهم الكتب فيها .

وفي يوم ٢٤ من يونيو سافر مصطفى كامل إلى باريس ، وما إن وطئت أقدامه أرضها حتى قرأ خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس وزارة بريطانيا ، وردت فيها عبارة قال فيها : « إن إنجلترا لم تعمل السيف في الصين ، كما أعملته في الهند ومصر » ، فهاج هائج مصطفى لهذه العبارة ، فانبرى للرد على السياسي المحنك العجور برد نشرته جريدة « الإنترانسيجان » في ٤ من يولية سنة ١٨٩٨ ، أصابه فيه في مقتل ، فإن دعوى بريطانيا تقوم على أنها لم تأت إلى مصر فاتحة ولا غازية وأنه لا مطمع لها فيها ، وإنما جاءت بدعوة من حاكم البلد الشرعي وأميرها ، تثبيتاً لعرشه ، وتأبيداً لسلطانه ، في وجه ثوار تمردوا عليه بغير

حق ، وقد حوكموا على هذا التمرد وأقروا به ، وحكم عليهم بسبب هذا الإقرار . وقد ذكره مصطفى بقوله في سنة ١٨٨٦ : « لنحترم وعودنا المقدسة ولنجل عن مصر » ، وبقوله في السنة نفسها مخاطباً « واد بختون » وزير خارجية فرنسا : « إن بني قومكم في ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث في مصر إلى ما شاء الله » ، واستمر يذكره بتصريحاته المناقضة لهذه العبارة الصغيرة .

وكالعادة لم يمر يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢ الذي ضربت فيه الأساطيل البريطانية ميناء الإسكندرية والمدينة دون مقال من مصطفى كامل لإبقاء على هذه الذكريات حية في وجدان الشعب المصري بعامة ، والبحيل الحديد منه بخاصة . ثم وقعت حادثة فاشودة . وهي حادثة صغيرة ، إذ لم ينجم عنها تصادم عسكري ، والقوتان اللتان التقتا فيها على موقع على أعلى النيل ، كانتا قوتين صغيرتين . والموقع نفسه لم يكن أحد يعرفه ، ولعل خرائط تلك الأيام لم تكن تذكره ، ولكن الأحداث التاريخية لا تقاس بضخامة المواقع وشهرتها .

- كان السودان المصري في عهد الخديو إسماعيل يشمل جميع السودان حتى جنوب خط الاستواء ، كما يمتد إلى سواحل البحر الأحمر ، وخليج عدن ، كما وصلت حدوده الشرقية إلى المحيط الهندي وحدوده الغربية إلى ما بعد دارفور غرباً . فلما قهرت بريطانيا حكومة مصر على تنفيذ قرار إخلاء السودان تقاسمت الدول الاستعمارية السودان فيما بينها ، فأخذت بريطانيا كالعادة نصيب الأسد ، فاحتلت أوغندا ومنطقة البحيرات الاستوائية والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء ، ومحافظتي زيلع وهرر ، وأخذت إيطاليا مصوع وأريتر وأورأس جوردفون (حوردفوى) ، وفرنسا تاجورة وجيبوتي وبلاد هررو وبني شنقول . وعندما توجد فريسة يقوم التنافس بين الوحوش ، ولذلك اشتد التنافس بين الدول الاستعمارية ، وعلى وجه الخصوص بين بريطانيا وفرنسا ، وكانت فرنسا



تشعر بالخسائر منذ احتلت بريطانيا مصر ، ولذلك كانت تتحفظ دائماً لإفراز حملة إلى جنوب السودان لتضع يدها على جانب منه . وتضع حداً لزحف بريطانيا المستمر في هذا الاتجاه ، وقد بدأت تدبير هذه الفكرة في رأسها من سنة ١٨٩٣ ، ولكن السياسة الفرنسية في تلك السنين بخاصة ، وأمام بريطانيا بعامة ، تتسم بالتردد ، فأجلت تنفيذها إلى سنة ١٨٩٥ . وأخيراً عاهدت إلى الكولونيل « مرشا » بالزحف على « كودوك » ( فاشودة ) الواقعة على النيل ؛ وقد اختارت هذا الموقع لأنها مفتاح النيل الأعلى ، ووصل الكولونيل « مرشا » إليها في ١٠ من يولية سنة ١٨٩٨ ، واحتلها ، فكان من المتوقع أن يؤدي هذا الاحتلال إلى احتكاك بين القوتين الاستعماريتين ، وأن يؤدي احتكاكهما إلى فتح موضوع احتلال مصر وقضية وادي النيل . ولكن بريطانيا لم تمهل الحملة الفرنسية الصغيرة التي كانت تتكون من مائة وعشرين جندياً من السنغال وتسعة ضباط فرنسيين ، وأرسلت حملة قوية مؤلفة من ١٨٠٠ جندي مصري ومائة جندي بريطاني ، بقيادة اللورد كشر قائد الجيش المصري ( سردار الجيش ) وتلاققت القوتان ، وبدأ أن كفة الإنجليز راجحة ، واشتدت الأزمة بين فرنسا وبريطانيا ، وتوقع الناس أن فرنسا لن تدع هذه المناسبة حتى تحقق كسباً سياسياً ، إلى جانب الكسب الاستعماري ، وخاف بعض الناس من اندلاع الحرب بين الدولتين التي ستؤدي حتماً إلى حرب عالمية ، ولكن فرنسا اتخذت وسحب قوتها ، فكان هذا إعلاناً لجميع الأطراف في مصر : وطنيين واحتلاليين ، أن تعليق الأمل على فرنسا هو سعي خاسر ، ورجاء خائب .

حزن الوطنيون لهذه النتيجة ، وفرح الاحتلاليون بها ، وتوقع خصوم مصطفى أن هذه الضربة ستميته ، ولكنه استمد من الألم قوة ، فقد زادت الصدمة اعتماداً على نفسه ، وهو لم يقل هذا علناً فقط ، ولو فعل

لقليل إنه يغطي هزيمته ، ولكنه كتب لأخيه رسالة خاصة قال له فيها :  
إني ثابت على خطتي حتى الممات ، لأن اعتقادي أن ثمر الدفاع وإن  
لم يجنّه المدافع الأول أو الثاني فليسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ،  
وأننا إذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا في حياتنا ، فإننا على الأقل نضع  
الحجر الأول لمن يبنى بعدنا .

وقد كان لهذه الصدمة أثرها المباشر ، فقد سافر الخديو عباس  
الأول مرة إلى لندن في ٢ من يونية سنة ١٩٠٠ لفرط يأسه من زوال الاحتلال :  
وكتب مصطفى لأخيه الروحي فريد في ١٩ من أغسطس : « سأعمل  
كل ما في جهدي لخدمة البلاد ، وما على إلا الامتثال لإرادة الخالق جل  
شأنه الذي كأنه أراد أن أكون الوحيد في خطتي الفرد المطالب  
بالاستقلال » .

وكتب إليه في ٤ من سبتمبر سنة ١٨٩٨ : « ما علينا إلا العمل  
والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا ، فما ضاع حق لمطالب ، وإني كلما  
زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا ، وأنه لو اتحدنا منا  
لا هتزت الأرض قاطبة لصوتهم ، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية  
كلها . وقبل أن يسدل الزمان ستاره على آخر سنة ١٨٩٨ ، ألقى مصطفى  
كامل خطاباً في ٢٣ من ديسمبر بالمرسح الإيطالي ، قال فيه كلمته  
المأثورة « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » .

فلما كانت بداية عام ١٨٩٩ أعلن الناس في ١٩ من يناير أن  
اتفاقية أبرمت بين الحكومة البريطانية والحكومة المصرية ، عن اقتسام  
السودان بين الحكومتين ، وقد مثل بريطانيا في هذه الاتفاقية اللورد كرومر  
ومثل مصر بطرس غالى باشا ، وهذه الاتفاقية المكونة من اثني عشرة مادّة  
يمكن تلخيصها في كلمتين . يحكم السودان حاكم عام بريطاني ، تفرضه  
بريطانيا على الحكومة المصرية ، فتصدر هذه الأخيرة مرسوماً خديوياً  
بتعيينه بلامعارضة ولاسؤال ، ويكون هذا الحاكم مطلق السلطة في السودان ،



فقراراته هي التشريع في السودان ، ولا يكون لمصر سوى مظهر واحد في المشاركة في الحكم ، هو قطعة من القماش تسمى العلم . ولم يكند مصطفى كامل يطلع على هذه الاتفاقية حتى أحس أن بلاده يحتلها العدو الغاصب مرة أخرى ، فأرسل مقالا إلى جريدة « الجولوا » الفرنسية احتجاجاً على كل ما حدث قبل إبرام هذه الاتفاقية من إخلاء السودان وإعادة فتحه بجنود مصرية وبقيادة بريطانية يساعدها ضباط مصريون يعرفون السودان جيداً ، فكانوا يحكمونه بالكفاية والاستقامة والعدل .

ولما كان مصطفى دائم الدعوة إلى نشر التعليم فقد ذهب ليفتح مدرسة أهلية أقامها « حسين بك قورشيللي » من ماله الخاص ، وخطب مصطفى في الحاضرين حول ضرورة نشر التعليم في البلاد .

وبعد قليل أنشأ اثنان من شبان مصر الوطنيين هما أحمد صادق ومحمد سعيد التومي مدرسة في ناحية باب الشعرية وأطلقا عليها اسم مصطفى ، ثم لما أرادا بعد بضعة أشهر أن ينزلا عن إدارتها له نفسه قبل هذا النزول ، وأسند تلك الإدارة لأخيه على فهمي كامل ، وأرسل في ٢٨ من مارس سنة ١٨٩٩ إلى مدير جريدة المؤيد رسالة يعلن فيها ذلك ، ويقول إنه قبل ذلك العبء الجديد مع علمه بأنه حمل ثقيل ، لأن أعباء المدرسة كثيرة ونفقاتها طائلة ، « ولكني قبلتها بكل ارتياح أملأ مني في خدمة أبناء الوطن العزيز ، وإني أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لأنني أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة » .

وكان من تقاليد هذه المدرسة إقامة احتفال في نهاية كل سنة لتوزيع شهادات النجاح على الطلبة المنقولين والجوائز على المتفوقين ، وكان يدعى إلى هذا الاحتفال عليّة القوم ، وسافر مصطفى إلى أوروبا كعادته ، فزار فيينا وباريس وبرلين فيودابست ، ثم ختم رحلته بزيارة استانبول عاصمة تركيا ، وفي برلين قابل سفير تركيا في ألمانيا ، فأخبره بأن السلطان

يتابع أعماله بسرور ، وأنه يود أن يراه فسافر إليها بعد أن كان قد أجاب عن سؤالين وجهتهما إليه جريدة « ايكودوران » التي تصدر في الجزائر باللغة الفرنسية موضوعها حركة النهضة الإسلامية ، وهل هي موجودة فعلا ؟ ونشر الرد في ٢ من مايو سنة ١٨٩٩ ، وفي ١٠ من مايو نشر مقالا في جريدة « البرلينر تاجبلاط » عن علاقة ألمانيا بتركيا ، وعلم أن قيصر ألمانيا قرأ المقال وسر به ، ثم قصد بودابست حيث قابل صديقه « هانز ريزنر » ، فلما كان العشرون من مايو قابل رئيس وزراء تركيا ( الصدر الأعظم ) ، وسلمه تقريرا عن علاقة تركيا — بأوربا ، كانت استانبول غاصة بجواسيس كل الدول التي كانت ترصد خطى السلطان ووزرائه ، باعتبار أن تركيا أصبحت الفريسة التي ستسقط قريبا ، والتي سيتماسم وحوش الغابة لحمها وعظمها . .

وفي ٣٠ من مايو قابله السلطان في قصر « يلدز » ، وأفضى مصطفى كامل إلى السلطان بأنه علم بأن بعض الوشاة سعوا بينه وبين جلالته ، ولذلك هو يود أن يترك استانبول ، فهدأ السلطان من قلقه ، وطلب إليه أن يبقى بضعة أيام في الآستانة ، وفي ٦ من يونيو أنعم عليه السلطان برتبة الممايز فأصبح يلقب بـ « مصطفى كامل بك » . وعاد مصطفى إلى باريس فالتقى في ١٨ من يونيو سنة ١٨٩٩ محاضرة عن مصر ومطالبها ، في صالون مدام جوليت آدم ، وتكلم في هذه المحاضرة عن الأثر الذي تركه العلماء الفرنسيون أثناء حملة بوناپرت . وتحدث عن المرأة المصرية ، ونفى أنها تعيسة وبائسة ، وذكر الحاضرين بحديث النبي عليه الصلاة والسلام القائل بأن « اللجنة تحت أقدام الأمهات » وبنص القرآن الذي ينهى عن الزواج بأكثر من واحدة عند العجز عن العدل ، وبمجرد عودته إلى القاهرة أخذ بأسباب إعداد جريدة اللواء التي كان قد عقد العزم على إصدارها مع بداية العام الجديد ، وفي ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٩٩ ألقى مصطفى خطابا في تياترو الأزيبنكية .



وفي ٢٤ من ديسمبر أرسل إلى مدام جوليت رسالة يقول لها فيها في فرح إن مدرسته أصبحت تضم ٣٦٥ طالبا .

ولما طلع عام ١٩٠٠ كان أول أعمال مصطفى الجديدة في الأسبرج الأول من الشهر الأول صدور جريدته اليومية « اللواء » وقد تخاطبها الناس في ٣ من يناير ، وأصبح قرائه ينتظرون كل يوم مقاله الافتتاحي يقوى عزمهم ويثبت أملهم ، ويحدثهم في شئون مصر وشئون العالم . وأحبها المصريون ، وأطلقوا اسمها على بيوت التجارة والمحال العامة . ولا تزال بعض هذه المحال تحمل هذا الاسم ، وقد زود مصطفى جريدته بالمحررين المصريين والمراسلين الأجانب ، واعتنى بتحريرها وإدارتها ، وبمطابعتها ، حتى ذهبت دليلا على كفايته كمدير لصحيفة وك رئيس لتحرير جريدة يومية . ولما قالت جريدة مورننج بوست الإنجليزية إن الحركة الوطنية المصرية بعد تخلي فرنسا عنها ، وهزيمة تركيا في حرب اليونان قد صارت بلاسند ، رد عليها مصطفى في جريدة اللواء وفي الإكلير الفرنسية بمقال عنوانه « مصر مقبرة الأمم الظالمة » ، ولم يقنع مصطفى بالجريدة اليومية الدائنة ، بل عاد يلقي خطبه ، فألقى في مسرح زيزنيا في ٢ من يونيو خطبة احتشد الآلاف لسماعها كالعادة ، وفي ١٦ من يونيو سافر مصطفى إلى تريستا ، ومنها إلى باقي مدن أوروبا ، وسلم الجريدة لأخيه .

ولما وصل إلى تريستا في ٢١ من يونيو أرسل إلى مدام جوليت رسالة يقول لها فيها : لقد حظيت بمطالعة كتابك النفيس « الوطن المجري » على ظهر الباخرة ، ولشد ما حرك أشجاني ، فإني أثني عليك ألف مرة جزاء اللحظات السعيدة التي قضيتها في قراءة كتابك مما حبيب بلاد المجري إلى نفسي ، وهل يسمح لي الزمان بأن أطلع يوما كتابا بقلمك عن « الوطن المصري ؟ » . ومن تريستا ذهب إلى بودابست البلدة التي يعشقها ، ومن بودابست ذهب إلى تركيا فأقام فيها أسبوعين ، ثم زار فينيا ، وفي كل مرة يلقي الصحفيين والسياسيين ، ويعقد الندوات ،

ثم عاد إلى مصر دون أن يذهب إلى باريس لأمر تتعلق بصحته ومدرسته، وفي أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ دعى لاحتفال آخر السنة في مدرسة مصطفى كامل، فألقى على فهمي تقريراً عن أعمال المدرسة، ثم وقف مصطفى فخطب خطبة قال فيها، « إن كل فرد مهما كان صغيراً مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمتة، ولو ترك كل مصري لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثاً لأصبحنا وفيينا حياة طيبة تحيي الآمال » .

وفي ١٠ من مارس سنة ١٩٠١ دعا في اللواء إلى الاحتفال بذكرى علي مبارك، وقال: « لاشئ يرفع الوطنية في البلاد مثل ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها، وقضوا الأعمار في العمل لإعلاء شأنها » . ولما أسس مصطفى بك الشوريحي، أحد أعيان مديرية البحيرة، مدرسة في قريته بريم، وإلى جانبها مستشفى، ودعى مصطفى كامل ليحضر الاحتفال بافتتاحهما، لبي مصطفى الدعوة، وذهب ليشهد الاحتفال سعيداً مبتهجاً، وقال في خطبته: « قال القائلون ورد المرددون إن المصريين اتفقوا على الاتفقوا، وسرت هذه الكلمة في الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء، فأجبههم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً، بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية، وجمعية المساعي المشكورة في المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء القطر، تنادي بأن في الأمة رجالاً أحياء ذوي همم عالية وعزائم صادقة » .

وسافر بعد ذلك إلى فرنسا، وكانت علاقة مصطفى بدوائرها يشوبها الفتور بعد حادثة فاشودة التي خيبت الآمال في فرنسا، ولكن صلته بجريدة « لوكلير » كانت وثيقة، فلم تتأثر بالصنعة العامة لعلاقته بدوائر فرنسا الأخرى، فلما طلبت أن تتحدث إليه لتنقل آراءه إلى قرائها قال بصراحته المعهودة: كان لحادثة فاشودة أسوأ الوقع على نفوس المصريين، كنا ننتظر منذ



سنين تدخلا فعلياً من جانب فرنسا في المسألة المصرية . إن حادثة فاشودة تعتبر قاضية على النفوذ الفرنسي » ، وقال « إن اليأس لم ولن يدخل نفوسنا إطلاقاً في كفاحنا من أجل الوطن ، وإنما لقد يئسنا من كل عون يأتينا من أوروبا » .

وفي ٢٧ من فبراير سنة ١٩٠٢ جاء موعد توزيع الجوائز على المتفوقين من تلاميذ مدرسة مصطفى كامل ، وقد رأس الاحتفال هذه المرة الأمير محمد إبراهيم ، كما حضره عدد من الشخصيات الكبيرة مثل شيخ الجامع الأزهر سليم البشري ، ومفتي الديار المصرية محمد عبده ، وإسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين وإسماعيل صبرى باشا وكيل وزارة العدل والشاعر الرقيق . وفي ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ ألقى مصطفى كامل خطاباً في مسرح زيزينا بالإسكندرية .

وكما دعا إلى الاحتفال بذكرى على مبارك ، دعا في ٣ من فبراير سنة ١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المثلوى لذكرى محمد على ، وفي يوم ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ ، وهو يوم تولى محمد على الأريكة المصرية ، ألقى مصطفى كامل في مسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة عظيمة ، كان من أهم فقراتها الدعوة إلى إقامة الحكم النيابي .

وفي ١٣ من سبتمبر سافر مصطفى إلى فيينا ، ومنها أرسل رسالة إلى مدام جوليت آدم قال لها فيها : « اليوم هو ذكرى مرور عشرين عاماً على هزيمة المصريين في التل الكبير ، إنى أرى هذا اليوم يمر على وأنا في شدة الغم والحزن ، لأنه يذكرني بمرور عشرين عاماً على تسليم مصر ، وطني العزيز ، إلى إنجلترا خصمها اللدود » .

وفي ٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٢ جدد مصطفى الدعوة إلى الدستور ، وكان قد بدأها منذ سنة ١٨٩٧ ، ثم أعاد القول في المعنى نفسه في مقال ثان باللواء في ١٦ من نوفمبر .

وفي يوليو سنة ١٩٠٣ كان مصطفى في أشد الحاجة إلى الاستجمام

والراحة والعلاج بعد هذا المجهود المتصل ، فذهب مع صديقه محمد فريد إلى سويسرا يقضى فيها شهر أغسطس ، ثم عاد إلى مصر ، ماراً بالاستانة فقابل فيها الخديو عباساً والشاعر الفرنسي « بييرلوتى » صديق مدام جوليت ، وصديق تركيا .

وفي سنة ١٩٠٤ وقع حادثان متعارضان ، أولهما وأسبقهما زيارة مدام جوليت آدم لمصر في ١٩ يناير سنة ١٩٠٤ وحفاوة مصطفى كامل والمصريين والخديو والوطنيين بها ، وهى كما نعرف كاتبة فرنسية ، وثانيهما اتفاق فرنسا وإنجلترا المشهور « بالودى » في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ ، على أن يقتسما الشمال الأفريقى بينهما ، فتطلق فرنسا يد بريطانيا فى وادى النيل ، وتطلق بريطانيا يد فرنسا فى المغرب .

وصلت مدام جوليت آدم إلى الإسكندرية ، فنزلت ضيفة على الخديو ، ثم استضافها عمر بك سلطان فى المنيا ، وكان فيما بعد أمين صندوق الحزب الوطنى ، وسافرت إلى آثار تل العمارنة يصحبها عمر سلطان والأمير حسين فاضل ، ودعاها أعضاء الحزب الوطنى فى أسيوط والبلينا والأقصر ، فشاهدت الآثار المصرية هناك ، ثم ذهبت إلى إسنا وانتهت رحلتها فى أسوان ، ثم حضرت احتفال توزيع الجوائز فى مدرسة مصطفى كامل فى ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ، ثم سافرت إلى الفيوم ، حيث نزلت ضيفة على خالد باشا لطفى ، ووصلت هذه الزيارة إلى قمتها السياسية حينما دعاها الخديو عباس إلى مأدبة فى ٢٤ من فبراير سنة ١٩٠٤ فى قصر القبة ، وفى اليوم نفسه نشر مصطفى نبذة فى اللواء عن حياتها وآثارها القلمية ، ثم قصدت بور سعيد .

وفى ٤ من مارس سنة ١٩٠٤ عادت إلى وطنها ، وما كادت تصل إليه حتى نشرت مقالين عن رحلتها : الأول بعنوان « مصر الفتاة » والثانى بعنوان « فرنسا ومصر » فترجمهما مصطفى ونشرهما فى اللواء . وقد أغاضت الزيارة والمقالتان ، ومأدبة الخديو ، اللورد كرومر ، مندوب



الاحتلال ، فذهب يحتج لدى الحديو مباشرة لاستقباله عدوة صريحة لإنجلترا ، فرد عليه الحديو رداً كيساً ، إذ قال إن الدعوة كانت شخصية بحته لأنه يعرف مدام جوليت منذ ثمانى سنوات ، وقد دعتة إلى قصرها فى باريس حينما كان يزور العاصمة الفرنسية فهو يرد بماملتها بمثلها ، فأفحم كرومر وسكت . وفى مارس أيضاً منح السلطان مصطفى كامل ، رتبة الميرميران ، فأصبح بفضلهما باشا ، وازداد احترام خصومه له ، فالباشوية ، فى تلك الأيام لم تكن لقباً فحسب ، وإنما كانت فوق ذلك مكانة وهيبة .

ولكن عكس صفوه هذه الانتصارات الأدبية للفكرة الوطنية — الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا الذى أشرنا إليه ، وتقاسم المتنافسان بمقتضاه شامى إفريقيا ، وأمسكت فرنسا عن معاكسة الاحتلال البريطانى فى وادى النيل فى مقابل أن تسكت بريطانيا عن معاكسة الاحتلال الفرنسى لمراكش ( والمغرب ) ، وخيبت بطبيعة الحال هذه الاتفاقية آمال المصريين ، وأحس الحديو بقبضة الإنجليز تشد حول عنقه ، ولكن مصطفى كامل لم يبتئس ، ولم يشعر بخور فى عزيمته ، ولا مال من الجهاد ، وكتب إلى مدام جوليت يهاجم سياسة « ديلكاسيه » وزير خارجية بلادها . والتفت إلى شعبه وقال : « إنه يجب عليه أن يتخذ مثلاً من الإيرلنديين والبولنديين والفنلنديين ، وهم جميعاً دول صغيرة ، تجتمع عليها دول كبيرة ، ولكنها لا تستسلم ولا يفتر عزمها بل تواصل جهادها » .

وفى ٢٣ من مايو سنة ١٩٠٤ أقامت جمعية العروة الوثقى الخيرية حفلاً بمناسبة وضع الحجر الأساسى لمدرسة محمد على الصناعية ، فوقف رياض باشا رئيس مجلس الوزراء يخطب بين يدى الحديو ، ويثنى ثناء جماً على اللورد كرومر كأنه سيد البلاد ، فحمل عليه مصطفى حملة شعواء ، وفى ٧ من يونيه سنة ١٩٠٤ ألقى مصطفى خطبة فى مسرح زيزنيا بالإسكندرية ، فبدا فياضاً بالحوية كالعهد به ، فأدرك أعداؤه أن

الوفاق الودى لم يؤثر فيه ، ولم يضعف من معنويته ، بل إنه أعلن ذلك فى خطابه صراحة ، وكتب مصطفى لمدام جوليت يصف هذا الاجتماع ، فقال لها إنه كان يتمنى أن تكون حاضرة هذا الاجتماع حتى يزداد حبها لابنها ، إذ شهده أربعة آلاف ، وقد كان يحس بارتياح هؤلاء جميعاً ، وتأيدهم لكلامه . وفى هذه السنة أصدر مصطفى كتابه الثانى ، بعد كتاب « المسألة الشرقية » ، وكان موضوعه نهضة اليابان ، وقد عنونه « الشمس المشرقة » . وكان مصطفى شديد الإعجاب بنهضة اليابان السريعة ، كما كان يتمنى أن تحذو بلاده حذوها ، لأن مصر سبقت اليابان إلى الحضارة الحديثة وإلى إقامة دولة قوية فى عهد محمد على ، فى وقت كانت فيه اليابان فى ظلمات البداوة .

وفى أوائل يولية غادر مصطفى مصر إلى نابولى ، ومنها إلى سويسرا ففرنسا ، وفى سبتمبر سافر إلى بريطانيا مؤملاً أن يتصل بالمستر « ستيد » الذى تطوع بأن يقوم بتنوير رأى العام البريطانى ، وسلمه مقالاً لمجلته « مجلة المجلات » أوضح فيه مطالب مصر ، ثم ذهب إلى برلين ، حيث أفضى بحديث إلى جريدة « البوليزناجيلات » اقتطف منه المراسلون الأجانب فقرات طويلة وأرسلوها إلى صحفهم ، وبعد إقامة قصيرة فى بودابست عاد إلى مصر . .

وعاد أيضاً فى هذه الأثناء الخديو من أوروبا ، فأفضى إلى رئيس الوزراء مصطفى فهمى بأنه لم يعد راضياً عن نشاط مصطفى المعادى لبريطانيا ، وكان سر هذا الانقلاب حسن الاستقبال الذى لقيه الخديو عندما ما زار لندن فى العام الماضى ، وقد كان غاية الإنجليز من إكرام وفادة الخديو أن يستميلوه إليهم ، ويفصلوا بينه وبين مصطفى ، فلما علم بذلك مصطفى أرسل رسالة إلى الخديو فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، يعلن فيها قطع صلته به ، وجاء فى رسالته فقرة خطيرة ، إذ قال مصطفى للخديو : « إني أرجو أن يعتقده مولاي حفظه الله أنى لم أقصد



إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ، ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ، ويدخلون اسمكم الكريم في كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حساباً .

وهي رسالة تفيض شجاعة ، وتدل على أن مصطفى لم يكن يعمل إلا لحساب عقيدته ، وأنه لم يكن أسير إحسان أحد ، وقد كان لهذه الرسالة دوى ، فقد نشرت الجرائد الإنجليزية نبأ هذه المقاطعة وقد حدث بعدها أن ذهب الحديو في تنكره لمبادئه إلى حد أنه وقف تحت العلم البريطاني في ميدان عابدين يستعرض الجيوش البريطانية في مصر بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا ، وغضب الشعب كثيراً من هذا المسلك ، وعبر مصطفى عن هذا الغضب تعبيراً صريحاً : وفي هذه الفترة كان مصطفى يحس بتجمع الأعداء كلهم عليه ، فأرسل إلى مدام جوليت يقول لها : إني أرى مشهداً من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطني . إنه من أشق الأعمال على الإنسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس .

وفي ٣ ديسمبر أرسل إلى أمه الروحية يقول لها : « إن أعمالي تسير سيراً حسناً ، ولو أن صحتي متعبة » .

وفي سنة ١٩٠٥ دعا مصطفى كامل إلى فكرة من أعظم أفكاره ، تلك هي فكرة إنشاء الجامعة ، وقد كانت هذه الفكرة إحدى الأفكار التي استولت على لبه منذ البداية ، فقد كان يشكو مرّ الشكوى من أن أسلوب التعليم لدينا لا يدعو إلى توسيع آفاق الفكر ، وإنما يقوم على حشو العقول بالمعلومات ، وفي ٩ يولية سنة ١٩٠٥ تحدث مصطفى إلى مدام جوليت في رسالة لها عن سروره بأن مشروع الجامعة يسير في طريق النجاح ، إذ تم الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوروبا لتكون نواة للتدريس فيها .

وبدأ المرض يهاجم مصطفى بعد سنين طويلة من الإجهاد والسفر

المستمر والتفكير المتصل ومعاناة الأزمات والشدائد، وتحمل مكاييد الخصوم. وقد أرسل إلى مدام جوليت في ١١ من أغسطس سنة ١٩٠٥ يقول : أمضيت ليلة مفزعة بسبب ما انتابني من المرض الذي لم أره في حياتي ، وقد تركني في هذه اللحظة فتناولت القلم لأكتب لك أن الطبيب أو صاني بملازمة غرفتي يومين بلا عمل » .

وككل النفوس الصافية كان يستشف مستقبله من وراء الحجب ، فقال : ليس أمامي إلا خمس أو ست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ، وبعدئذ أستطيع أن أعيش سعيد البال . واستمر مصطفى ملازماً مدن الحمامات والمصحات : سان مورتيز ، وبلومبير . وكان في أثناء هذه الفترة يترجم خطبه إلى الفرنسية ويرسلها الواحدة إثر الثانية إلى مدام جوليت لتتولى تصحيحها ومراجعتها توطئة لجمعها في كتاب بعنوان « مصريون وإنجليترا » Egyptian et Anglais وقد ملأت هذه المجموعة ثلثمائة وعشرين صفحة . ثم سافر إلى باريس ومنها إلى برلين ، فحملت عليه الصحف البريطانية لهذه الزيارة ، فكال لها الصاع صاعين .

لم يبق من حياة مصطفى إلا عامان . .

وكان له في كل عام من العاملين عمل ضخم . -

كان عام ١٩٠٦ عام حادثة دنشواي وكان عام سنة ١٩٠٧ عام إنشاء الحزب الوطني واجتماع جمعياته العمومية . .

وقصة حادثة دنشواي رويت مراراً ، وأصبح أكثر الناس يعرفونها . وهي قصة بسيطة وإن كانت مؤلة إلى أقصى حد . وقد لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحركة الوطنية .

وجملة هذه الحادثة أن خمسة من الضباط الإنجليز رغبوا في أن .



يصطادوا الحمام في الحقول ، وكانت فرقتهم عائدة من الإسكندرية إلى القاهرة ، فاصطحب الضباط الخمسة جندياً مصرياً من جنود الشرطة كترجم لهم ، فاقترح الجندي أن يذهب إلى دار العمدة بقرية دنشراى التى وقع عليها الاختيار لممارسة رياضتهم ، ولكن الضباط نقد صبرهم ، فبدأوا يطلقون بنادقهم قبل أن يعود الشرطى . وحدث أن انحرفت رصاصة الضابط فأصاب امرأة كانت تجلس على نورج فى جرن زوجها مؤذن القرية ، ثم علقت نار القذيفة بالتبن الناتج من عملية الدراس ، فهجم شقيق زوج المرأة على الضابط لينتزع منه البندقية حتى لا يكرر عدوانه ، وتجمهر الفلاحون وهم يصرخون : الخواجه قتل المرأة والنار حرقت الجرن « أحس الضابط « بول » وزميله « بوستوك » حينما حاول الفلاحون أن يجردوهما من بنادقهما أن تجريدتهما من البنادق يتبعه القضاء عليهما ففروا فى اتجاه معسكرهما الذى كان يقع على بعد خمسة أو ستة كيلومترات من مكان الحادث ، وكان الحر شديداً ، وكان النقيب « بول » قد أصيب بجرح صغير فى رأسه من أثر التماسك ، ولكن عمدته فى الحر الشديد ، والمصحوب بالخوف ، مع تلك الإصابة الصغيرة ، أدت كلها إلى سقوطه مغشياً عليه فى ساحة سوق قرية سرسنا القريبة من المعسكر ، ووصل « بوستوك » إلى المعسكر ، فهرعت نجدة من الجنود مكونة من عشرة أفراد ، ولما وصلت إلى حيث وقع الضابط « بول » رأت إلى جواره صبياً صغيراً اسمه ( محمد سيد أحمد ) وهو يحاول أن يسقيه ماء ، فظن الجنود أن هذا الطفل اشترك فى ضرب الضابط المغمى عليه ، فأنهالوا عليه ضرباً ، فأسرع إلى الاحتماء بطاحونة قمح ، فتبعوه إلى هناك ، وما زالوا به يضربونه بكعوب البنادق حتى مزقوا جثته مزقاً صغيراً ، وذهب الصبي ضحية إنسانيته ، وعرف فى تاريخ هذه الحادثة يشهيد سرسنا .

ولما وصلت هذه النجدة إلى القرية أطلقت سراح الضباط الثلاثة

الباقيين : « كوفين » وكان برتبة النقيب ، « وسميث ويلك » و « بورتر » وكانا برتبة الملازم .

وبلغت أنباء الحادث مستشار وزارة الداخلية الإنجليزى « مسترمتشل » فأسرع بالذهاب إلى دنشواى ، وأجرى تحقيقاً مبدئياً ، ثم أمر بتنفيذ قانون المحكمة المخصوصة الصادر بطريقة تشكيلها فى ٢٠ من فبراير سنة ١٨٩٥ ، وشكلت المحكمة برئاسة بطرس غالى باشا رئيس الوزراء ووزير العدل بالنيابة ، وأحمد فتحي زغلول رئيس محكمة القاهرة ، وثلاثة من الإنجليز ، أحدهم مستشار بمحكمة الاستئناف المصرية ، والثانى المستشار القانونى لقوات الاحتلال ، والثالث مستشار قضائى مساعد فى الحكومة المصرية . وانعقدت المحكمة فى سراى محافظة المنوفية التى تتبعها قرية دنشواى وقبل أن تصدر المحكمة حكمها نشرت جريدة المقطم - جريدة الاحتلال - أن المشائق أرسلت إلى دنشواى ، فعرف أن بريطانيا العظمى قررت أن تمتنع من الفلاحين المصريين انتقاماً مروعاً .

وعلى الرغم من أن الحادثة من أولها إلى آخرها كانت عدواناً على الفلاحين وسوء تقدير لا يجد له تفسيراً ، وجبنًا مزيماً لا يليق بضباط فى جيش أمة مشهورة ببرود الطبع وضبط النفس ، فإن هذه المحكمة الآثمة وجدت لديها القدرة على أن تحكم بشنق أربعة من الفلاحين بعد دفاع نصف ساعة فقط عن خمسين متهمًا ، وأن تحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على واحد منهم ، وبالأشغال الشاقة المؤقتة على سبعة ، وبالسجن والجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة . وفى يوم ٢٨ من يولية سنة ١٩٠٦ ، وفى الموقع الذى حدث فيه الحادثة ، نصبت المشائق على حقل كان قد حصدت منه المزروعات ، وقد طوق مكان التنفيذ عدد من فرسان فرقة « الدراجون » البريطانية وهم على صهوات جيادهم ، ومن بعدهم حلقة من فرسان الشرطة المصريين ، وسبق المحكوم عليهم بالشنق والجلد ، على رأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم



وبنائتهم وأطفالهم ، وكلما شفق محكوم عليه بالموت جلد اثنان ، ومندوب الحكومة المصرية والبريطانيون يشاهدون آلام وموت جماعة بريئة من صغار الفلاحين . واستغرق التنفيذ ساعة كانت من أطول ما شهدته الإنسانية من ساعات ، ولقد أحسن تصوير ما جرى في تلك الساعة أحمد حلمي ، الكاتب الأول في جريدة اللواء ، فقد كتب تسجيلا لفظائها مقالا عنوانه « يا دافع البلاء » ، قرأه المصريون في اليوم التالي ، فضجوا بالبكاء ، واختنقوا بالدموع ، وأحس كل منهم أن المصاب ، وأن الإهانة التي لحقت مصر من تنفيذ هذا الحكم بالغة وقاسية ، وزاد من شدتها وقسوتها أن اثنين من أكبر رجال مصر الذين تعلموا ، ووصلوا إلى أكبر المناصب قد شاركوا في إصدار هذا الحكم ، بل إن أحدهما وهو أحمد فتحي زغلول رئيس محكمة القاهرة هو الذي حرره بقلمه .

وكان مصطفى كامل في باريس ، يلتمس العلاج لما أصابه من ضعف ، وكان أطباؤه قد نصحوه بالتزام الراحة ، وبالامتناع عن أي جهد ، ولكنه ما كاد يقرأ وصف هذه المجزرة المروعة حتى ترك فراشه ، وقام يكتب واحدة من أجمل مقالاته ، تلك التي عنوانها : « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين » قال فيها :

« إني جئت اليوم أسأل الإنجليز الغير على بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا أيرون من العدل بسط النفوذ الأدبي والمادى لإنجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية . جئت أسأل الذين يجاهرون في كل آن ذاكرين الإنسانية ، ماثين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواي أن يشبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفي وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوربية في أعين العالم كافة » .

وقد دوت هذه المقالة في الدوائر السياسية ، في مصر وفي فرنسا وفي

بريطانيا ، دويماً هائلا ، أحس بخطره أول ما أحس اللورد كرومر نفسه ، الذى كان فى إجازة فى بريطانيا .

كان مصطفى مريضاً منهوك القوى عندما حدثت حادثة دنشواى ، فزاده الانفعال بها ، والكتابة فيها ، ضعفاً على ضعف ، ولكنه قرر أن يسافر إلى لندن ، إذ شجعه على ذلك مستر « بلنت » الكاتب الذى عرف عربى ووضع كتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ، ووصل مصطفى إلى لندن فى ١٥ من يولية سنة ١٩٠٦ ، واتصل بعد ذلك مصطفى بالنواب واللوردات والصحفيين ، وقد قالت مدام جوليت عن زيارة مصطفى للنندن : استطاع مصطفى كامل أن يحرك الرأى العام البريطانى بفصاحته وحماسه الوطنى ، وإن أحاديثه الصحفية ومقالاته فى الجرائد الإنجليزية دفعت السير « إدوارد جراى » إلى التصريح بأن مصر تعتبر بلداً متمديناً ، بعد أن قال عنها إنها بلد متوحش ومتعصب ، وتحدثت إلى مصطفى فى ٢٠ من يولية جريدة « الديلى كرونكل » ، وأحسن تقديمه إلى قرائها ، وأوردت نبذة غير قصيرة عن برنامج الوطنى ، وحياته الصحفية . وأقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة تكريم له فى لندن فى ٢٤ من يولية ، لى الدعوة إليها ٢٥٠ شخصاً ، ورد مصطفى على هذه الحفلة بمأديه أقامها فى فندق كارلتون فى ٢٦ من يولية ، دعا إليها الصحفيين والنواب والكاتب واللوردات ، دحض فيها تهمة التعصب التى رعى بها المصريين اللورد جراى وزير خارجية بريطانيا لتفسير حادثة دنشواى .

وتقول مدام جوليت آدم فى مقدمة كتاب « مصريون وإنجليترا » : إن « السير كامبل باترمان » رئيس وزراء بريطانيا أبدى رغبته فى مقابلة مصطفى كامل ، وإن المقابلة تمت فعلاً فى مقرر رئيس الوزراء ( ١٠ داونتج ستريت ) ، وإن الحديث تناول كل شئون مصر ، والإساءة التى سببها حكم اللورد كرومر لسمعة بريطانيا فيها ، فسأل « السير باترمان »



مصطفى : هل تقبل أن تشكل وزارة برياستك ، فرفض على التو مصطفى كامل قائلا : إن وطنيتي تفرض على رفض أى منصب فى ظل الاحتلال ، فسأله رئيس الوزراء : إذن من ترشحه ليتولى الوزارة من المواطنين الأكفاء ليسقط حجة اللورد كرومر وأمثاله بأن المصريين لا يصلحون لحكم أنفسهم ، فأعطاه مصطفى قائمة من اثنين وثلاثين اسما ، كان منهم سعد زغلول ، فلم يقع اختيار الحكومة البريطانية إلا على سعد زغلول ، فلم يؤثر هذا الاختيار على مصطفى كامل عند وقوعه فى ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، بل كتب إلى مدام جوليت يقول لها : « إن سير « باترمان » كان مخلصا فى حديثه معى بشأن استقلال مصر . . . إن سعد زغلول من أظهر مستشارى محكمة الاستئناف ، ولقد وضعت اسمه فى القائمة التى سلمتها للسير باترمان ، ولديك نسخة منها ، فاختيار اللورد كرومر لسعد زغلول من بين اثنين وثلاثين اسما ربما كان القصد منه الأمل فى ضم سعد زغلول إلى سياسته ، لأنه متزوج من ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمى » .

وفى آخريات سنة ١٩٠٦ أعد مصطفى كامل عدته لإصدار جريدتين يوميتين إحداهما باللغة الفرنسية والثانية باللغة الإنجليزية وتحملان معا اسم « اللواء المصرى » ، وقد أسس لتمويلهما والإنفاق عليهما شركة رأس مالها ٢٠ ألفا من الجنيهات ، وزودهما بالمراسلين الأجانب والمحتررين والمترجمين ، وقد كتب لمدام جوليت يقول : « أود أن يكون لى بعض معاونين من كبار الكتاب الفرنسيين يكون من بينهم شخصك الموقر ، واثنان أو ثلاثة من أصدقائك الأدباء والسياسيين ، فهل لك أن تتفضللى وتهتمى بهذا الأمر » .

ثم ذهب مع محمد فريد إلى باريس ، ومر بمدام جوليت آدم ، وأسر إليها بأن الإنجليز ينتوون عزل الحديو لتأييده مصطفى كامل فى حملته عليهم أثناء حادثة دنشواى ، ولاستنكار الحديو حكم المحكمة

في هذه الحادثة ، ومساعدته المالية لجرائد مصطفى كامل اليومية الفرنسية والإنجليزية ، ورفضه حضور حفلة أقيمت احتفالاً بذكرى ميلاد ملك إنجلترا ، وأن مصطفى لذلك سيسافر ليقابل رئيس الوزراء البريطاني ، الذي تأثر بشخصية مصطفى كامل ، ليفهم السياسي البريطاني سوء أثر خلع الخديو في مصر ، وسوء مغبة ترك اللورد كرومر في منصبه بعد أن أنكشفت نتائج سياسته .



## الرسالة والرسول

### الرسالة

دعاة الحرية في الأمم المغلوبة على أمرها ، هم من هذه الجماعة المختارة التي تذكرها الكتب المقدسة باسم القديسين والشهداء والصالحين ، فعملهم أقرب ما يكون من عمل الرسل ، فهو هداية الناس إلى الطريق الذي يخرجهم من الذل إلى الكرامة ، ومن الأسر إلى الحرية ، ومن الضعف إلى القوة . ولما كان هذا الخروج لا يتحقق بذاته ، وإنما يتحقق بالسعي والجهاد ، أي بتحمل المشاق ، وإنكار الذات ، ومواجهة المخاطر ، وفي مقدمتها خطر الموت وخطر الفقر ، فاستجابة الناس لدعوة زعماء الحرية كاستجابتهم لدعوة الأنبياء والرسل ، لا تتم إلا بعد طول التردد ، وإذا لبأها فريق من الأمة عارضها الكثيرون . ولما كان الناس لا يحبون أن يقرؤا بعيوبهم ، وأن يفضحوا نقائصهم فإنهم يسوغون تباطؤهم في تلبية الدعوة ، أو نفورهم منها ، بأن في الدعوة عيوباً ، أو في صاحبها نقائص ، فيشتكي هؤلاء الدعاة الصالحون بما يتهمون به زوراً ، وبما يلقونه من الصدود والإعراض ، فيكون نصيبهم وحظهم في الدنيا كحظ أنبياء الله ورسله ، وإن كان الله لا يوحى إليهم ، وإنما يلهمهم بما يلهم به كل داع للخير وكره للشر ، وعامل من أجل الإصلاح .

فليس إذن ثمة شيء غريب ، إذا سمينا مصطفى كامل رسول الوطنية ، وإذا سمينا جهاده رسالة . والحكم على رسالة الرسول يكون بقدر حاجة المجتمع إليها وبقدر عدم اهتداء الناس إليها وإلى الخير

الناجم عنها . فما عرف التاريخ رسولا دعا إلى ما تدعو إليه الغريزة الإنسانية . لم نسمع عن رسول دعا الناس ليأكلوا الطعام ويسعوا إلى أطايبه ولذائذه ، ولا إلى حب النساء ، ولا إلى جمع المال . وإنما قد يدعو الداعي إلى شيء يتعلق بهذه الغرائز ، فقد يأتي من يدعو الناس إلى أن يتصلوا بالنساء في حلال لا في حرام ، أو أن يتركوا أكل طعام أو شراب عرف ضرره ، أو أن يأكلوه نظيفاً أو بعد نضجه ، أما ما تدعو إليه الغرائز فالناس تفعله ، ولا فضل لها .

فالرسالة تأتي عادة للناس في وقت يعملون فيه نقيضها ، والمشاهد أن الأمم إذا أصيبت بهزيمة كرهت ذكر الجهاد ، وكرهت أن تدعى إلى القتال من جديد ، ومالت إلى رذائل التحلل وإيثار المصلحة الشخصية وفشا فيها التواكل والتفعية والوصولية ، وتقدم صفوفها الإمتعات الذين لا رأى لهم ، والذين يذهبون مع كل ريح ، ويجرون في أذيال كل ناعق ويتقلبون على كل وجه ويرددون كل يوم كلاماً . ذلك لأنهم بالهزيمة يفقدون احترام أنفسهم كما يفقدون إيمانهم بالمثل العليا ، فلا يكون في حياتهم إلا أحط ما يفكر فيه الناس ويعملون له .

فالرسول الذي يأتي في هذه الفترة ، مهمته أن يبدل بشعور اليأس والاستسلام وقبول الأمر الواقع الأمل في المستقبل ، ورفض الأمر الواقع والتهيؤ للمقاومة ، وتذكر فضائلها .

فلنر في أي الظروف بدأ مصطفى كامل عمله السياسي . إن الهزيمة العسكرية للثورة العربية كانت بلاء مدمراً ، ولكن هذه الهزيمة تجاوزت الجانب العسكري إلى الجانب الروحي ، فقد رأينا زعامة هذه الثورة ، بعد مواقفها المجيدة من الإنجليز والحديو ، وبعد أن أقامت الحكم النيابي الصحيح ، وبعد أن أحسنت تعبئة الأمة أدبيًا وروحياً قد اتخذت بعد الهزيمة العسكرية في التل الكبير ، مسلكاً مناقضاً لمسلكها الرائع السابق على تلك الهزيمة ، فإنك لا تجد مسوغاً لتسليم عربي



لقائد الاحتلال البريطاني ، ولا لبقائه في القاهرة بعد قراره بعدم استمرار المقاومة للغزو البريطاني في القاهرة ، ورده عنها . وأحسب ويحسب كل إنسان آخر أنه كان في وسعه أن يجد مكاناً يلتمس فيه اللجوء السياسي هو وزملاؤه ، حيث يبتى رمزاً للثورة ، وعنواناً على المقاومة الوطنية ، منتظراً ما تأتي به الأحداث ، فإذا سلمنا جدلاً بوجاهة الظروف التي قرر فيها عرابي وزملاؤه أن يسلموا أنفسهم لقائد الاحتلال البريطاني ، فما معنى اللجوء إلى محاميين إنجليزيين يدافعان عنه ، وهما في نهاية الأمر لم يفعلوا أكثر من نصحهما له بأن يعترف على نفسه بتهمة التمرد على الحديو في مقابل تخفيف عقوبة الموت إلى النفي . وإنما الذي لا نفهمه مطلقاً ، ولا نجد له تفسيراً ، هو تقديم عرابي لنورد دوفرين في ١٥ من ديسمبر سنة ١٨٨٢<sup>(١)</sup> مشروعاً للإصلاح الإداري والحكومي في مصر ، وذلك عن طريق المستر برودلي محامي عرابي ، فالتحدث إلى مندوب الحكومة التي غزت مصر ، وتقديم الاقتراحات الخاصة بإدارة شؤون البلاد التي غزتها ، واستولت عليها بالخديعة والخيانة والعنف ، تسليم صريح لاضمني بحق تلك القوة الغازية في إدارة البلاد ، وفي ثقة صاحب الاقتراح في حسن نواياها ، وفي جواز التعامل معها . فإذا كان هذا الاقتراح مقدماً من زعيم ثورة هذه الأمة التي غزيت في عقر دارها ، كان معنى ذلك أن الشعب قد أسقط عن الغزاة صفتهم الكريهة الباطلة ، وأسبغ عليهم رداء الشرعية .

وقد استمرت هذه الروح متزايدة ، فقد بتي اللورد كرومر رمزاً على الاحتلال المستبد بشئون مصر ، دون الحديو ودون ممثلي الشعب ، وكذلك كان سقوطه في نظر الوطنيين عيداً وطنياً ، وكان زواله من مكانه بشيراً بضعف الحكومة الاحتلالية ، فانظر ماذا كان أثر هذا السقوط في نفس شخصية كبيرة من شخصيات مصر ، يعرف صاحبها بين

(١) راجع جزء (٢) مذكرات عرابي ص ١٦٥ - طبعة دلدال .

مواطنيه برجاحة العقل ، وقوة الشكيمة ، ونعني بها سعد زغلول ، الذى قال فى مذكراته المودعة بدار الوثائق فى نقد جاء فى ص ٢٤٠ من الكراسة رقم ٦ ، إنه حينما سمع نبأ استقالة كرومر شعر « كمن ونخر بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها » ، وذهب ليقابل كرومر ليطمئن على مركزه ، وعندما سأله كرومر عن الأحوال رد سعد بأنها سيئة ، ولكن بعد أن يشرح له كرومر الأسباب الصحية التى دفعته إلى الاستقالة ويطمئنه بقوله : لا تخف « يا سعد باشا » مطلقاً فإن خلنى سيؤيدك بكل ما فى وسعه ، ويقول سعد فى مذكراته : وعندما أبدى عبارات التشجيع والتطمين قلت له إني لا أفكر فى شخصى ولكن فى بلدى ومنفعتيها التى سوف تخسر بعدك خسارة لا تعوض<sup>(١)</sup> فيرد عليه كرومر : لاخوف عليها (أى على مصر) من ذلك ، فإن خلنى قادر ، وقد تربى على مبادئ ؛ فيقول سعد « فخرجت شاكراً متأسفاً فرحان حزنان . . . »<sup>(٢)</sup> .

وإذا أردنا أن نعرف رأى الآخرين فى الاحتلال البريطانى فعلينا أن نقرأ خطبة مصطفى رياض باشا فى حفلة وضع الحجر الأساسى لمدرسة محمد على الصناعية فى ٢٣ من مايو سنة ١٩١٤ وذلك بمدينة الإسكندرية وفى حضور الخديو عباس ، فقد قال رئيس الوزراء المصرى عن اللورد كرومر الذى اعتذر عن حضور الاجتماع :

« جناب المحتشم اللورد كرومر . اعتذر اليوم عن الحضور فى هذا الحفل لتغيبه عن مصر ، وكل يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد ، وبالأخص ماله من اليد الطولى فى كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا ، وهى التى

( ١ ) كتاب الدكتور عبد الحالى لاشين : سعد ودوره فى السياسة

المصرية حتى سنة ١٩١٤ .

( ٢ ) ص ٢٢٤ من مذكرات سعد الكراسة رقم ( ٦ ) .



كانت لنا معاونًا ، بل متممًا ومكملاً لهذا المشروع ، فحق علينا أن نعرف هذه المبرة ، ونقدم له واجب الشكر ، ونثني عليه أطيب الثناء .

فإذا انتقلنا إلى رئيس وزراء آخر ، هو مصطفى فهمي باشا ، وأردنا أن نعرف رأيه في الاحتلال البريطاني وفي علاقته به ، وعلاقة المصريين به ، استطعنا أن نعرف هذا الرأي مما تحدث به إلى « دجرفيل » صاحب كتاب « مصر الحديثة » الذي صدر سنة ١٩٠٥ على ما نقله من هذا الكتاب المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعي قال :

« انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن سنة ١٩٠٥ ، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء ، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء .

إن التغيير كان سريعًا واسع المدى لدرجة أنني في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل : هل أنا في يقظة أم في منام : إننا مدينون لإنجلترا بثروتنا وسعادتنا وهنائنا ، أنظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور ، إنها كانت منذ عشرين سنة لا تساوي شيئًا ، والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات ، فإذا تكون قيمتها لو جلت إنجلترا عن مصر ؟ »

وإذا انتقلنا إلى أهل الفكر فلننظر إلى موقف رجل له فضل كثير على رفع أساليب الكتابة العربية ، وتقدم مناهج الفكر الديني ، والتحرر من الخرافة الموروثة وأخطاء السلف في التفسير ، ونعني به الشيخ محمد عبده . فقد روى عنه تلميذه الوفي في تاريخ حياته الذي كتبه عنه في صفحة ٥٠١ ما نصه : « إن اللورد كرومر مندوب الاحتلال البريطاني أعلن أن الشيخ محمد عبده باق في منصبه بدار الإفتاء مادام الاحتلال باقيًا » وقد أورد أحمد شفيق باشا في كتابه « مذكراتي في نصف قرن » ما نصه : « وقد انتهت الدسائس ضد المفتي بأن صرح اللورد كرومر يوم ١٤ يناير سنة ١٩٠٣ أثناء مقابلاته للخديو ، بأنه

مهما كانت الأحوال فإنه لا يوافق على فصل الشيخ المفتى من الإفتاء مادام موجوداً ، أى مادام اللورد كرومر موجوداً . وخفاء المفارقة الموجهة بين بقاء شيخ مسلم يدعو إلى إصلاح الدين ، وبقاء الاحتلال الأجنبي في بلد مسلم ، وهو أمر يأباه الدين وكل دين ، على تلميذ للشيخ محمد عبده ، كرشيد رضا ، وهو رجل حصيف حسن الفهم ، ويقبله الشيخ محمد عبده على نفسه ، كما يقبل أن يتبادل مع اللورد كرومر المشورة في شؤون الأزهر وعلاقة الخديو بها من جهة ، ومراجعة اللورد لبعض أحكام الشيخ محمد عبده ، وهو يشغل منصب القاضي ، يريك مدى سقوط صفة العدو الغاصب عن الاحتلال البريطاني ، واعتباره صاحب حق ، في تصريح شؤون البلاد ، حتى ما كان منها دينياً كشؤون الأزهر ، بل الاعتراف له ، بأنه لا يجب لهذه البلاد إلا الخير ، فالأخذ والرد منه ، هو أخذ ورد تقتضيه المصلحة ، والامتناع عنه فيه المضرة .

أما أحمد لطفي السيد فقد أقام حزبا كاملا على أساس هذا الفهم ، فقد شرح سياسة « الجريدة » ، لسان حزب الأمة ، وقد كان هو رئيس تحرير هذه الجريدة وموجه سياستها ، فقال : إن الجريدة لم تنشأ لأن تحايي السلطة الشرعية ( الخديو ) أو السلطة الفعلية ( الاحتلال ) ، ولا أن تعادي واحدة منهما ، ولا أن تنتصر لإحدهما على الأخرى .

ولما سقط كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧ ، وأقام بعض أعيان المصريين حفلة تكريم له ، وجهت إلى هؤلاء المحتفلين بكرومر اللوم والنقد جريدة « اللواء » ، فرد على هذا اللوم والنقد أحمد لطفي السيد بقوله :

« سياستنا مع الإنجليز لا تخلو من أحد وصفين : إما سياسة عناد وعداء ، وإما سياسة مساواة لا استسلام ، ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة ، إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حساباً على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحاً له ؟ فلم يبق إلا سياسة المساواة والمحاسنة مقرونة بالمحاسبة ، وأول مظاهر المحاسنة المحاملة في المعاملة . »



فلطفي السيد يقترح على الشعوب المنكوبة بالأعداء الغازين والفاشين المقتحمين ألا تعادى أعداءها ، بل أن تحاسنهم ، لتستطيع أن تحاسبهم ؛ وهو نظر لو أخذ به لما كانت صحائف التاريخ عرفت حركة وطنية ، ولاستحالت جميع الحركات الوطنية إلى لون من التخنث ، لا هو قبول بعدوان المعتدين والإذعان له ، ولا هو مجاهدة له ودفع لأذاه ، وتأليب الناس عليه . ولو وجدت خطة كخطة لطفي السيد ، لو فرت الأمم على نفسها العناء ، ولما سفك دم ولا فتح سجن ، ولا شقيت جماعة بتكاليف الجهاد وأعبائه :

إذن هذه هي حالة مصر عندما فتح مصطفى عينيه للحياة العامة ، وهو بعد صبي حليق لم يطرّ شاربته ، ولم يشتد عوده . ولك أن تصور لنفسك المشقة التي يجب أن يتحملها صبي لا حول له ولا قوة ، ولا مال عنده ولا جاء ، ليغير هذه الحالة .

### ماذا تكون الرسالة ؟

فماذا تكون إذن رسالة مصطفى على وجه بين ؟  
رسالة مصطفى ذات ثلاث غايات يجمعها جميعاً هدف واحد :  
الأولى - كره الاحتلال البريطاني ورفض احتماله أو السكوت عليه ، واعتباره بلاء وكارثة وعاراً ، ورفض كل ما يقال عن خيره وفضله وحسن أثره في مصر ، ورفض المقارنة بينه وبين ما سبقه من عهود فساد أو ظلم .

الثانية - إقناع المصريين بأن إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر ممكن وأنه من غير المستحيلات ، كما يحاول الاحتلال أن يثبت للمصريين .

الثالثة - أن مصر عظيمة وجليلة وزائفة ، وجديرة بكل حب وولاء وفداء ، وأنها بتاريخها وأعمال أبنائها وموقع أرضها قادرة على أن تجمع

الناس حولها إعجاباً وتقديراً ، من ناحية ، ورعاية لمصالح أوطانهم من ناحية أخرى .

ولو كانت الحركة الوطنية في أى وطن هي مجرد حب الوطن ، لكانت هذه الحركات من أكثر الحركات الإنسانية نجاحاً ، فالناس خلقوا يحبون البلد الذى ولدوا فيه ، وطبعوا على أن يفضلوا ماءه وهواءه وعاداته وتقاليده ، على الماء والهواء والعادات والأساليب في أى بلد آخر . و « المصرى » بين الأمم والشعوب يبلغ في حب بلده أقصى الغاية ، فهى « أم الدنيا » عنده بصدق واقتناع ، لاعتاد ادعاء ومزايدة على غيره من الأمم ، ونيلها ينبع من « الجنة » إيماناً وعقيدة ، والقاهرة محروسة بأهل البيت ، وأهل البيت ، أى ذوو قرابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد اختاروا القاهرة للإقامة فيها ، واختارها الله لهم ليدفنوا في أرضها ، لأنها خير أرض الله ، وقد ذكرها في القرآن وفي التوراة معاً ، كما لم تذكر أرض غيرها ، في حين لم يُذكر وطن سواها . وقد لا يعجب المصرى أحداً من الشعوب ، حينما يطلق العنان لملكة النقد والسخرية اللاذعة المطبوع عليها ، ولكن للأسف الممض ليست الحركات الوطنية في القديم أو الحديث مجرد حب للوطن ، ما لم يكن هذا « الحب » مدخلاً إلى عقيدة وما لم تفض هذه العقيدة إلى حركة .

وتحويل العاطفة إلى عقيدة هو عقبة العقبات ، والانطلاق من العقيدة إلى العمل هو مجال عمل الزعيم ، ومظهر قدرته ، وامتحان لرسالته . والعمل هو أصعب ملهم للزعيم ، وأعظم مشقة .

إن حب الوطن ، هو الأرض البكر ، يدعو إلى أن تشق هذه الأرض ، وتقلب لتستقبل الهواء ، ثم لا بد أن تحرث ليصل الهواء إلى أبعد ما يستطيع ، ثم لا بد من رى وصرف ، ورى وصرف حتى تغسل ، ولا بد . . . ولا بد . . . ثم تلتى البذور مع السهاد والرعاية ، وقد لا يسفر هذا الجهد كله عن



[شئ ما لم يتدارك الله المحصول بعنايته فلا تهلكه الآفات أو تفتك به الحشرات .

كان علي مصطفى كامل أن يسمع المصريين صوتاً — مجرد صوت — يدعوهم إلى التفكير في الاحتلال كمصاب وعار ، وإلى التفكير في الجلاء كواجب وشرف .

وكان عليه ألا يطلب منهم شيئاً ، لا اجتماعاً يؤمونه ولا مالا يدفعونه ، ولا جهداً يبذلونه ، ولا خطراً يتعرضون له ، ولا أسلوب عيش يهجرونه .

عليهم أن يستمعوا إليه فقط ويتابعوه .  
وقد كان .

## الخطوة الأولى

ولكن هذه الخطوة التي تبدو هينة لينة هي أيضاً لها خصائص وشروط ، فليس كل صوت يسمع ، فمن الأصوات ما إن تسمعه الأذن حتى يود السامع أن يطير ، وأن يكون بينه وبين مصدر الصوت بعد المشرقين ومن الأصوات ما يستميل الأذن ويطرب بها .

نشر أولى مقالاته في ١١ من فبراير سنة ١٨٩٣ ، وعمره آنذاك أقل من تسعة عشر عاماً ، وبعد خمسة أيام نشر مقالاً ثانياً في ١٦ فبراير ، وبعد ثمانية أخرى نشر في ٢٤ مقاله الثالث ، وبعد خمسة يوماً مقاله الرابع ، وفي ٤ من أبريل المقال الخامس ، وفي العشرين من الشهر نفسه المقال السادس .

هذا التابع في الكتابة ، وهذه الملاحقة في الحديث ، هي حالة رجل يشعر بأنه يود أن يحقق ثلاثة أمور في آن واحد . أولاً : أن ينصت الناس إليه ، ليعرفوا أن له معهم شأنًا ، فليس هو كاتب مقالات ، بل

هو قارع طبل ، إنه يدق ناقوسًا ، إنه المسحراتي في الليل البهيم .  
وثانيًا ، أنه يودّ أن يتبينوا أن هذه المقالات إطاراً يجمع بينها ، ومعنى  
عاماً يضمها ، فعليهم أن يتبينوه .

وثالثًا ، أن هذه المقالات ليست غاية بذاتها ، فإن لها ما وراءها . . .  
واستمرت المقالات بعد ذلك حتى بلغت أربعة عشر مقالا ،  
ولا نحسب أن أحداً من غير كتاب الصحف المحترفين ، في ذلك الأوان ،  
قد نشر مثل هذه السلسلة من المقالات ، دع عنك صبيًا ناشئًا دون  
العشرين لم يسمع من قبل له صوت ، ولم يقرأ له قول ، ولم يسمع عنه  
نبا .

وإذا كان قد انقطع عن الكتابة قليلا ، فلأنه كان قد سافر ليؤدى  
امتحانًا في الثانى من أغسطس سنة ١٨٩٣ .

أدرك المصريون بأدنى الجهد أن ما نشر لمصطفى كامل ليس سلسلة  
مقالات ، إنما هي ظاهرة جديدة في حياة « مصر » .

ولو عرف المصريون باقى وجوه نشاط مصطفى فى سنة ١٨٩٣ ،  
لأدركوا أنهم ليسوا أمام ظاهرة جديدة فحسب ، بل جريئة أيضًا ،  
فهذا الفيض المتدفق من المقالات التى يكتبها صاحبها فى مصر ، ويرسل  
بها من فرنسا ، وتتناول الخواطر والتحليلات ، ثم تتناول المشاهدات  
ووقائع الرحلات ، قد عززت بلونين من الإنتاج الأدبى ، مغايرين  
تمامًا هذا اللون الحديد من الإنتاج المؤلف نسبيًا ، فقد أخرج كتابًا  
عنوانه « أعجب ما كان فى الرق عند الرومان » . وقد يبدو غريبًا أن  
يتناول هذا الشاب المشتغل بشئون بلده موضوعًا تاريخيًا وقانونيًا ،  
يكاد يكون جانبيًا بالنسبة لانبجاء نشاطه العام ، ولكن هذا الكتيب  
الصغير يدل على صفة أساسية ، عند كل الذين خلقوا ليتحدثوا إلى  
الناس ويوجهوهم ويؤثروا فيهم : تلك هى صفة الميل إلى الإفضاء إلى  
الناس بما توافر لهم من رأى أو حقائق ، فهم لا يختزنون شيئًا إلا بقدر



إنضاجه وتحديدده وهضمه ، فهم كالنحلة التي لا تكف عن امتصاص الرحيق ، لتفرزه في موعده عسلاً ؛ ولقد قرأ مصطفى كامل شيئاً عن الرق عند الرومان ، بدا له طريقاً ومجهولاً ، فلم يطق أن يبقيه عنده فأخرجه وهو واثق أنه سيطرف القراء ، وسيطلعهم على شيء جديد . ولكنه فعل شيئاً آخر أكثر طرافة ، ذلك أنه أخرج لأول مرة في تاريخ مصر ، وفي تاريخ الشرق العربي ، وربما في تاريخ هذه المنطقة من العالم ، مجلة مدرسية . ولولا أنني لم أعن بتحقيق المسألة تاريخياً بلحازلي القول إن مجلة « المدرسة » التي أخرجها مصطفى كامل في الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٩٣ ، كانت أول مجلة مدرسية يصدرها تلميذ من ماله الخاص دون أن تعينه جهة ما كالمدرسة التي ينتمى إليها ، أو الوزارة المشرفة على التربية والتعليم ، أو مؤسسة ما ، أو صحيفة تضم صاحب المجلة وبعض زملائه . ونحن نذكرها هنا لدلالاتها العامة ، لنبين خصائص مصطفى الروحية والعقلية الدالة على تمثله منذ اليوم الأول لواجبات الرسالة التي اختارته العناية الإلهية لأدائها .

### ظاهرة ومظاهرة

أما النشاط الثالث فهو تزعم مصطفى في ٢٠ من يناير سنة ١٨٩٣ مظاهرة تقصد دار جريدة الاحتلال الناطقة بالعربية برأيه ، والمدافعة عن صوابه وخطئه ، والمسوغة لوجوده وبقائه ، أي جريدة المقطم ، ثم إلقاءه خطبة تهيج ، وإثارة ضد هذه الجريدة بمناسبة أزمة إقالة مصطفى فهمي باشا صديق بريطانيا الحميم من رئاسة الوزارة ، وهي الأزمة التي انتهت بتعيين صديق آخر للاحتلال ، هو مصطفى رياض باشا في ١٩ من يناير سنة ١٨٩٣ ، والذي ما كاد يضع نفسه على كرسي الرئاسة حتى قال : « إنني أقبل الآن أخذ رأي حكومة جلالة ملكة بريطانيا في جميع المسائل المصرية الهامة » .

وهذه المظاهرة ظاهرة جديدة أيضاً ، وغير مسبقة في حياة المصريين العامة والسياسية ، وهي في حياة مصطفى ذات ثلاث دلالات - الأولى : أن التعبير عن الرأي عند مصطفى خرج من نطاق الكتابة التي تم في عزلة بعيداً عن الناس ، إلى الرأي المنطوق الموجه إلى الجماهير . الثانية : أن التعبير عن الرأي تجاوز مجرد الإلقاء بالرأي ، وتركه يفعل فعله في الناس ، إلى تجميع الناس وإثارتهم وتوجيههم . الثالثة أنه خرج من نطاق مساهمة الجندی إلى قيادة الزعيم .

وتمتاز سنة ١٨٩٤ بحديث عظيم هو نجاحه في الحصول على شهادة الحقوق من كلية طولوز ، فأصبح يحمل الوثيقة التي تحتل دوراً بارزاً في حياة المصريين منذ علمهم الاحتلال البريطاني أن الوظيفة هي الشهادة المدرسية ، وأن الوظيفة هي الحياة بكل لذائدها ومباهجها ونفوذها : المال والمركز والسلطة . أصبح مصطفى كامل رجلاً كاملاً بحسب المعايير الحكومية الرسمية . وهو لم يشعر بهذا النقص قط بدلالة أنه كتب في أكبر جرائد مصر سلسلة مقالات ، وهو بعد طالب ، ولأنه عقد صلاته بأكبر الشخصيات وهو لم يحصل على هذه الورقة ، ولأنه ألف الكتب وأصدر المجلات ، دون أن تكون تحت يده هذه الوثيقة ، ومن أجل ذلك بذل جهداً مضاعفاً ليلم دراسة عالية في عام واحد ، لا لشدة حرصه على هذه الورقة ، ولا لفرط تقديره لها ، بل لعدم اكتراثه بها نفسها ، فهو يود أن يظفر بها لكيلا تقوم عقبة في وجهه ، ولما حصل عليها قام على الفور بعمل .

كان أول عمل أقدم عليه بعد حصوله على أجازة الحقوق من كلية (طولوز) يعد في حياة السياسة المصرية ثورة ، فقد تحدث إلى جريدة «جازيت دي تولوز» في ٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ ، فأبداء الرأي السياسي في مصر كان عملاً نادراً في تلك المرحلة من حياة الاحتلال البريطاني ، لإبداؤه بخارج مصر ، وبلغة أجنبية ، ومن صهي لم يكذب يبلغ سن



الشباب ، وفي عاصمة لم تكن مطروقة كثيراً من المصريين ، كان كل ذلك ، بشيراً بأن تغييراً هاماً أصاب الحياة العامة في مصر ، وأهم من ذلك أن تكتب جريدة أجنبية نبذة عن هذا الشاب المبتدى وتقدمه لقرائها ، فهذا يعنى الكثير أيضاً ، وكان وحده كفيلاً بأن يشجع غير مصطفى كامل ليحذو حذوه ويقلده و يستمد من نجاحه السريع ثقة بالنفس واطمئناناً إلى المستقبل . ولكن هذا قد تأخر كثيراً ، فالتعويض عن هذا التأخر كان هذا الانفجار العظيم الذى حدث في الحركة الوطنية ، فاتسع نطاقها ، وعلا صوتها ، وتوالت كتابتها أو قل جحافلها .

وقد تميزت سنة ١٨٩٤ بعمل أدبي ، له أيضاً دلالاته الخاصة ، ذلك هو مسرحية « فتح الأندلس » ، التى تم طبعها في ١٧ من ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، فمصطفى كامل لم يكن من رواد المسرح الفرنسى . نعرف ذلك لأنه يسجل تنقلاته ومقابلاته ومشاهداته في رسائله الخاصة ومقالاته وأحاديثه الشفهية ، وقد خلت كل هذه الوثائق من الإشارة إلى اهتمام مصطفى بالمسرح : مشاهدة أو قراءة لآثار الأدباء الفرنسيين المسرحية ؛ فالتفات ذهنه إلى العمل المسرحى ، وسبقه إلى الإنتاج فيه جميع المصريين الذين اشتغلوا به بعد ذلك بهذا اللون من الأدب ، يدل على أنه كان يلقي البذور في كل ناحية ، فيصدر أول مجلة مدرسية ، ويخرج أول مسرحية ، ويلقى أول خطبة سياسية في الخارج ، ويدلى بأول حديث صحفى لسياسى مصرى بلخريدة أجنبية كبرى في أوروبا .

وقد جرت أحداث هذه المسرحية الصغيرة ، حول عصر فتح الأندلس ، ليستمد منها مؤلفها ، نصائح وطنية يوجهها إلى مواطنيه ، فهى عمل سياسى ، ولكن وقوعه على هذا القالب الأدبى الخاص دال على دقة إحساسه ، وحسن فهمه لأثر هذه القوالب المتعددة في إيقاظ النفس وإثارة انتباهها .

وفي السنة الأولى من سنة ١٨٩٥ أضاف مصطفى إلى آثاره المبكرة عملاً جديداً ، هو حديث أجراه مع « الكولونيل بارنج » شقيق اللورد كرومر الذي كان آنذاك معتمد الحكومة البريطانية في مصر . وهو حديث يدل على حدة الحاسة الصحفية ، فقد قابل مصطفى محدثه على سطح الباخرة التي كانا عائدتين عليها معاً إلى الإسكندرية ، وروى مصطفى كيف دار الحديث ، بطريقة حية مليئة بالحركة ، تقل فيها الألفاظ والأصاف ، وتنطلق إلى الغاية انطلاقة مباشرة ، مما يرشح مصطفى للكتابة المسرحية لو توافر عليها وتمت موهبته فيها .

ولقد هاجم في الحديث الموضوع الذي كان أكثر الموضوعات حساسية في عهد نشره ، ذلك هو موضوع العلاقة بين مصر وتركيا والولاء المصري لدولة بني عثمان وما يتضمنه - في رأى الإنجليز وأعوانهم - من نقص في الوطنية المصرية .

وقد حقق هذا الحديث جميع ما كان يستهدفه مصطفى من أعماله الأدبية والصحفية ، ونعني بذلك أن يبعث الكراهية للاحتلال في نفوس المصريين ، وأن ينزع من قلوبهم الخوف من ساططانه ، وأن يقوى الأمل في النجاة منه والخلاص من براثنه .

فقد أظهر لقراء الحديث أن شقيق اللورد كرومر معتمد الاحتلال يصرح بأن احتلال بريطانيا دائم ، في حين أن الساسة الإنجليز أعلنوا مراراً أنه مؤقت وقدموا على ذلك المواقف ، لذلك سأله مصطفى : كيف يعجز بما ينقض عهود هؤلاء المسؤولين ؟ ثم سأله مصطفى أيضاً ماذا أنتم فاعلون أيها الإنجليز إذا فضحت نواياكم وعلم الناس كذبكم ؟ فضحك الإنجليزي ضحكاً عالياً وقال : ما أطيب قلوبكم وأسلم نواياكم أيها المصريون ! أتظنون أن الإنجليز وهم أحق الناس بكل نعمة يجالون عن مصر ، ويتركون لكم أو لغيرها تبرها الغزير ، وخيرها العميم ؟ . . وماذا على رجالنا إذا كانوا حققوا لكم ولأوروبا الاحتلال المؤقت (والجلاء القريب)



ومبدؤهم : الكذب فى خدمة الأوطان جائز ! وهل تصدقون أن أوربا ستنجدكم ؟ ثم أضاف الإنجليزى : على أنى إن وافقتك فقلت إن أورب ستنصركم وتجبرنا على الجلاء ، فذلك لا يكون إلا بعد أن يبيع فلاحكم أرضه ويسوء حاله . وانتقل الحديث إلى الساسة المصريين الذين يعاونون بريطانيا أمثال نوبار فأثنى عليهم ( بارنج ) الإنجليزى ، ورد مصطفى عليه بأن وجود بعض الخونة لا يمنع من وجود الوطنيين الذين يستطيع الواحد منهم أن يحيى أمة كاملة ، وأن صحائف التاريخ تؤيد هذا القول وتثبت . ولقد شككت جرائد الاحتلال فى صحة هذا الحديث ، واعتبره ( المقطم ) ضرباً من التأليف أقام عليه مصطفى كامل ، وقد يكون للخيال نصيب فى هذا الحديث حقاً ، ولكنه خيال مستوحى من الحقيقة ، ولقد كان ضرورياً أن يكون للخيال نصيب فيه ، ليكون أكثر إثارة لمشاعر القراء ، وأقدر على إثبات أن الاحتلال البريطانى ، ليس « غولاً » لا يمكن التحدث مع رجاله ، وأن رجاله ليسوا دائماً فوق الشبهات .

### المحكمة المخصصة

وفى ١٥ من فبراير سنة ١٨٩٥ ، صدر « ديكريته » أى قانون بإنشاء محكمة عرفية ، اسمها المحكمة المخصصة ، اختصاصها أن تحاكم المصريين الذين يهاجمون جيش الاحتلال ، لتحكم بماتشاء من العقوبات ، ولتضع لنفسها الإجراءات التى تختارها ، فهى تحكم وتقضى وتحاكم وتشرع وتقن ، ولا يستأنف حكمها ، وصدر هذا القانون فرصة لا تفلت من يد مصطفى كامل ليثبت للمصريين أسلوب الاحتلال فى حكم مصر ، وطرائقه فى إرهابها ومدى ظلمه وطغيانه ، وقد اختار عنواناً لائقاً بحملته ، فقد وضع على رأس هذا المقال « صواعق الاحتلال » فقال :

تأسست هذه المحكمة على شكل يكفى وحاه لأن يبرهن للعالم بأسره

أن الإجليز لا يعرفون للقانون اسماً . وهل سمعتم يا قوم ، بمحكمة تحكم بما يشاء هواها ، محكمة تحكم بصلم الأذن ، وجدع الأنف ، وسلخ الجلد ، وبالجلد والضرب ؟ هل رأيتم يا قوم في التاريخ أمة تحكم على غير قانون ودستور ، أجيبونا يا معشر المشرعين ، وأسمعونا كلمة الحق أيها المنصفون . . . نعم نعم ، أنتم تريدون أيها المحتلون بهذه المحكمة عقاب كل مصرى أمين يعرف أنكم خصوم بلاده ، وتقصدون بها إهانة الوطنيين بسجنهم السنين الطوال إن لم نقل بإعدام الكثيرين منهم ، وكأن مصطفى كامل كان يتنبأ بمقاله هذا ، فإن هذه المحكمة (الخصوصية) اجتمعت فعلاً في ٢٨ من يولية سنة ١٩٠٦ ، وحكمت بالموت وبالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبالجلد مع السجن ، وبالجلد وحده على نحو ٥٠ من الفلاحين البسطاء ، لا لأنهم اقتحموا معسكراً لبريطانيين بل لأن البريطانيين اقتحموا قرية « دنشواي » الآمنة وجرحوا امرأة فيها وأحرقوا جرناء وروعوا أهلها فكأن مصطفى كامل يقرأ من كتاب مفتوح .

### فرنسا ومصر

وفي مارس سنة ١٨٩٥ دعا مصطفى كامل « ديلونكل » النائب الفرنسي الذي عرف بعدائه لبريطانيا ، وكراهيته لاحتلالها مصر ، وتعبيره عن هذه العداوة وتلك الكراهية في مناقشاته في مجلس النواب الفرنسي ، وفي مقالاته وأحاديثه في صحف فرنسا ودعوة نائب أجنبي إلى مصر لم تكن عملاً ضحكاً في نفسه ولكن دعوة « ديلونكل » إلى مصر في سنة ١٨٩٥ ، كانت كذلك لأكثر من سبب ، فالمصريون كانوا لا يتصلون إلا بحكومة بلادهم ، ولا يترددون إلا على دار المعتمد البريطاني ، يلتمسون عنده العون ويقدمون إليه الشكاوى ، ولا يجرؤون على الاتصال بسواه من الأجانب ، فتمحى هذا الدستور الوضيع ، ودعوة أجنبي غير بريطاني ، ثم دعوة هذا ( ٤ )



الأجنبي ، لاليزور مصر فحسب . لأنه من أصدقائها ، بل لأنه من أعداء الاحتلال البريطاني ، ثم دعوته ليخطب ضد هذا الاحتلال في مصر . وعلى مسمع من ممثلي هذا الاحتلال الكبار ، فهذه هي المعاني التي فعلت فعلها في مصر ، فأنصار مصطفى الذين كانوا يزدادون ببطء رأوا في هذه الحركة خطوة جريئة ، تؤدي إلى التنديد بالاحتلال ، وإثارة الدول عليه ، وقبول نائب مسئول في دولة كبيرة كفرنسا دعوة مصطفى كامل لزيارة مصر وإلقاء الخطب ضد الاحتلال فيها ، معناه أن في هذه الحركة الوطنية عناصر قوة ، وأنها قادرة على أن تستزيد من هذه العناصر . فهذا الاحتلال إذن ليس قوة غير بشرية ، ومحاربتة ليست عملا عقيا ، ولما عاد النائب الفرنسي إلى بلاده في ١٣ من أبريل سنة ١٨٩٥ ، كانت زيارته قد أثرت ثمرتها المرجوة ، فالجرائد والدوائر الوطنية رحبت به وأحسن الترحيب ، والجرائد الاحتلالية غاظمتها ، واستنفدت صبرها ، فخرجت عن حلمها الذي تبظاهر به ، وحملت حملتها الضارية على مصطفى كامل وأعوانه ، وأوهامه في تحريك الاحتلال من مكانه فوق صدر مصر . وكل هذه الضجة ، بالتأييد والمهجوم ، وبالحديث عن موقف الدول الأجنبية من الاحتلال البريطاني ، وعن مدى جدية تأييدها للحركة الوطنية المصرية ، يكسر الحمود الذي كان يسود البلاد قبل مجئ مصطفى كامل ، ويطلق المشاعر من عقالها . ولا شيء أنفع في تأييد الحركة الوطنية من انطلاق المشاعر الحبيسة ، وحرية التعبير عن نفسها . وقد قال مصطفى كامل بالضبط هذا الذي نذكره في خطاب منه إلى أخيه « على فهمي كامل » : « إني أشعر من جهة أخرى بأن البلاد في حاجة لرعوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى تقرب البعيد بما تحدثه في العالم من تأثير ، ولي الأمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة ، فإنه وحده رأس مال محرري الأمم والشعوب ، وبدونه لا يستطيع خادم ، مهما كانت أمانته وقوته ، أن يصل إلى الغرض المرجو » .

وقد جاء تقديم اللوحة المصورة والملاونة إلى الأستاذ « بريسون » رئيس

مجلس النواب الفرنسي في يوم ٤ من يونيو سنة ١٨٩٥ ، صورة أخرى من صور إثارة الاهتمام بالحركة الوطنية في الخارج ، وإثارة المشاعر في مصر . رسمت هذه اللوحة لتمثل الفتاة « ماريان » الرمز التقليدي لفرنسا ، واقفة على منصة ، وإلى جانبها أربعة أشخاص يرمزون إلى الأمم التي أعانت فرنسا على تحريرها ، وهي الولايات المتحدة وإيطاليا واليونان وبلجيكا ، وأمامها شاب مصري يرمز إلى الشباب المصري ، ووراءه شخص يمثلون مختلف الطوائف في مصر . وفي الجانب الآخر فتاة مكبلة بالأغلال ، يحرسها أسد باطش . مدمج بالسلاح يلبس خوذة تزيد وجهه الصارم تجهماً ، وإلى جانبها شيخ تسيل من جرة إلى جانبه مياه متدفقة . أما الفتاة فترمز إلى مصر ، والأسد والحارس القاسي هما بريطانيا وجيش الاحتلال ، أما الشيخ والبحرة فيرمزان إلى النيل ومائه العذب ، وقد كتب مصطفى تحت هذه اللوحة ثلاثة أبيات من الشعر البسيط الساذج :  
حفظها المصريون ، وجرت على كل لسان هي :

أفرنسا يا من رفعت البلايا      عن شعوب تهزها ذكراك  
انصري مصرأ إن مصر بسوء      واحفظي النيل عن مهاوى الهلاك  
وانشري في الوري الحقائق حتى      تجتلي الخير أمة تهواك

وقد ذهب مصطفى كامل ومعه عدد من الشباب المصري الذي كان آنذاك في باريس يطلب العلم أو الاستجمام ، وقدموا إلى سكرتارية مجلس النواب الفرنسي هذه الصورة ، ومعها رسالة كتبها مصطفى بأسلوبه الذي يجمع بين بساطة النثر وسلاسته ، وحلاوة الشعر وعذوبته ، كما يجمع بين الحججة السياسية واللمعة الروحية ، قال :

يا حضرة الرئيس :

إني بأشد أنفعال يخالج القلب تأثيره ، أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذي أنت له نعم الرئيس هذه اللوحة التي تمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعد على استرجاع حريتها واستقلالها .



وأن هذه اللوحة لتمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها  
المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاماً . ولقد برهنت الأمة المصرية  
يا حضرة الرئيس - مع ما يعتورها من المصائب الشديدة - على سكينتها  
وصبر عجبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوربية ؛ ولكن لما اعترها  
النصب جاءت مستغيثة بفرنسا ، هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق  
الإنسان ، والتي سارت منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية ، جاءت الأمة  
المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم ، فهل  
تجيب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل  
مكانتها في العالم الإسلامي الواصل بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما  
تكون حرة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخر  
القليل لها ، فلتحى فرنسا محررة الأمم .

وقد يبدو هذا العمل صغيراً ، بل قد يبدو ساذجاً في نظر بعض الناس  
لا سيما هؤلاء الذين آثروا جانب الاحتلال البريطاني ، والتعاون معه ،  
والاعتماد عليه ، حتى من كان منهم عاقلاً أريباً ، محباً لمصلحة وطنه  
راغباً في تقدمها ، ولكن بما يتفق مع العمل ، وبما لا يصادم الواقع  
القائم . هؤلاء قد يحسبون تقديم ورقة ملونة عليها أبيات من الشعر  
الساذج عبث أطفال ؛ فلا رئيس مجلس النواب الفرنسي يحتفل به ،  
وإن احتفل به فهو لا يملك شيئاً من أمر السياسة في بلاده ، التي تحكمها  
صلات الأحزاب بعضها ببعض ، ومصالح الدول الكبرى ؛ ولكن الواقع  
غير ذلك ، ففي تاريخ الثورات والحركات التحررية تكتسب حركات  
صغيرة ، وتطورات ثانوية ، قيمة كبرى . ولقد ضرب لنا القرآن  
مثلاً إذ جاء في سورة البقرة : « ولا تقولوا راعنا بل قولوا انظرنا » .  
فالمسلمون حينما يوجهون القول إلى النبي عليه السلام يقولون : « انظرنا » ،  
والمشركون يقولون « راعنا » ؛ والقرآن يحتفل بالنص على اللفظين وهما  
مجرد لفظين ، لأن كلا منهما يمثل موقف قائله من رسول الإسلام ،

عليه الصلاة والسلام . وفي الثورات قد يؤثر في اتجاه الأحداث رفع مزقة من قماش في النفوس . فيتخذ الثوار منها علماً ، ويبعث العلم حرارة وشجاعة في القلوب ، فيندفع الناس أقوى نفساً وأثبت جأشاً .

كذلك فعلت هذه اللوحة في الميدان الدولي وفي مصر ، فقد علقنا على تقديمها من جرائد فرنسا العتيدة « الجولوا » فأصبحت موضوع الحديث في كل أنحاء فرنسا ، ولا نخطئ إذا قلنا في كل أنحاء العالم ، فقد قالت جريدة ( الجولوا ) : إن العمل في ذاته جليل . وهو يعد بمثابة تاريخ لظهور الأمة المصرية بمظهر الأمم الحية التي تشعر بكرامتها وأنها لا يصح أن تكون كمية مهملة .

أما جريدة « أكسترا جيلاط » فقد قالت : « الظاهر أن في مصر جمعية كبيرة تعمل لإنقاذ الوطن ، وأن مصطفى كامل موفد من قبلها . وقد كان أول عمل له هو تقديم عريضة لمجلس نواب فرنسا . . » وتختتم قولها بعبارة قالت في ختامها : نهى مصطفى كامل من صميم فؤادنا على عمله هذا ونرجو له التوفيق هو وإخوانه في هذا العمل الوطني العظيم . أما جريدة برلينر تاجبلاط الشهيرة في ألمانيا فقد قالت : « يظهر أن المصريين متألون كثيراً من أعمال الإنجليز في مصر ، وأن توغل الاحتلال الإنجليزي في بلادهم علمهم كيف يكونون رجالاً » .

وقالت جريدة « دي روما » ذات المكانة الرفيعة في إيطاليا كلاماً في هذا المعنى . أما جرائد فرنسا ، فلا تسأل عن سرورها وتبرحيبها بهذه العريضة ، كأنها كسبت معركة ضد الاحتلال البريطاني وضد بريطانيا التي تسابق فرنسا في الحلبة الاستعمارية وتسبقها ، فقد صدر من هذه الصحف ما يشبه غناء جوقة الإنشاد تنافست فيه الطان ، الديبا ، الريبليك فرنسي ، الفيجارو البني جورنال ، السولي ، الإنترفسييجان ، الراديكال ، الفيرتيه ، السيكل ، الماتان ، الباتري ، فرانس ، الليبرتيه .



فقل لي بربك، أى نجاح يمكن أن يطمع فيه سياسى متمرس أكثر من النجاح الذى حققته هذه اللوحة بهذه السطور القليلة . بهذه الأبيات الشعرية الثلاثة : وقد ترددت أصداؤها فى العالم ، وأسقطت عن مصر معرة قبولها الاحتلال واستناعتها له . وأهدرت حجة الإنجليز من أن احتلالهم محل رضاء الشعب . وأنه يحقق للمصريين الأمن بعد الاضطراب ، والتقدم بعد التخلّف بدليل سكوتهم جميعاً على وجوده ، ولكن أهم من هذا كله ما أثارتة أقوال صحف العالم فى مصر . وشعب مصر . فلقد قرأ المصريون ما كتبه صحف العالم عن هذا الصوت الذى انطلق يدافع عنهم فى المحافل ، فأدركوا أنه صوت مسموع وموفق . وأنه بالجهد الضئيل يحقق النجاح الضخم ، دون أن يكابتنهم مليماً ولا جنيهاً ، ودون أن يقتضيهما جهداً ولا نصيباً . زادت الآمال فى نجاح العمل الوطنى ، وقل أنصار الاحتلال ، بقدر ما يتخرج من طلاب المدارس العليا ، وبقدر ما يدخل هذه المدارس والمدارس الثانوية ، فهؤلاء جميعاً كانوا أنصار هذه الحركة الجديدة لأنهم لم يشهدوا عهد إسماعيل ، ولم تصدمهم هزيمة الثورة العربية ، ولأنهم قرأوا شيئاً عن الثورة الفرنسية والثقافة الأدبية الحديثة القائمة على مبادئ ثورة ١٧٨٩ فى باريس .. وهؤلاء كان منهم المحامى والمدرس والقاضى والطبيب والصحنى والموظف فى مختلف الوزارات والمصالح ، فى القاهرة وفى الريف فأذاعوا فى محيطهم ذى الأهمية الكبرى . روح الحركة الجديدة وأحسنوا الحديث عنها ، ودافعوا عن القائم بها ومدحوا صفاته ، وهزأوا بالاحتلالين الذين كانوا يجدون فى الماضى القريب جواً مشجعاً ومرحباً ومؤيداً . وقد أكد نجاح هذا العمل الصغير ما قالت صحف بريطانيا ، وكان قول جريدة ذى ستاندارد نموذجاً له :

« ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعى أنه مصرى : والحقيقة أنه تركى ، وقد كان أبوه موظفياً فى سراى الخديو . قدم هذا المهيج المغرور

استنجداً لفرنسا من الاحتلال ، ونسى ما عليه إنجلترا من القوة والحق في احتلال مصر ، ويظهر أن المصريين ناكروا الحميل لأننا أحسننا إليهم . فعلمناهم بعد أن كانوا أنعاما . ونظمنا جيشهم وأحسننا أحوالهم المالية ، فالرأى العام الإنجليزى لا يلتفت إلى هذا الهذيان الذى يدل على أن يداً كبيرة تحركه ضد إنجلترا صاحبة الحول والطول .

« وإننا ننذر هذا المصرى وغيره إنذاراً أخيراً بأن الدول الأوروبية جميعاً ترى مصلحتها فى بقاء الاحتلال ليضمن لها مصالحها ، لأن المصريين ليسوا أكفء لهذا العمل » .

حقاً إن من يعمل ضد الحرية كمن يعمل لها ، فإن كلمات «الاستناداد الإنجليزى» كرمت به المناضلين ضد الاحتلال ، ورفعت من شأن مصطفى كامل ، وأضفت على خطوته البسيطة جلالاً وهيبه ، فهذه جريدة إنجليزية وقور ، والإنجليز مشهورون بالبرود وضبط النفس ، وبعدم الانفعال والغضب فى المناقشات ، فما بالها خرجت عن تقاليد شعبها وسبت مصطفى وكذبت فى حقه أكاذيب مفضوحة عند كل المصريين ، فمصطفى كامل مصرى تفيض تقاطيع وجهه بالمصرية ، وهو ابن موظف صغير ، وهو آخر الأمر شاب لا حول له ولا طول ، وليس فى جيبه من المال إلا ما يقيته . إذن مصطفى على صغر سنه وحدائه عمله قد أوجع الإنجليز وأطار صوابهم ، فهو بالتالى أهل للتأييد والإعجاب .

أما السطور التى كتبها مصطفى فى رسالته لرئيس مجلس النواب ، فسنعود إليها فى موضع آخر ، ولكننا فى هذا المكان نحب أن نشير إلى هذا التوازن العجيب الذى تتسم به هذه السطور ، فقد عرف كيف يرضى كبرياء فرنسا ، دون أن يسرف فى التواضع ، ففرنسا محرة الأمم ، ولكن تحرير مصر فخار لا تملك دولة أن تهمله فتضيع على نفسها شرفاً . ومصر وإن اعتصمت بالصبر وبعدت عن العنف فإن الصبر ثقل عليها ،



وفي هذا من التهديد البعيد والخفي معاً . ما يحرك اهتمام الدول وإنجلترا بالموقف في مصر ، إذ ينذر بأنه قابل للانفجار إذا طال إهماله . وفي هذا ما يحقق رسالة مصطفى كامل من بعث الحب لمصر والكره للاحتلال وبعث الأمل في إجلاله والخلاص منه .

### ضربة معلم

ولم يمض إلا بضعة أشهر حتى وفق مصطفى إلى ضربة من تلك الضربات التي يسمونها في الفرنسية « coup de maitre » ضربة معلم ، فقد أرسل في ٢ يناير سنة ١٨٩٦ رسالة إلى رئيس وزراء بريطانيا السابق « جلادستون » يسأله عما إذا كان باقياً على موقفه من وجوب جلاء بريطانيا عن مصر وعن تمسكه بالوعد بهذا الجلاء . . . وجلادستون إن كان قد جاهر فعلاً ومراراً بأن مصلحة بلاده كائنة في جلاء جيوشها عن مصر ، وأنه حاول تحقيق هذا الجلاء بالاتفاق مع وزير خارجية فرنسا « وادنجتون » فإنه في الواقع كان حريصاً على هذا الاحتلال ، ولذلك فإن إحراجه واستخلاص تصريح منه ضد الاحتلال أمر ممكن ، فإن تصريحاً منه ضد الاحتلال سيبعث أملاً قوياً في نفوس المصريين ، ويسبب إحراجاً للاحتلال ورجاله في مصر ، فيترك دويماً في محافل السياسة العالمية ، وقد تحقق هذا كله ، ففي ١٤ من يناير سنة ١٨٩٦ أرسل جلادستون السياسي الشيخ العتيد ذو المكانة الرفيعة في بلاده وخارجها إلى الشاب المصر المبتدئ المجهول تقريباً بقول صريح اللفظ :

سيدى العزيز :

إنني أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصرياً ولكنى مجرد من كل سلطة .

« أما آرائى فلم تتغير قط : وهى دائماً أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن عملنا فيها بكل شرف ، ولقائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها .

إن زمن الجلاء على ما أعلم قد واثى منذ سنين .  
ولما كنت فى منصبى أخيراً رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلاً إلى تسوية هذه المسألة المهمة ، والسلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون ( وزير خارجية فرنسا ) فى عام ١٨٩٢ شجع أملى . غير أن المحادثات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك ، ولست أدرى لآى سبب » .

وفى رأى أن هذه الرسالة كانت قفزة بعد لوحة ٤ من يونية سنة ١٨٩٥ المقدمة إلى رئيس مجلس النواب الفرنسى ، والتي أثارت ما أثارت من اهتمام وتعليق ، على ما رأينا . . . . فمصطفى كامل ، المجاهد المصرى . الذى يعمل وحيداً ، والذى لا يمدده شعبه إلا بالحب والعطف والتشجيع . يحصل على شهادة اعتراف به « كسياسى » ذى مركز ومكانة . فهو يخاطب أولاً رئيس وزراء بريطانيا ، وزعيماً من أكبر زعمائها ، ورئيس الحزب الحاكم لسنين فيها ، فمن جرؤ قبله من شيوخ السياسة المؤيدين للاحتلال ، والذين يؤيدهم الاحتلال على فكرة كهذه ؟ فآية ثقة فى النفس يتمتع بها هذا الشاب ؟ .. وقد حدث شئ أكثر أهمية ، فالسياسى البريطانى العجوز رد عليه ، فتأمل أيها المصرى فى هذا وأدرك معناه ، ولا معنى له إلا أن لهذا الشاب قيمة تمثيلية ، أى نيابية عن بلاده ، وهذا أكبر عناصر زعامة زعيم فى أمته .

ومعناه أيضاً أن هذا الشاب يعرف كيف يخطو ، ويعرف أين يضع قدمه ، وأخيراً لقد انتزع هذا التصريح الصريح من سياسى بريطانى ، لا من صحفى غير مسئول ، ولا نائب من الأحرار الذين يوجدون فى كل بلد ، ليوزعوا على الناس الأفكار المتطرفة ، والتصريحات المثيرة ربما



يصلون إلى الحكم ، فيلتزمون واجب الرزاة ، ومقتضيات المسؤولية .  
وأخيراً ماذا قال هذا السياسى البريطانى العظيم عن الاحتلال ؟ لقد قال :  
« فى رأى أن زمن الجلاء قد وافى منذ سنين » .

وهنا يبهت الذى كفر . إذن مصطفى كامل لا يحاول مستحيلاً .  
واتهامه بالطموح مع الخيال هو من قبيل الغيرة منه والكراهة له ، فليس هو  
القائل بأن زمن الجلاء قد وافى ، بل يقوله رئيس وزراء سابق ، وصاحب  
أقلية محترمة ومؤثرة فى مجلس العموم البريطانى ، وقد كان زعيم أغلبية قوية  
وحاكمة لسنين .

وفى سنة ١٨٩٥ ، تكسب رسالة « أخطار الاحتلال البريطانى »  
لمصطفى تأييد صحفية كبيرة وزوجة سياسى جمهورى كبير وصاحبة  
« صالون » أدبى ضخم هى مدام جوليت التى يلتف حولها أعلام الأدب  
والفكر الفرنسى أمثال بيرلوتى الشاعر وإرنست جوديه والكولونيل مارشان .  
فمصطفى إذن لا يسير وحده ، وقد استطاع أن يجند لقضيته أقلاماً  
تقرأ فى بلادها وخارج بلادها ، ومن خلفها من مفكرين وصحفيين  
وساسة . . وكل هذا جهد شاب ، فماذا يحدث لو تحركت الأمة  
كلها ؟ ألا تتحرك مصر ؟

ولما عاد مصطفى إلى مصر ذهب فى ٣ من مارس سنة ١٨٩٦ إلى  
الإسكندرية ليلقى خطبته العذراء فى المسرح العباسى . نعم إنها خطبته  
العذراء ، بل لعلها الخطبة العذراء فى تاريخ الحركة الوطنية ،  
والتاريخ السياسى المصرى الذى لا يذكر لنا أن اجتماعاً سياسياً انعقد فى  
مصر ، بعد الاحتلال ، لسمع المجتمعون فيه كلاماً فى علاقة مصر بالاحتلال  
البريطانى والحملة عليه والدعوة إلى الجلاء ، وقد وصفت جريدة المؤيد  
الحقيقة إذ قالت : إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى  
غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على  
الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاماً . « ولما هم مصطفى بالعودة إلى القاهرة

قدم له أهل الإسكندرية وساماً من النخبة رسم على أحد وجهيه صورة  
السيف المصرى ومسلة الثغر. وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

برهان الإخلاص من أهالى الإسكندرية «

» للوطنى الغيور مصطفى كامل «

وبهذه الهدية وبالتوديع الحار الذى ودع به مصطفى على محطة  
الإسكندرية ثبت لمصطفى أن العنصر الأول من عناصر رسالته قد  
تحقق : « رفض الاحتلال والأمل فى الجلاء » .

فإن الوسام الذى منحته الإسكندرية له كان تعبيراً عن تقدير  
جهاد مصطفى ضد الاحتلال ، وعن السعى من أجل الجلاء .

### من يعمل ضد الحرية يعمل لها

وفى هذه الفترة سلط الإنجليز على شقيق مصطفى كامل الضابط  
« على فهمى كامل » نار اضطهادهم . وقد كان فى سنة ١٨٩٥ فى  
« سواكن » بالسودان ، وكان يتحرق للعمل مع أخيه مصطفى ، وكلما  
نجح مصطفى وعلا صوته ، والتفت المصريون إلى كفاحه ، ضيق الإنجليز  
على أخيه « على » الخناق انتقاماً من مصطفى . فدل هذا على مدى نجاح  
مصطفى . ورأى « على » أن يتخفف من قيود الجيش الذى كان مصرى  
بالاسم وبريطانياً بالروح وفى الواقع ، فقدم استقالته لقيادته فى  
السودان ، فرفض قائد الكتيبة الاستقالة وأمر باستردادها ، فلما استردها  
« على » أحاله الإنجليز إلى الاستبداع فى شهر نوفمبر سنة ١٨٩٥ ، ووصل  
إلى مصر فى ٥ ديسمبر فى السنة نفسها. ولما خطب مصطفى فى الإسكندرية  
ذهب « على » معه ، وحضر الاحتفال ، فطار صواب الإنجليز كل  
مطار ، فاتهمه الإنجليز أنه قدم استقالته وقت الحرب ، لأن بريطانيا كانت  
تعد آنذاك العدة لإيفاد حملة إلى دنقلة لاستردادها بعد إجلاء الجيش  
المصرى عن السودان سنة ١٨٨٤ ، وقدموه إلى المحاكمة أمام مجلس عسكرى



برئاسة « كتشير » نفسه قائد الجيش ، وحكموا عليه بتنزيله إلى درجة « نفر » وأرسلوه مكبلاً بالحديد إلى السجن ، ثم نقلوه إلى السودان ليشارك في الحرب في واقعتي « فاركة » و « الحفير » وهو جندي بسيط ، فهيأوا له فرصة القتال مع إخوانه جنود مصر .

وكانت هذه الواقعة عظيمة الدلالة على مدى النجاح الذي حققته حركة مصطفى التي لم يكن قد انقضى على بدئها سوى سنتين اثنتين ، إذ بدأ نشر أولى مقالاته في فبراير سنة ١٨٩٣ ، وكان اضطهاد شقيقه في صيف سنة ١٨٩٥ . . وقد نقل الإنجليز بهذا الاضطهاد الصارخ إلى الجيش بذور الغضب القومي ، وأذاعوا اسم مصطفى بين الضباط والجنود . . وزاد من عطف المصريين على مصطفى وعلى أخيه ، فإن الشعور دائماً هو زاد الحركة ، كما قال مصطفى بحق .

ولما خطب مصطفى في ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ، وفي مدينة الإسكندرية أيضاً ، كانت خطبته هذه المرة بالفرنسية ، وقد حضرها الأجانب من صحفيين وأعيان الجاليات الأجنبية ، وكان التكلم بلغة أجنبية في مصر ، في ذلك الحين ، شهادة للمتكلم بأنه متعلم ومستنير ، لعظم مكانة الأجانب في مصر وتملكهم العقارات والمصارف والشركات ولشموهم بالرعاية من جانب الاحتلال ، فلما خطب مصطفى بالفرنسية ثم جاءت خطبته في الوطن وحق مصر في الاستقلال ، زادت ثقة الشعب في الزعيم الشاب ، وأدركوا أنه كفء للمهمة التي ندب نفسه لأدائها ، فلما جمع خطبه في سنة ١٨٩٥ - ١٨٩٦ وطبعها راجت رواجاً كبيراً ، فطبع منها وبيع نحو ١٥ ألف نسخة ، وكان ذلك الرقم آنذاك كبيراً ، وجنى منها مصطفى ربحاً مادياً لا بأس به ، أسعد المكافح الشاب ، لأنه كان دليلاً ملموساً على أن صليته بالشعب قد انعقدت وتوثقت ، وعرف كل منهما صاحبه ، فالإعجاب اللساني شائع وذائع في البلاد المنكوبة بحكم الأجانب ، أما الإعجاب المصحب بالحركة والذي يحمل الإنسان على أن يسعى لاقتناء

كتاب الزعيم ، ويدفع فيه ثمناً ، هذا الإعجاب الذي تجسد عملاً ظاهراً  
كأي قليل الحدوث .

ولسنا نود بطبيعة الحال أن نتابع نشاط مصطفى كامل الدعائي  
والسياسي ، عملاً عملاً ، ورحلة رحلة ، وخطبة خطبة ، ولكننا نود أن  
نستخرج من هذا النشاط الواسع النطاق المتنوع المستمر المتجدد ،  
معالمه الكبرى ، وذلك لا بد أن نمر على ما صدر من نشاط مصطفى  
سني ١٨٩٦ و ١٨٩٧ على احتشاد الأعمال والخطب والاتصالات  
والأسفار فيهما . ونقف قليلاً أمام سنة ١٨٩٨ المعروفة بسنة « فاشودة » ،  
ونحن نمنح هذه السنة التفاتاً خاصاً إذ كانت من السنين العجاف التي  
امتحننت خلالها الحركة الوطنية امتحاناً قاسياً ، فقد حدثت واقعة فاشودة  
التي انسحبت فيها السياسة الفرنسية أمام السياسة الإنجليزية في أعالي  
السودان ، ولم تقو على مناجزة الإنجليز ، ولم يتحقق ما أمله الوطنيون  
من فتح ماف قضية وادي النيل ، وتزاحم القوى الاستعمارية وتطاحنها  
حوله مما يؤدي إلى الضغط على بريطانيا لحملها على الجلاء باعتبار أن  
الاحتلال البريطاني ضربة قاصمة لمصالح هذه الدول يهددها فعلاً ويزداد  
خطره على مر الأيام .

وإنزعيم ليس هو الموقف للهمم والداعي إلى القتال فحسب ، بل هو  
المثبت للعزائم عند الهزائم ، فالتخلف عن التزول إلى ميدان القتال ، عند  
الوقت المناسب ، كارثة للأمة ؛ ولكن الكارثة تستفحل وتشتد إذا نزلت  
الأمة إلى القتال وهزمت ، فخارت عزيمتها وضعف احتمالها ، وآثرت الفرار  
على مواصلة القتال ، ولذلك كان فرح خصوم الحركة الوطنية المصرية  
وأعداء مصطفى عظيماً بحادثة فاشودة ، فظنوا أن صوته سينخفض وعزمه  
سيفتر وأنصاره سينفضون من حوله حينما يثبت لهم أن فرنسا التي أوهمتهم  
أنها جديرة بمنازلة الإنجليز وبالضغط عليها ليركوا مصر أضعف من أن  
تحقق مما ادعته شيئاً ، لقد ثبت مصطفى كامل ثباتاً قوياً وضاعف قواه ،



ووسع من نطاق نشاطه ، وقد عبر عن هذه المعاني كلها ، إذ خطب في ٢٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٨ ، في « التياترو الإيطالي » في الأزبكية بالقاهرة ، وقد قال في هذه الخطبة قوله التي أصبحت شعاراً للوطنية المصرية وعلماً على جهاده إذ قال : « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس من الحياة ». لقد حمل على الاستسلام في هذه الخطبة حملة ضارية ، لأن الميل السائد وقتذاك هو الميل إلى الاستسلام أمام انتصارات الاحتلال وهزائم الوطنيين ، فقال : هل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهي جنة الأرض وأبدع البلدان ؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون ؟

لقد بالغنا في الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع ، وما جئنا إلا الخيبة والفضيحة والعار ؟ » .

ثم قال : « وإذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لا له ، فيقول : « لقد أصاب الخطيب ، ولكن الأمة ميتة ، فمن هي الأمة ؟ ألسم من أعضائها وأهم أعضائها ، أو ليست الأمة هي الفرد متكرراً ، فإذا قام كل واحد بواجباته ، وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع ، وردت على الأمة حريتها وسعادتها ، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة » .

جملة القول أن مصطفى بدا وقت المحنة والانكسار واثقاً من نفسه ، واثقاً من المستقبل ، داعياً إلى تجديد القوى ، وتقوية العزم ، فاشتعلت من قلبه الكبير قوة تدفقت إلى شرايين أعوانه وأنصاره .

وبلغ من قوة هذه الخطبة وقوة أثرها ، أن بعض صحف الاحتلال الصادرة باللغة الفرنسية كما قلنا آنفاً قد اتهمت مصطفى بأنه يدبر مع طلاب المدارس العليا ثورة ضد النظام . والحق أن الوقوف في وجه روح الهزيمة كانت ثورة ضد النظام ، ذلك لأن النظام البريطاني ذا الوجه المصري كان قائماً

على تثبيت اليأس في قلوب المصريين وتخديرهم بحيث يفرحون بالقليل الذي يجود به هذا « النظام » من مدارس تفتح ، وجسور تشاد ، وإصلاحات في الري تجرى . وقد نجحوا أول الأمر في هذه العملية القاتلة ، وما لبث المصريون ، أو أكثرهم ، أو قل الجيل الجديد منهم ، أن يدرك أن كل ما تفعله بريطانيا في عشرة أعوام من هذا القليل كان يجري أضعافه حتى في عهد مضطرب كعهد إسماعيل في عام واحد .

### مدرسة ومصحف

وفي مارس ١٨٩٨ أنشأ مصطفى كامل المدرسة المسماة باسمه ، أو تولى إدارتها ، وقد كانت نموذجاً للمدرسة الوطنية مع قلة موارد مصطفى المالية وكثرة أعبائه ، وتعدد أسفاره وانشغال باله بمكاييد السياسة المقامة في طريقه من الإنجليز وأعوانهم دائماً ومن الحديو أحياناً ، ومن ضعف إخوانه وأنصاره أحياناً أخرى ، فإذا كانت سنة ١٩٠٠ ، وكان الثالث من يناير ظهر « اللاواء » اليومي . لواء الحركة الوطنية التي تكسب كل يوم مزيداً من القوة والعزم وحسن التنظيم . وإصدار جريدة يومية في تلك الأيام في مصر كما هو الحال في بريطانيا أو الولايات المتحدة ، عمل شاق ومرهق ، ومكلف . إن جريدة يومية في أمريكا تحتاج حسب تقرير لجنة من بلجان الكونجرس الأمريكي من مليونين إلى ثلاثة ملايين دولار ، وفي إنجلترا حسب تقرير إحدى اللجان الملكية تحتاج إلى نصف مليون جنيه ، وإلى جانب المال هناك الحاجة إلى جهد وسهر ، وعمل وتنظيم وإشراف . الجريدة مصنع ومتجر ومعهد ، والجريدة مال وإدارة واتصال متعدد الأساليب ومتنوع الغايات ، ولذلك لم يستطع حزب في مصر أن يملك جريدة يومية ناجحة بعد جريدة اللاواء . فأكبر الأحزاب في مصر ، عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعد أن زاد عدد المتعلمين ، وتضاعف اهتمام



المصريين بالشئون العامة ، لم يستطع أن يملك جريدة ناجحة يديرها وينفق عليها ، والجرائد الحزبية الأخرى بقيت مزدهرة حيناً ، ثم استسرت تكافح حيناً آخر بفضل ثراء رئيس الحزب وثراء كبار أعضائه ، ثم خرجت من عداد الصحف اليومية الكبيرة .

لذلك كان صدور جريدة اللواء عملاً سياسياً ووطنياً عظيماً آنس المصريين وأسعدهم ، إذ كان مصطفى كامل يطالعهم عن طريقها كل يوم بمقال في شئونهم العامة ، ثم عرفوا عن طريقها عدداً من أحسن الأقلام المصرية والعربية ، قدرة وعلماً وصلابة . أصبحت اللواء قلعة من أكبر قلاع الوطنية ، واستظل بها المصريون ، فقوت صفوفهم ، وثبتت عقائدهم ، وعلمت أجيالاً جديدة كان يمكن أن تسقط في أيدي دعاة الاحتلال ، أو دعاة المهادنة والاعتدال ، وحضرت الشعب لأدوار من الجهاد السياسى والاجتماعى العلنى والسرى ، العملى والقانونى ، فى مصر وفى الخارج ، فكان من ثمار هذا التحضير العمل الجاد الذى تم بزعمامة محمد فريد ، والثورة التى فاجأت الناس فى مصر وفى خارجها سنة ١٩١٩ ، فإذا جاءت سنة ١٩٠٦ ووقعت حادثة « دنشواى » ، التى فقد فيها الإنجليز عقلهم ، وأعدموا أربعة من الفلاحين المصريين ، وحكموا بالأشغال الشاقة على واحد وبالأشغال الشاقة المؤقتة على ثلاثة ، وحكموا على أكثر من عشرة بالجلد ، كل ذلك مقابل وفاة ضابط من جرح بسيط فى رأسه ، ضاعف أثره عدوه فى الشمس المحرقة ستة كيلومترات من الخوف والعطش .

## دانشوای فی ید مصطفی وقلامه

ولقد استطاع مصطفی کامل بأساوبه ووثابرته ونشاطه ، أن يظهر هذا العمل فی حجم یزید علی حجمه كثيراً ، وبصورة أفزعت الرأى العام العالمی ، وأربکت الرأى العام البريطانى ، وأشعرت المصریین أن زعیمهم وضع الاحتلال البريطانى فی قفص الاتهام ، ووقف أمامه یندد به ، ویکیل له الضربات ، ویصفه بأقبح النعوت ؛ مع أن ما کان ینجرى کل یوم فی بلد عربی ، کالجزائر ، أو بلد شرقی کالهند ، دع عنک ما ینجرى فی مستعمرات إفريقيا السوداء الشرقية والغربية علی السواء یزید أضعافاً مضاعفة علی حادثة دانشوای ، وقد ظهر هذا جلیا عند ما رفع الستار عن فظائع الاستعمار الفرنسى فی الجزائر ، فقد حدثنا الفرنسيون الأحرار عن فظائع حرق قرى بأسرها ، بأسلوب عرف باسم « الجحیم » ، وانتهاک حرمت المساجد ، وإبادة المزارع ، وسم المواشى ، کما حدثنا حوادث « البنجاب » الی وقعت فی ثورة الهند عقب الحرب العالمیة الأولى عن فظیعة « أمر تسار » ، وهی حادثة إذا قورنت بها حادثة دانشوای بدت لطفاً ورحمة وإنسانیة ؛ ولكن مصطفی کامل أتیح له أن ینخطب من منابر تسمع ، وأن یناطب الضمیر العالمی بكلام یقرأ ، وأن یواصل حملته بحماسة وهمة تؤثران وتکسبان العطف ، وقد کان الأثر الأول لهذه الحملة الناجحة أن ما کان یقال عن انفصال الریف عن القاهرة وعن اقتصار حركة مصطفی کامل علی المدن الکبرى وحدها سقط نهائیا ، فاسم مصطفی کامل کان علی لسان الفلاحین المصریین فی قراهم وعلی مصاطبهم قبل حادثة دانشوای ، فجاءت هذه الحادثة مجرد تأکید للعلاقة والارتباط بین الزعم الشاب وأهله فی القرى وعلی شطوط الترع والمساقى وفوق النوارج والمخاریث . فقد انطلق الشعر الشعبى ینظم أزجالاً ومواویل ینکی فیها



ضحايا دنشواى ويشيد بمصطفى باشا « ووجفاته » أى « وقفاته » ، وكانت  
حادثة دنشواى مظاهره وطنية من الطراز الأول حضرت للمظاهرة التى  
تليها ، وهى مظاهره تشييع جنازة مصطفى كامل نفسه ، وفلاحو دنشواى  
يحملون نعشه ، وألوف المصريين يقفون على جانبي الطريق ، وفوق أسطح  
المنازل وفى النوافذ والشرفات متشحون بالسواد ، فى حزن مصحوب بالعزم  
والإصرار ، قاماتهم مشدودة وعيونهم لامعة وصرير أسنانهم يسمع :

### إلهام الحب

وبهذا يكون القسم الأول من الرسالة قد أدى على أحسن وجه .  
أما جانب إثارة حب مصر فى القلوب ، الحب الفعال المنتج المؤثر ،  
حب التضحية والبذل وإنكار الذات ومجاهدة الخصوم والإيمان بالمرأى  
والمحاسن ، فقد أدى كما لم تؤد رسالة وطنية فى تاريخ سابق أو لاحق .

ذلك لأن مصر بتاريخها الطويل ، وما شهدته من حضارات ورسالات  
وأنبياء وقادة ، وما مر بها من أحداث رائعة ومواقف فذة ، تلهم الحب  
والإعجاب والتقديس للملايين ممن لا ينتمون إليها بالدم والمولد ، فما بالك  
بواحد من أبنائها ، وهبه الله إحساساً غاية فى القوة والنفاد ، وعاصفة لا ينفد  
لها انتقاد ولا تنطفئ لها جذوة ، وخيال فسيح مترامى الآفاق . لذلك أتيح  
لمصطفى كامل أن يقول فى مصر ، وفى حبها وفى أعجابه وعظمتها ومزايا  
موقعها وجلال تاريخها ، ما لم يقله شاعر بالعربية أو بأية لغة أخرى فى  
شئ أو شخص ملك على القائل لبه وعواطفه . وقد صاحب هذا الحب  
مصطفى منذ صباه وعبر عن نفسه فى كل ما خطه قلمه أو نطق به لسانه .  
ولعلنا محتاجون أن نعود إلى رسالته الأولى إلى مدام جوليت آدم التى  
أرسلها لها فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ فقد كانت قصيدة من الشعر ،  
إذ قال :

« إنى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالاً كباراً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، وهم يقولون إن وطنى لا وجود له . وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفنديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفماً عليه . »

انظر إليه يقول إن الناس تنكر أن لوطنه وجوداً . يقولون له إن مصر أصبحت عدماً ، إن هذه المعابد والهياكل ، والأهرامات والمساجد ، وما طوته صحائف الكتب من أنباء عظمة ماضيها كلها أشباح تبدو على حائط ، ولكنها لا تمثل من الحقيقة قليلاً أو كثيراً ، كل ذلك أصبح ماضياً ، ماضياً مندثراً ، وليس لدى مصطفى كامل إلا حجة واحدة ، تثبت بطلان كل ذلك ، تلك هى محبته التى لا نهاية لها لمصر ، وما دام يحبها فهى موجودة ، فليس ثمة قوة أعظم من الحب ، يخلق من العدم ، ولا يصدق المشككين ، ولا يتأثر بدعاوى الخصوم الكارهين .

وبهذا الحب مضى مصطفى يحارب كل أعدائه وأعداء بلاده . وبه وفى ضوئه بذر فى قلوب شعب فى بذور حبها والهيام بها والفناء فيها . وقد تحدث هو نفسه عن هذا الحب فقال إن روحى تتغذى من حب الوطن ، وبغيره لا أستطيع الحياة ، إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه وبخاصة فى الشقاء ، إذ لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب . ومن هذا الحب ، استوحى هذه الكلمات التى جرت على الألسن فى حياته وبعد مماته أغانى وأناشيد :

« بلادى بلادى ، لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمي ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبي وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر . »

« هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر مهما أحبها فلا يبلغ



الدرجة التي يدعو إلى جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها ، ألا أيها اللاثمون انظروها وتأملوها وطوفوا فيها ، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأنًا ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وأن شعباً يسكنها ويتوارثها أكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمته للأجنبي .

إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة وكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة ، ولا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب مبهوتاً أمام من يعرفونه .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان ، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم في كافة العلوم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربي العالم كله ؟ » .

« لو تخططنا الموت من هذه الديار ، واحداً بعد واحد ، لكانت كلماتنا لمن بعدنا ، كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، وليجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بحق الوطن في الحرية والاستقلال المقدس » .

ولما كان حب مصطفى كامل حباً صادقاً فقد أحب من أجل مصر كل العاملين في سبيلها ، الأموات والأحياء ، عمل على إحياء ذكرى من ماتوا ، والأنخذ بيد الذين على قيد الحياة ، ولم يفرط في حق أحد من النابيين ، ولو لم يكن من اتباعه ولا من أنصار حزبه .

أنت ذكرى على باشا مبارك ، فكتب مصطفى كامل في عدد ١٠ من مارس سنة ١٩٠١ باللواء :

« لا شيء يرفع مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها ، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها ، ولا شيء يميز الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في أمة وجهلها تاريخها ، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها : وقد بليت هذه الأمة العزيزة بذلك الداء العضال ، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها . أو المحركين لحركة الرأي العام فيها ، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها . فليس للمصائب في نفوس أبنائها أثر يبقى وليس كذلك للعظمة الباقية في الأفتدة والضمائر » .

وتحدث عن اللجنة التي أنشئت لتخلد ذكرى على مبارك والتي جمعت بعض المال لهذا الغرض فقال :

« ماذا قررت اللجنة المكلفة إخراجه إلى الوجود ؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف ؟ أم نحت الأيام فضله ، وقضت على عمله حتى نسي ونسيت آثاره ؟ » .

ودعى للاحتفال بافتتاح مدرسة المرحوم مصطفى بك الشوربجي الحجازية في بلدة « بریم » بمحافظة البحيرة فقال :

« قال القائلون وردد المرددون : إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا ، وسرت هذه الكلمة في الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير ، وشرحها فلاسفة السوء ، واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة ، يتساءلون إلى المجد والارتقاء سائرة أم إلى الموت والفناء هاوية ؟

« فأجيبهم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً ، أجيبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية ، وجمعية المساعي المشكورة في المنوفية ، والجمعية الخيرية الإسلامية في أنحاء



القطر ، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية وعزائم صادقة .

ويلاحظ أنه لم يكن لمصطفى كامل يد فى إنشاء هذه الجمعيات التى ذكرها ، وأن بعض المشرفين على واحدة منها على الأقل كانوا خصوصاً سياسيين له ، ولكن ذلك كله لم يمنعه من أن يثنى عليها ، ويتخذ من وجودها وقيامها دليلاً على قيام روح الاتحاد والتعاون بين المصريين على عكس ما يروج خصومهم ، وقد جرت عادة الزعماء فى كل زمان ومكان — إلا ما كان استثناء لا يقاس عليه — أن يحاربوا أو على الأقل يتجاهلوا الأعمال التى تمت بعيداً عنهم ، وعلى غير يد أنصارهم وأتباعهم . وإن كانت مجيدة وعظيمة ، وقد تجاهلت بعض الأحزاب بنك مصر طويلاً ، وكانت تودع أموالها فى المصارف الأجنبية ، لأن طلعت حرب الداعى إلى البنك ومنشئته لم يكن يبدى لزعمائها من الولاء القادر الذى يرضى تلك الأحزاب .

وكما دعى مصطفى كامل للاحتفال بذكرى على مبارك ، وكما أشاد بعمل مصطفى بك الشورى الذى أنشأ مدرسة مجانية ابتدائية فى قريته ، دعى للاحتفال بذكرى محمد على ، بمناسبة مضى مائة عام على توليه عرش مصر ، واتخذ من هذه الذكرى مناسبة يذكر فيها المصريين بالأمجاد المدنية والعسكرية التى تمت فى هذا العهد التى تدل على حيويتهم ، وعلى استعدادهم العقلى والروحى للتقدم والعطاء الحضارى . وقد بدأ حملته للاحتفال بهذه الذكرى بمقال فى « اللواء » يوم ٣ من فبراير سنة ١٩٠١ فقال : خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور ، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة ، وارتقاؤها فى سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة أجلسها على العرش بإرادتها . . ثم قال فليتفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافاً بفضل محييا ، وإجلالا للوطن نفسه الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى ، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر :

وفي ٢١ من مايو سنة ١٩٠٢ أقام مصطفى كامل احتفالا بمسرح زيزنيا بالإسكندرية ألقى فيه خطاباً من خطبه الباقية ، كان من أهم ما جاء فيها :

« وأين كانت اليابان يومئذ ، في عهد نهضة مصر في بداية القرن التاسع عشر ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة ؟ كانت في دياجى الظلمات ، وغياهب الجهل بعد أن ذكرت في عداد الأموات ، فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ . وارقب الحوادث ، وانظر إلى أى حال صارت اليابان ، وإلى أى حال صرنا . وماذا كنا نبلغ من الشأو والشأن لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير » .

والمقارنة التى عقدها مصطفى كامل بين مصر في أول القرن التاسع عشر وبين اليابان لفترة ذهنية بارعة . فالمصريون كانوا شديدي الإعجاب باليابان في تلك الأيام ، وكان تقدمها الحضارى ، وتزايد قوتها الحربية والبحرية ، وحساب الدول العظمى لها أعظم حساب يزيد إعجابهم ، ولا شك أنه مما كان يقوى الأمل عند المصريين في إمكان العودة إلى القوة التى تمتعت بها بلادهم في السنين الأولى من القرن التاسع عشر أن يكونوا قد سبقوا اليابان إلى الحضارة وإلى القوة العسكرية فى البر والبحر ، فإنها شرقية مثلهم ، كانت آنذاك آية فى التخلف والضعف والانزواء بين الدول ، وبالجملة هو لا يضيع فرصة مقارنة أو ذكرى أو عبور حادث أو موت عظيم أو وقوع كارثة أو تحقق انتصار ، إلا واتخذ من ذلك كله المناسبة ، ليشير فى قلوب المصريين الإعجاب بوطنهم ، والأمل فى مستقبله وتقديمه على سواه من الأمم والشعوب حتى التى سبقته فى الأيام الأخيرة إلى مكان الصدارة ، لا لعب فيه ، وإنما لتقاعس أبنائه ، وتباطؤهم وتكاسلهم فى أداء الواجب نحوه .

ولقد كان لا يضيع فرصة الثناء على مصرى حقق أى نجاح فى أى مضمار أو مجال ، أو أظهر كفاءة ، أو حل محل أجنبي إلا وأظهرها ،



ولو كانت صلته بهذا المصري ضعيفة أو مقطوعة ، أو كان من غير المطبوعين بطبعه ، والمتأثرين بمنهجه ، من ذلك ما كتبه عن طلعت حرب ، فقد قرظ كتابه في « تربية المرأة » في ١٠ من يناير سنة ١٩٠٠ ولما عين مديراً لشركة العقارات المصرية وشركة امبو خلفاً ليهودي مصري هو عاداه بك كتب عنه في ١٠ من يوليو سنة ١٩٠٥ قال :

« من الأشياء التي تسر كل مصري ، يحب بلاده ، وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهداً على كفاءة المصري في الأعمال الجسيمة وتقدير الأوربيين له حق قدره ، فإن حضرة المقدام العامل محمد طلعت حرب بك مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاً هو أول مصري تقدمه اليوم للقراء انتخب مديراً لشركتين عظيمتين هما شركة العقارات المصرية وشركة كوم امبو ، خلفاً لحضرة عاداه بك مديرها السابق ، وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين ومؤسسيهما هم من كبار المالين المعدودين كالمسبو إرنست كاسل ، والمسيو سوارس وشركائه ، لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصري الجليل عظيمة ، كما لا شك أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقي والفلاح بما أوتيته حضرة مديرها الجديد من سمو الإدراك وسعة الإطلاع في المسائل المالية ، فنبهى الشركتين ، ونسأل العلي القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله » .

وموقف مصطفى كامل من سعد زغلول وأخيه فتحي زغلول مثل آخر على ما يضمه لكل مصري يبشر بكفاءة جديدة أو بظهور شخصية ناجحة ، من الحب والتقدير والرغبة في الإشادة والتشجيع والثناء بقامه ولسانه وعواطفه ، فإذا خاب الأمل ، لم يردد في إظهار أسفه وحزنه لهذا الأمل الضائع دون أن يخرجه تناء سابق أو تشجيع معلن .

لما أصدر فتحي زغلول ، وكان رئيساً لمحكمة مصر ، كتابه « الحمامة » سنة ١٩٠٠ ، وكانت اللاء في عامها الأول ، أسرع مصطفى كامل واستقبل هذا الكتاب بترحاب فيه حرارة ، وفيه كرم وسخاء ، ذلك لأن

حركة التأليف في مصر كانت في عهد طفولتها ، لذلك كانت في حاجة إلى من يأخذ بيدها ، وإلى روح من السباحة تبعث في القارئ بها ثقة وثباتاً ، وكان كتاب « المحاماة » عملاً يجمع بين طرافة الأدب ، وروح القانون ، فحق على مصطفى محي كل حركة ونهضة وخطوة جديدة أن يعلن على الناس قيمتها . ولكن فتحى زغلول في سنة ١٩٠٦ كتب بخط يده حكم دنشواى الدامى ، فأنزل عليه الوطنيون وفي مقدمتهم مصطفى كامل غضبهم وسخطهم ، حتى قيل إنه حين لقيه في منزل أخيه سعد زغلول ، رفض أن يصافحه ، كما رفض شوقي الشاعر أن يحضر حفلة تكريم له ، وأرسل إلى لجنة التكريم بأربعة أبيات يقول فيها :

إذا ما جمعتم أمركم وهمتمو      بتقديم شيء للوكيل ثمين  
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة      وسروال مجلود وقيد سجين  
لا تقرأوا شعري عليه فحسبه      من الشعر حكم خطه يمين  
ولا تنشروه في شبرد بل انشروا      على ملا في دنشواى حزين

وتقول مدام جوليت آدم في كتابها « إنجلترا في مصر » : إن مصطفى كامل حينما زار لندن سنة ١٩٠٦ ، وسعى السير كامبل باترمان رئيس الوزراء البريطانى أن يقابله ، وتمت المقابلة في مقر رئيس الوزراء الرسمى ١٠ دواننج ستريت ، عرض رئيس الوزراء البريطانى على مصطفى كامل أن يؤلف وزارة ممن يثق فيهم من الوطنيين : وتقول مدام جوليت في هذا الصدد :

« إن سير كامبل باترمان رئيس الوزارة البريطانية طلب مقابلة مصطفى كامل ، بعد أن قرأ خطبته التى ألقاها في فندق كارلتون بلندن وتمت المقابلة بين الرجلين في داوننج ستريت . وقد قال الزعيم الشاب خلالها للرئيس البريطانى ، أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم في مصر من شرف إنجلترا بتلويثهم للعدالة :



« ولكن الرئيس البريطاني قال استناداً إلى ادعاءات اللورد كرومر إنه لا يظن أن في مصر رجالاً يستطيعون إدارة البلاد ، فرد عليه مصطفى : « اسمح لي أن أقول بأن اللورد كرومر كان يصرف الأمور في البلاد لصالح إنجلترا وحدها ، وإنه يحكم مصر منذ ١١ سنة بمساعدة وزارة مصطفى فهمى باشا صديق إنجلترا ، وهذه الوزارة مكروهة من المصريين المخلصين لوطنهم والعدالة . فقال له الرئيس : « هل تقبل أن تؤلف وزارة بمعرفتك ؟ » فرد عليه مصطفى كامل على الفور : « إن وطنيتي تفرض على رفض كل مركز في الحكومة مادام ظل الاحتلال قائماً في البلاد » .

وفي ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ عين سعد زغلول وزيراً للمعارف ، فكتب مصطفى إلى مدام جوليت يقول : يلوح لي أن سير باترمان كان مخلصاً في حديثه معي بشأن استقلال مصر . إن سعد زغلول من ألمع مستشاري محكمة الاستئناف . ولقد وضعت اسمه في القائمة التي سلمتها لسير « باترمان » . ولديك نسخة منها ، فاختر اللورد كرومر لسعد زغلول من بين الاثنين وثلاثين اسماً التي ذكرتها ، ربما يكون القصد منه الأمل في ضم سعد زغلول إلى سياسته . إذ أنه متزوج من ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمى . والمستقبل كفيل بالحكم على بما إذا كنت قد قمت بالواجب . . . »

فكل الأمور كانت تدعو مصطفى كامل أن يغمض العين عن السياسة وتعيين سعد زغلول وزيراً ، فقد كان يحس أنه مسئول عن هذا التعيين ، فضلاً عن أنه قدم سعد زغلول إلى قراء اللواء عند تعيينه مؤيداً ومهتماً . ولكن مصطفى لم يتخرج من مهاجمة سعد زغلول خصوصاً بعد تصريحه الذي ألقى به أمام الجمعية العمومية في مارس سنة ١٩٠٧ . الذي حاول أن يبرر فيه تعليم جميع المواد في المدارس المصرية باللغة الإنجليزية والذي قال فيه .

« إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبته أو اتباعها

لشهورها . ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصاحبة الأمة . لأننا إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية . وشرعنا فيه فعلاً ، فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستان والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة . الحق أنه لم يكن ممكناً السكوت لا من مصطفى كامل ولا ممن هو أقل منه حباً لمصر ، أو تطرفاً في إبداء مشاعره والتعبير عن آرائه ، على هذا المنطق المقلوب ، فبدل أن يكون مطلب الوزير استعمال اللغة العربية لغة البلاد في جميع مصالح الحكومة بما فيها الجمارك . كما هي الحال في بلاد الدنيا قاطبة ، يضحى بلغة البلاد وبعنصر من أخطر عناصر قوميتها من أجل عدد من الوظائف مهما كثر فهو بالنسبة لمجموع وظائف الدولة صغير وتافه . على أن وظائف هذه المصالح ، مع فرض اللغة الإنجليزية ، على التعليم في مصر ، كانت وفقاً على الأجانب والتمصريين ، لا لأن هؤلاء يتقنون اللغات الأجنبية بل لأن هذه الوظائف ذات أهمية سياسية لدى الاحتلال ، فلا تثق فيمن يشغلها إلا إذا كان أجنبياً لا يحمل ولاء لمصر ، ولا يعرف الحرص على مصالحها . لذلك قال مصطفى في ٩ من مارس سنة ١٩٠٧ في اللواء الفرنسي : « إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كان يفهمون من قبل ، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة ( مصطفى فهمي باشا ) الأمين على وصاياه والخادم لسياسته ، وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطني » .

فمصطفى كامل يحب أعظم الحب من أجل مصر ، ويكره أعظم الكره من أجلها ، ويشجع من يشجع لمصالحاتها ، وينتقد من ينتقد نحرها .

## الرسول

لقد عرفنا رسالة مصطفى كامل . عرفنا عناصرها ، ومقوماتها ومصادر  
وحياها وأهدافها وغاياتها . ورأينا كيف أدت كأحسن ما يكون الأداء ،  
وبلغت أفضل ما يكون التبليغ . بقى أن نعرف صاحب الرسالة .  
وصاحب الرسالة فريد فذ بين أمثاله وأشباهه من الزعماء وأصحاب  
الرسالات ، فتاريخ العقائد وسجل الحركات والثورات لم يعرفا على كثرة  
ما عرفا رجلا في مثل خصائص مصطفى كامل وصفاته .

لم يعرف التاريخ ، بغير مبالغة ولا تطرف . رجلا انقطع منذ كان  
صبياً إلى أن فارق دنيا الناس ، لفكرة واحدة ، لا يتكلم في غيرها ولا يعمل  
لسواها ، ولا يعيش إلا لها ولا يصاب إلا في سبيلها ، ولا ينجح إلا  
بفضلها ، هي مأؤه ، وغذاؤه وهي دواؤه ودواؤه ، وهي هناؤه وبلاؤه ، وهي  
عزه وشقاؤه ، لا تبرح عقله ، في الغدو ولا في الرواح ، ولا تهدأ عنه في  
الليل أو الصباح ، ولا ينصرف عنها في المرض أو الصحة ، ولا يقبل  
على غيرها في حالتي الازدهار والإدبار ، هي هو وهو هي ، لا ينفصل  
أحدهما عن الآخر ، فكأنها فكرة تجسدت شخصاً ، أو كأنه شخص  
أصبح فكرة .

كل سطر في كتاب مصطفى كامل ، كتاب حياته ، وكل خطوة  
وهمسة ، وحركة وسكنة وشاردة وواردة تؤيد هذا .

كان تلميذاً في المدارس الثانوية فألف جمعية الصليبية ، وانضم إلى  
جمعية الاعتدال ، وجمعية الكمال ، وجمعية العلم المصري ، وكان  
نشاطها جميعاً يدور حول العمل الوطني ، والاستعداد له بالمناظرة أو  
الخطابة ، فإذا حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية أرسل إلى شقيقه  
على فهمي كامل في ١٢ من يوليو سنة ١٨٩١ فور حصوله عليها رسالة



هى الوثيقة الأولى التى يقع عليها نظر المؤرخ لحياة هذا الإنسان العظيم ،  
فلننظر بماذا أجرى قلمه :

« السلام عليك أيها الأخ الحبيب . . اليوم أبشرك بأن العقبة الكؤود  
التي كانت أمامي ، وهى شهادة الدراسة الثانوية ، قد نلتها بعد أن ضعف  
جسمي فأصبح نحيلاً لا صحيحاً ولا عيلاً ، ولكني آمل أن تعود إلى القوى  
لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، فقد عازمت على الانضمام إلى صفوف  
طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة . ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنت  
تعلم أنني أميل إليها كثيراً ، وعازمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها  
جمعية « إحياء الوطن » .

هذا برنامج صبي لم يبلغ السابعة عشرة ، يقرر الدخول في مدرسة  
الحقوق ، لا لأنها مدرسة الوزراء والرؤساء ، ولا لأنها مدرسة المحاماة  
وحلقات المحاكم ، ولا لأنها مدرسة القانون والبلاغة والمحافل العظيمة ، بل  
لأنها مدرسة « حقوق الأفراد والأمم » هكذا وبالنص ، ولا شيء أكثر ،  
ولا شيء أقل . حقوق الأفراد ، التي تجعلهم مواطنين شجعاناً ، وحقوق  
الأمم التي تحقق لهم الحرية والمتعة .

ويأتى بعد ذلك مباشرة بلا تمهل ولا إبطاء ، العزم على إنشاء جمعية  
إحياء الوطن ، لجمعية الوطن فحسب ، بل إحيائه وبعثه .

إذا كانت هذه هى الرسالة الأولى التي يكتبها إلى أخيه ، فرسالته  
الأولى لأمه الروحية مدام جوليت آدم في سنة ١٨٩٥ ، أى بعد ذلك  
بخمسة سنوات ، هى كرجع الصدى من هذه الرسالة ، وقد مرت بنا ،  
فقد قال فيها :

« إنني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق  
من تولوز قبل سنة ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص  
للذين أشعر بهما في سبيل رفعة الوطن » .

نفس الغاية ونفس اللفظ . . السنوات تمر ، والألفاظ تزداد صقلاً

وجمالاً ، وإيقاعها يزداد قوة وجلالاً ، ولكن المعنى واحد ، ويبقى واحداً حتى يلفظ صاحبها أنفاسه في العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ بعد ذلك بأربعة عشر عاماً .

كثيرون استولت عليهم أحلام رائعة ، فصرفتهم عن كل شيء إلا مصطفى . سواء كانت هذه الأحلام أفكاراً تسجل في كتب ، أو أنغاماً توقع وتعزف وتهز أوجدان ، أو صوراً وألواناً أو مشروعات مال ، أو مخترعات علم ، أو كشوفاً في الطبيعة : فليس مصطفى كامل بدعاً بين هؤلاء الذين أسلموا أرواحهم وأبدانهم وأنفسهم من أجل فكرة واحدة عظيمة .

ولكن هؤلاء جميعاً كانت لهم إلى جانب هذه الفكرة العظيمة ، لذات بدن ، وسبحات روح ، وسقطات نفس . كانت لهم إلى جانب الفكرة الأولى أفكار تتفرع على ساقها وتنبع منها ، وتأخذ عنها ، لكن مصطفى كامل ، كان في تنسكه في محراب الوطنية وحب مصر ، لا نظير له ولا ند .

لم يعمل شيئاً قط غير العمل الوطني المجرد لمصر . لم يترافع في قضية مع أنه قيد اسمه في جدول المحامين سنة ١٨٩٥ ، لم يشغل وظيفة ، لم يمارس هواية ، لم يتزوج ، لم ينجب ولداً ولا بنتاً ، لم يقل حرفاً واحداً في خطاب ، في كتاب ، في رواية . في مقالة . في محاضرة يخرج عن المعنى الوحيد الذي عاش من أجله وهو تحقيق الجلاء عن مصر ، وتحقيق الاستقلال لها ، وإعادة مجدها .

لقد كانت آفة العمل السياسي في مصر في الخمسين السنة الماضية أنه يجري لبعض الوقت ، وأنه أشبه شيء بالهواية والتبرع ، يأتي بعد أن يفرغ الساسة من أعمالهم التي يعيشون منها ، ويكونون الثروات ، ويبلغون بفضلها المراكز في الحكومة والحياة العامة ، فالمثل الذي ضربه مصطفى كامل لم يستطع أحد أن يحذوه أو أن يرتفع إلى مستواه ؛ حتى خليفته

وصديقه محمد فريد ، الذى هو أقرب الناس إلى مصطفى ، تجرداً وإنكاراً للذات ، وتنسكاً فى محراب الوطنية وتعبداً ، اشتغل فى الدائرة السنية ، وفى النيابة العمومية ، وحاول أن يمارس المحاماة حيناً آخر . أما من جاء بعدهما فقد كانوا محامين وأطباء ووكلاء دوائر ، ورؤساء وأعضاء لمجالس إدارات شركات ، وأغنياء ، يتخذون من العمل السياسى وسيلة لإزجاء الفراغ ، ولتحقيق النفوذ والجاه .

وإذا كانت مقالات مصطفى كامل وخطبه وكتبه وأحاديثه وأسفاره ناطقة بأنه عاش ومات من أجل فكرة واحدة ، ملأت عليه حياته ، واستبدت بكل دقائق وثوانى عمره ، فإننا نجد الدليل الأكثر صدقاً والأعظم بلاغة فى رسائله الخاصة التى تصور همومه وأوجاعه ، وأفراحه وأتراحه . وما يساور نفسه ، وما يتحدث به فى خلوته مع قلبه ؛ وسنجد فى هذه الرسائل كيف كان مصطفى كامل كما وصفه شوقي فى مراثيته « صب مصر ، وشهيد غرامها ، حقاً وصدقاً » . وقالت مدام جوليت آدم عنه : « كان يحب أمته حباً لا يقوى عليه الموت نفسه » .

وقد حدثنا شقيقه أنه عندما ذهب إلى الإسكندرية لاستقبال أخيه مصطفى عند عودته من فرنسا بعد أن حصل على شهادة الليسانس ، وذلك فى السادس من ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وجد ضمن متاعه صندوقين كبيرين حافلين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسات الأمم ، وفيما عدا هذا امتلك مذكرات بعضها من كبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس الرسمية من نظارة الخارجية ؛ ثم قال إنه رتب هذه الكتب فى مكتبه ترتيباً حسناً ، ووضع لنفسه نموذج حياة سار عليه ، حيث كان يعمل كل يوم بلا استثناء ثمانى ساعات فى هذا المكتب ، ذلك أنه كان يستيقظ فى الساعة السادسة صباحاً فيؤدى صلاة الصبح ثم يتناول الفطور ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة ، ثم يعود فى الساعة الثامنة ويدخل فوراً إلى قاعة المطالعة ، ويستمر بين قراءة وكتابة وتقييد



مذكرات إلى الظهر ، ثم يتناول الغداء وينام إلى الثالثة ، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة ، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقائه ، ويعود في الساعة السابعة ليقرأ مرة أخرى إلى الساعة التاسعة ثم تناول جميعاً طعام العشاء .

كتب إلى أخيه رسالة من بروكسل لم تكن بطبيعة الحال معدة للنشر . ولم تنشر إلا بعد وفاة مصطفى قال فيها :

رأيت في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا ، وهي المدينة الزاهية الزاهرة ( ولكنها على كل حال لم تكن في نظري أحسن من مصر ، إلا أن حكومة هذه أهلية تعمل بقلب أهلى وحكومتنا مختلطة تعمل بقلب الإنجليزى ) كل ما تصبو إليه النفوس الكبيرة من عز وسؤدد لبلادها ووطن آبائها وأجدادها . وقد علمت بعد الخبرة أن رقى القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين لكل أمة تريد أن تنهض بنفسها إلى سلم الرقى ، هما حب الإطلاع ، والاعتماد على النفس . . . . . فسل الله معى أيها الأخ المحبوب أن نصبح سادة في بلادنا لتعود مصر إلى ما كانت عليه من رفاهة ومجد ، حتى نقدم للعالم معارض أفخر مما رأيته ، وننظم مدائننا نظاماً فوق ماشاهدته . إن الله على كل شىء قدير .

وكتب إلى أخيه في ٣٠ من مايو سنة ١٨٩٥ فقال :

« الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة ، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ، رأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية ، وطرحها على المناقشة من جديد .

وإنى أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ما شهدت مثلها مدة حياتى ، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قوياً ، حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، ولكنى أشعر من جهة أخرى بأن بلادنا فى حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما تحدثه فى العالم من الحركة . »

وأحسب أنه لم يفتك في هذه السطور ، قول مصطفى إنه يقضى ( ليله ونهاره ) في مخالطة كبار الساسة ، فلفظا ( ليله ونهاره ) هما التعبير الحقيقي عن الحالة الروحية التي كانت تشمل مصطفى منذ بدأ ترهبه وتنسكه وانقطاعه لهذا الحب ( الرائع ) على حد قوله ، حبه لمصر ، التي يود - على خلاف عادة العشاق والهاثمين - أن يكثر عشاقها ، وأن يكثر خدامها ، وأن يتنافس في إسعادها محبوبها . وقد كرر هذا المعنى بنفس الألفاظ في رسالة تالية أرسلها إلى أخيه بعد الرسالة الأولى بأربعين يوماً فقال :

« . . . فاعذرني أيها العزيز فإني أتعب نفسي ليلا ونهاراً ، وإن كان هذا التعب لا يذكر في جانب ما علينا لوطننا المقدس من الواجبات ، فلو رأيتني الآن لرأيت مصريا يتحرق قلبه لرؤية أمته سعيدة ، مالكة زمام أمرها ، ووطنه مستقلا رفيع المنزلة بين الأوطان . تراني حركة مستمرة ، تارة أحداث ، وتارة أكاتب ، ومرة أزور ، وحيناً أهاجم وحيناً أدافع ، ولي كبير الأمل أن يفتح باب المسألة المصرية للمناقشة عاجلاً أو آجلاً وكل آت قريب .

أما صحتي فلم بطراً عليها تغيير ، وهب أنه طراً عليها شيء فإن من يبذل الروح وهي الجوهر ، لا يبالي بالجسم وهو العرض » .  
ولكم كتب لأمه الروحية « مدام جوليت آدم » رسائل ، تكرر هذا المعنى ، وتسرى فيها تلك النغمة . . الأمل المقرون بالمرارة ، والعزم المصحوب بالعتب على أهل بلده ، الذين - مع التأييد والحب - لا يبعثون إليه العشرات الذين يسافرون معه ، ويكتبون ويخطبون مثله . ولكن أكثر هذه الرسائل مسا لشغاف القلب ، الرسالتان التي أرسل أولاهما في ١٦ من ديسمبر ١٩٠٤ ، والثانية في ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٠٥ ، قال في الأولى :

« إني أرى مشهداً من أفظع المشاهد ، ذلك هو سقوط وطني ، ولو  
( ٥ )

كنت لا أستطيع تنفس الصعداء كل لحظة لعبرت من زمن بعيد ، إنه لمن أشق الأعمال على الإنسان أن يجاهد ضد الزمن والحوادث والناس ، وليس هناك شيء يؤلى أكثر من الانحطاط الأدنى الذى استولى على أولئك الذين كان يجب عليهم أن يكونوا أعظم الناس كرمًا وشهامة . لا تتخذى من هذا دليلاً على الفتور ، ولكنها زفرة متألم ، فإنى ما زلت ولن أزال أبذر البذر الصالح ، وأمثل الأمل الحى بالرغم من كل العوائق حتى لا نترك ماضى مصر ولا مستقبلها فى يد النسيان .

وقال فى الثانية : « إنى كلما فكرت فى أنى إن زلت عن هذا الوجود فلن يسمع أحد صوت وطنى ، كلما ارتبى شعورى وقويت معنويتى واعتنيت بصحتى الى تتحسن شيئاً فشيئاً . . ليس أمامى إلا خمس سنوات أو ست سنوات أكافح فيها أشد الكفاح ، وبعدئذ أستطيع العيش سعيد البال ، فالسعادة لا تنال دفعة واحدة » .

بالشباب المسكين العظيم ! . إنه يطمع فى أن يعيش خمس سنوات أو ستا أخرى يكافح فيها أشد الكفاح ثم ينال السعادة . لقد شفى إحساسه ورق ، حتى أصبح يشعر بدنو أجله ، ولو أن الغيب لله . فالسنوات الخمس أصبحت ثلاثاً فقط ، والجهد الذى قطع على نفسه العهد أن يقوم به خلال هذه السنوات ، وفى الوعد به وجاهد ، والسعادة التى كان يطمع فيها ، بعد هذا الكفاح الشاق المضنى ، نالها ، ولكن لم تكن فى هذه الدنيا ، بل كانت فى الدار الآخرة ، بعد أن التف حول جثمانه شعب بأسره ، فتحققت عنده الوحدة واليقظة ، أى تحقق الأمل . ولا يؤلئك فى عبارة الرسالة نبرة تكاد تكون غروراً ، فهو حينما يتحدث عن توقف صوت وطنه ، حينما يقف قلبه هو ، ليس من قبيل الزهو ، بل إنها كما قال « زفرة ألم » ، فقد كان إحساسه بالوحدة يشتد عليه أحياناً ، حتى يحسب أنه وحده الذى يكرر اسم مصر وينطق به ، ويقرع بحروفه الأسماع والضمائر : . والحق أنه وقتذاك كان كذلك . . ولكنه كان



يواصل السعى ، وفي فترات الشدة المدهمة كان يزداد ثقة وعزماً ، فقد كتب لمدام جوليت بعد أن قطع صلته بالخدو رسالة أرسلها إليها في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ ، كما قال لها في ١٨ من نوفمبر في السنة نفسها : « ما دامت هذه الشعلة الوطنية تغذي وتؤازرني فإن لا أهاب أحداً ولا أخشى شيئاً في الوجود » .

وتوالت الدلائل على إحساس مصطفى كامل بدنو أجله ، فقال لمدام جوليت في ٤ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « . . . وستكون هذه السنة أهم سنة في حياتي » . ولقد صدق حدسه ففي هذه السنة تألف الحزب الوطني ، وصدرت جريدتان باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأطلق سراح سجناء دنشواي ، ثم لزم فراشه ، حتى حمل على الأكتاف إلى القبر .

ولكنه أودع كل أمانيه في جملة واحدة ، قبل أن يودع هذه الدنيا فقال : « كم أتمنى أن أعيش يوماً واحداً بعد أن تجلو جيوش الأعداء عن أرض وطني ، ثم ألقى الله » .

أما رسائله لمحمد فريد فهي الدليل على أن كل ما يصدر عن مصطفى كامل لا يصدر إلا عن حبه لبلده ؛ فالصداقة والمودة ، والحب والعطف كلها صدى لهذا الحب ، فهو مثلاً يكتب له في ٢٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٦ من بودابست ، فيقول له : « لا بد أنك تسلمت كل ما أرسلت إليك ، وطالعت صدى ما علمت ، وعلمت بكل ما جرى وكان ، ولا بد أنك سررت وفرحت ، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبا لمصر وإخلاصاً ، رضيت عن روح لا تقل عنها حبا للوطن وإخلاصاً » .

وكتبه له في ٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٦ من استانبول يقول : « أتلهذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز » . ومن باريس كتب له يقول في ١٩ من يولييه سنة ١٨٩٨ : « دمت لي أخاً وفيها صادقاً ، ودمت معي خادمين صادقين للوطن المحبوب » .

وفي ٢٩ من يولييه سنة ١٩٠٧ ، كتب له من نابولي يقول :

« إني لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك في خدمة المبدأ الذي وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وحسبي أن أقول إنك خير سلوى لي في هذه الحياة التي كثرت متاعبي وهمومي بها ، فكنت الأخ الممتاز والعون في الشدائد » .

أما رسائل مصطفى كامل لصديق صباه ، وزميله الأول في العمل الوطني ، منذ عهد الدراسة والتحصيل ، محمد فؤاد سليم ، والتي نشرت أخيراً ، فإنها تفتح لها نافذة فسيحة نطل منها على نفس مصطفى كامل الصديق ، ونفس مصطفى كامل المقاتل . ولأن مصطفى جياش النفس فإن رسائله التي هي قطعة من نفسه ، تفيض حياة وصدقاً :

قال في ١٢ من يونيه سنة ١٨٩٥ :

« مضى على شهر بباريس وأخباركم غني منقطعة ، فلا رسالة ولا سؤال . . ولم أر منكم شيئاً يدل على أنكم تفكرون في ذلك المغرب البعيد الذي فارق الأوطان حبا في إسعادها وإعلاء شأنها » .

وفي ١٦ من يونيه سنة ١٨٩٥ قال له :

« حمداً لله على انبعاث روح جديدة في نفوس أبناء مصر . ولكني مع ذلك عالم بأنني لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسي ، وأنني إذا تصورت يوماً بأي صورة كانت لا أجد من أمتي عضداً ونصيراً إلا إن كان منك يا أعز أبناء النيل عندي ، هذا ما يحزني كثيراً فإني مع ارتياحي للمهمة التي عرضت نفسي للقيام بها والغرض الشريف السامي الذي أعمل له أرى أن غيري من الذين أحب التشبه بهم كفرانكلين وغيره ، كان يعمل ووراءه أمة تعزز مطالبه وتدافع عنه بعكس ما أنا فيه ، فالذين ينصفوني ويوافقون على أعمالي إنما يقولون بذلك في مجالسهم الخاصة ، وربما خافوا المجاهرة في المجالس العامة ، والذين يعترضون على ، ويطعنون في ، يقولون ذلك جهاراً لا يخافون أحداً .

ثم يقول :

« وعلى أى حال فليست هذه الأفكار مما يضعف عزى ، أو يشبط همتى . فإنى أعمل الليل والنهار بعزم وهمة حقيقيين ، متوكلاً على الله ، واثقاً بالمستقبل ، مؤملاً النجاح فى هذا المسعى الذى كنت أتمناه أمامك ، وأظنك لست تنسى ذلك . وإن الله قادر على مساعدتى ، وعلى عودتى إلى أوطانى بعد إتمام المرافعة فى قضية مصر الكثيرة المشاكل والعراقيل ، وإنى إذا مت اليوم بعيداً عن الوطن والأهل والأحباب فإنما أموت مرتاحاً بموتة الشجاع فى حومة الميدان ، فاسأل الله لى قوة ومساعدة . واستمر فى مراسلتى (١) » .

وأرسل إليه من فيينا فى ٢٧ من يولييه سنة ١٨٩٥ :  
« لقد ورد لى قبل قيامى من باريس رسالة من أحد العمدة الذين لم يكن لى معهم سابقة معرفة يقول لى فيها إنه سيبدل جهده فى عمل اكتاب لمساعدتى حتى أستطيع السياحة فى كل أوربا وإلقاء الخطب ونشر الرسائل وإعطاء بعض الجرائد الفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من الدراهم لتحريكها على الكتابة فى صالح مصر حتى تعلم الحقائق وتهيج الحواطر ضد الإنجليز ، فأملت خيراً » .  
ولما أخبره صديقه فؤاد بأن بعض المصريين يحملون عليه ويطعنون فيه رد مصطفى على ذلك بقوله :

لقد قامت المشروعات الخطيرة فى كل زمان بين المشاكل والعراقيل ، وانتقاد الناس وتقبيح هؤلاء وذم هؤلاء حتى فى بلاد أوربا نفسها وبلاد المدنية والحضارة ، انظر إلى مشروع إيفل (٢) كم ندد بعمله بآدى

(١) نشرها الأستاذ عبد العزيز حافظ دنيا فى سنة ١٩٦٩ بعنوان :  
(رسائل تاريخية) .

(٢) إيفل المهندس الفرنسى الذى أقام البرج المعروف باسمه بمعرض باريس سنة ١٨٨٩ بمناسبة مضى مائة سنة على الثورة الفرنسية .



ذى بدء ، وكم سب وطعن فيه وقدح في فكرته وخبرته ، فهو لم يعتن بكل ذلك وسلح الفكرة بسلاحها ، فصارت في طريقها حتى أصبح الخيال حقيقة والحلم يقظة وصفق له الناس كافة . . ما أردت بذلك إلا أن أعلمك بأن كل المنتقدين لى المقبحين لعملى سيكونون غداً عند خروج الإنجليز من وادى النيل أول المصفقين لى ، وأقول يسبقونك إلى ملاقاتى والاحتفال بى ( ذلك إن تحققت الأمنية وبلغنا الآمال إن شاء الله ) .

ثم بث صديقه شكواه التى تكوى فؤاده ، شكواه من أنه يعمل وحيداً ، لا يجد معه مؤنساً فى أوربا ولا زميلاً ، حتى الأصدقاء يضمنون عليه بالرسائل وأخبار مصر ، فقال :

« مع ذلك ماذا ينقصنى أو يضرنى تحزبهم لى أو تجمعهم ضدى ، قد مضى على فى أوربا ثلاثة أشهر خدمت فيها بلادى الخدمة التى لم يكن فى استطاعتى عملها سنين وأنا فى مصر ، لم أر فى كل هذه المدة مساعدة من الموافقين على عملى ، لكنى رأيت مخالفة من المخالفين لى ، فالموافقون على أعمالى إنما هم كالمفرج ، والمخالفون هم أيضاً كالمفرج القبيح الذى يسبى ، فلا فرق هناك بين الفريقين ، إن لم يكن أحدهما أكثر أدبا من الآخر .

ثم زفر مصطفى زفرة تكاد تخرج من صدره ومعها قلبه :

أواه يا فؤاد ثم أواه ألف أواه ! الفلاح يسعى ويتعب ، ويعمل الليل والنهار ليسأل فى وقت الحصاد محصولاً يسد حاجته ، وأمته يبلغ عددها ثمانية ملايين (١) . نفس تطلب الحرية أنفس معنى من معانى الوجود — ولا تسعى للوصول إلى هذه المرام السامى وإلى تحقيق أمنيته بل تريد أن تأتيا الحرية وهى نائمة فتوقظها من نومها . والله لست أدري ماذا يريد

---

(١) كان ذلك تعداد مصر سنة ١٨٩٥ ، فكان تعدادها زاد نحو خمسة أضعاف فى ثمانين سنة .

الرحمن بهذه الأمة المسكينة . أقول ذلك ولكن قلبي يقول ساعة الفرج لا بد من مجيئها .

وهأنذا ترى كيف تختلط في رسائل مصطفى كامل خواطر الألم والشكوى من الناس ومن الزمان ، بصيحات الأمل والثقة في المستقبل . مهما كثرت الصعاب في طريقه لا يستسلم لها قط ، محققاً شعاره الذي أعلنه في خطبته الرائعة في الثاني والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٧ المعروفة بخطبة الوداع :

مهما تعاقبت الليالي وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار !

ثم عاد يقول إلى صديقه فؤاد ، كلاماً تخالطه المראה :

وأشكر الكاهن الأكبر<sup>(١)</sup> ألف ألف شكر ، وبلغه أني أتذكر دائماً جملة قالها لي مرة عندكم « أليس في المصريين رجل واحد ؟ » فقلت له وماذا يعمل الرجل الواحد :

فقال أصل كل شيء واحد ، فليظهر ذلك الواحد وعندئذ ، غيره يتبعه .

« وهأنذا أنتظر من يتبعني ، وأظن الأيام والليالي تمر ، ولا يتبعني غير الهواء . »

ولا تحسبن هذه بادرة من بوادر اليأس ، فلا يشكو هذه الشكوى ، ولا يتفجر قلبه إنسان بعنف ألم كهذا سوى قلب إنسان عظيم الأمل كبير الرجاء . اليأس لا يشكو ، وإنما يصمت ويتغير ويختار له سبيلاً آخر .

وفي ١٥ من أغسطس في السنة نفسها يعلق على نبأ نقله إليه فؤاد في رسالة سابقة فيقول : لقد اندهشت من الخبر الذي سقته لي ، القائل بأن

---

( ١ ) في الغالب الكاهن الأكبر هو عبد الله النديم .

نظارة الداخلية قررت عدم دخول الديار المصرية ، فإنه يدل على جنون الإنجليز وعظيم غيظهم . وكلما ازداد جنونهم وعظم غيظهم ازدادت أنا همه في العمل ونشاطاً وثباتاً ، فليأمرؤا بما يأمرؤن . إني قدست نفسي لخدمة أوطاني وأهديت حياتي لأمتي وبلادي ، فليسألوني هذه الحياة فليس لي وحقتك تعلق ما . إني لآخر لحظة فيها أخدم مصر ، وأفارق الوجود ولساني يقول : « مصر مصر » ، وأنت أول من يعلم بهذه الإحساسات في ، وعلمك بها أمتن من علم أهلي بها ، فلقد عشنا حيناً طويلاً وروحانا ممتزجان ، فما نحن إلا روح واحدة في جسمين ، ولكن أسألك البحث عن صحة هذا الخبر ، فإن صحته تكون لي دليلاً قوياً وحجة ساطعة على تخوف الإنجليز من هذه الحركات ؛ وبالأخص تحقق لي من خبر منع دخول الهلباوى بك فإن صديقنا لا يشتغل إلا بالكتابة وكراسته ، وموجود الآن في جنيف . سأزوره الأسبوع القادم . فلم يمنع من دخول مصر ؟ أمر غريب وعجيب ! » .

ويبدو من هذه السطور انشغال بال مصطفى نبأ منع عودته إلى مصر ، ولكنه انشغال طبيعي ، لأن حرمان مصطفى من العودة إلى بلاده مع تعلقه الشديد بها ، وحب العميق المتأجج للأم والأخ والأصدقاء ، هذا الحب الذي يبدو صادقاً وحراراً في كل رسالة ، يكون بالنسبة له عذاباً عظيماً ، ولكن هذا الانفعال بالجانب العام من هذا النبأ صرفه عن الانشغال والقلق على مصير شخصه ، فاهتم كثيراً جداً بنصيب صديقه الهلباوى من هذه الإشاعة ، وأظهر دهشته من أن رجلاً منصرفاً إلى مذاكرة كتب اللغة الفرنسية والتقدم فيها والإكباب على الكراسة والكتاب يمنع من العودة إلى بلاده ؛ ولكن مصطفى كامل ما يابث أن يبدو على صلابته ، فقد اشتد في لوم أخيه وصديقه فؤاد سليم ، لأنه نصحه بسرعة العودة إلى مصر خوفاً عليه من قرار المنع المحتمل صدوره ، فقال له بلا هوادة :



« يظهر أن شوقك لرؤيتي زائد جداً جداً حتى غطى شوقك على خبرتك ومعرفتك بالواجب ، لأنني أراك قلت لى : الأولى عودتى إلى مصر الآن . وماذا يكون من أمرى إذا عدت ؟ يكون اليأس ؟ أم الهيجان والاضطراب ؟ ومن يستطيع مقابلتى إذا عدت ؟ وهل يتيسر دخولى وعودتى ؟ أأكون أول من يفتح باب المحكمة المخصوصة (١) ؟ »

عودتى لمصر قبل الجلاء مستحيلة ، وأحب أن أقول لك ما قالته جريدة طولوزية بعد سفرى من طولوز وهو : « أن مصطفى كامل دخل فى صف المحامين من بعد تنمة دراسته الحقوق ، ولكنه لم يترافع فى قضية واحدة ، بل اختار قضيته الأولى والأخيرة : قضية مصر ضد إنجلترا ، وهو يترافع فيها بهمة ونشاط أمام أوروبا ، ولا يعود لمصر حتى يسمع الحكم ، ولا شك أنه سيكون فى صالحه ، فلنتظر الحكم . »

ولا يختم مصطفى رسالته هذه بعد هذه الأنباء الخطرة التى تتعلق مباشرة بمستقبله ، والتى تدل دلالة صريحة على مدى تأزم العلاقة بينه وبين سلطات الاحتلال فى مصر ، وانتواؤها إنزال الأذى به ، إلا بعد أن يطلب طلباً يدل على هدوء نفسه وقوة أعصابه وانشغاله الدائم بالعمل الذى اضطلع به ، فهو يقول لصديقه :

« أكون لك من الشاكرين إذا أرسلت لى فى أول فرصة ( شاهيتين ) جميلتين « لوناً » وقماشاً مع إخبارى بثمانهما ، فإن كل ما كان معى من الهدايا النفيسة وزرع ، ومحتاج لتقديم هدايا لبعض الكتاب السياسيين ، ولتعلم أن الهدايا فى هذه البلاد من أحسن الأسلحة السياسية . »

ولا ينسى مصطفى هاتين ( الشاهيتين ) وهما قطعتان من القماش الذى تصنع منه القفاطين ، وهو يروق سيدات أوروبا ، ويصنعن منه

( ١ ) المحكمة المخصوصة هى المحكمة التى صدر قانون فى سنة ١٨٩٥

بتشكيلها لمحاكمة المعتدين على جيش الاحتلال .

« فساتينهن » ، فهو يكتب في الرسالة التالية المؤرخة ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٥ : « لا تنس إرسال الشاهيتين ولا تهمل » .

ولكن فؤاد سليم لا يرسل الشاهيتين ، ومصطفى يتعقبه ولا يتركه ، فهو يقول له في رسالة ١٤ من سبتمبر :

« ولعل امتناعك عن مراسلتى بسبب ما طلبته منك أن ترسل إلى شاهيتين ، إذ قضى عليك ( بخلك ) أن تحجم عن الجواب » .  
ثم يعود إلى أحزانه التي لا تفارقه ، حزنه لبلده الذي كان لا يزال يروح تحت نير الاحتلال فيقول :

« أكتب لك يا فؤاد وقلبي مملوء بالشجن والأحزان ، وعيوني تذرف الدموع ، وفؤادي كئيب تعيس ، والنور أمامي ظلام في ظلام ، ولا بهجة لي ولا سرور . نعم نعم ، كل ذلك حاصل ويدوم ما دام الشقاء في بلادى سائداً » .

ذلك لأن تاريخ الرسالة هو ١٤ من سبتمبر ، وهو يوم دخول الإنجليز إلى القاهرة ، وهو تاريخ كالقرحة الملتببة لا يهدأ لحظة ولا يتقطع .

وفي الرسالة الرابعة التي كتبها مصطفى في ٣٠ من سبتمبر أى بعد الرسالة السابقة بأسبوعين لا ينسى « الشاهيتين » فيقول لصديقه :

« لم ترسل الشاهيتين . لعلك تعتذر بوجودك في شطنوف ( إحدى قرى المنوفية وبها أطيان لطيف باشا سليم والد فؤاد ) أنا لا أقبل هذا العذر ، فإن تابعتك أو سيدك ( عثمان أغا ) لا يتأخر لو أمرته بإرسالها إلى ، فلا عذر لك أبداً ، لا لأنك بنخيل كما أعهد فيك ، وإنما كما يعهد فيك والدك المحبوب نفسه ( تذكر تعرف ) » .

وكما لا ينسى الشاهيتين لا ينسى الهلباوى بك وأخباره ، ففي رسالتين متلاحقتين يتحدث عن تقدمه في الفرنسية وعودته إلى مصر ، ويبدو أن العلاقة بين مصطفى كامل وإبراهيم الهلباوى كانت في تلك الأيام غاية

في الود والحب ، وذلك كله قبل أن تقع واقعة دنشواي ويترافع فيها الهلباوي ضد المتهمين من الفلاحين ، فتصيبه لعنة هذه القضية التي لم تدع أحداً شارك في إثمها حتى أصابته بعذاب : كرومر سقط عن عرشه ، وسحب إلى بلده ، وانتهت حياته السياسية ، وبطرس غالي رئيس المحكمة قتل برصاصات إبراهيم الورداني ، وفتحى زغلول الذي كتب الحكم بيده فقد أكثر ماله في ديون قمار ، ثم أصيب بمرض عضال ومات دون الخمسين تاركاً مستقبلاً باهراً في السياسة والحكم ينتظره .

وفي ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ تسلم فؤاد سليم رسالة من مصطفى تعد وثيقة من أخطر وثائق الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ، ونحن ننقل منها السطور التالية ولا نعلق عليها هنا لأن لها مكاناً في موضع آخر من هذا الكتاب .

قال :

« عزيزي فؤاد

إني مندهش جداً حيث لم يصلني منك لا برقية ولا نقود ولا حتى رسالة واحدة . أتعشم أن يصلني شيء منك غداً عن طريق البوستان الفرنسية .

صديق فؤاد العزيز

إنني في ضيق نظراً لأن الحديوم يرسل لي من المال ما يكفي للسفر إلى مصر ، إذ أن مقدار ما بعثه لي يكفي فقط لأسدد به نفقات الفندق ، وإنني صممت على عدم رجوعي إلى مصر ، لأن وجودي في فرنسا مهم جداً للقضية التي كرست لها نفسي جسداً وروحاً . وقد قررت ألا أعود إلى مصر إلا إذا يئست من معاونة الوطنيين . وإنني حالياً يائس من واحد ، هو الحديوم ، ولكن أليس في استطاعة والدك والهلباوي ومحمود سالم أن يرسلوا لي سنوياً ( ٤٠٠ جنيه ) ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرّون جهودى الوطنية ؟ وإذا كانوا غير قادرين على مساعدتي ومساندتي فإني



سأعود إلى مصر يائساً فاقد الأمل ، ليس من أجل الجلاء فحسب بل من أجل مستقبل الأمة المصرية . وتأكد يا صديقي العزيز أنني لن أمكث في مصر بعد عودتي دون أن أرى القبر ( أكيداً ) ، سوف أنتحر ولا أعيش وسط أمة جاحدة ، بالإضافة إلى أنني لا أعرف اليأس إلا بالموت معاً .

هذه صرخة انشق عنها قلب رأى أن الغاية من حياته قد أصبحت أبعد عن تناوله منها في أي وقت مضى ، وأن من يحبونه ويحبون هذه الغاية يخوفونها بالسكوت والإهمال ، وقد يستطيعون هم قبول الحياة على هذا المنوال : ذل قائم وظلم باطش ولا جهاد ولا كفاح . أما هو فلا معنى لحياته إلا بالعمل ضد غريمه الكريه وعدوه البغيض : حكم الإنجليز لبلاده .

## الإنسان

أرسل مصطفى كامل رسالته السياسية الأولى : « أخطار الاحتلال البريطاني » إلى مدام جوليت آدم ، وقد عرفناها على صفحات هذا الكتاب زوجة لجمهوري كبير هو إدمون آدم ، مساند للجمهورية التي كانت تيارات الرجعية والملكية القديمة تعصف بها وتود أن تقتلعها من جذورها . ساندتها بماله كما ساندتها بنفوذه ، وحرارة إيمانه ؛ وزوجته صحفية عالية الكعب ، تصدر « المجلة الجديدة La Revue Nouvelle » ، وتفتح بيتها لما يسمى « بالصالون » ، وهي ندوة يجتمع فيها الكتاب والصحفيون والساسة والنواب والشيوخ والوزراء الحاليون والسابقون وأصحاب المكانة في المجتمع الفرنسي ، يتبادلون الرأي ويعلقون على الأخبار ويسمعونها . وكان من العظماء الذي يضمفون على ندوتها الرواء والبهجة والحياة : بيرك في ، وإرنست جوديه ، والكولونيل ( العميد ) مارشا ، وهنري روشفور ، وجستون كالميت ، وكميل بلقان ، وليون دوديه ، وإميل فلورنس ، وأندريه تارديو ، وإدوارد دورمون . شعراء مشهورون ، وعسكريون ذائعو الصيت ، وساسة وصل بعضهم فيما بعد إلى رئاسة الوزارة .

فالسيدة جوليت آدم رأت من الدنيا وعرفت من الشخصيات وبلغت من المجد ، ما يصبح معه موعد تمنحه لشاب مصري مجهول أمراً قليل الإثارة تؤديه كما يؤدي العظماء ضرائب العظمة ، فيقابلون من لا شأن لهم ويطيئون عليهم صبرهم كما يقابلون ذوي القيمة ويفرحون بلقائهم .

انصرفت الصحفية الكبيرة إلى ما كان بين يديها من ورق في مكتبها  
 الفسيح الأنيق حتى أعلن لها مقدم الشاب المصري مصطفى كامل ،  
 فرفعت عينيها عن الورق ، ونظرت من مقعدها عبر المكتب إلى حيث يقع  
 الباب ، وفتح الباب فإذا هي وجهاً لوجه أمام شاب ناضج ، أستغفر الله  
 بل صبي يدلّف ببطء إلى أولى سني الشباب . وخيل إلى السيدة الكبيرة  
 أن المقابلة لن تستغرق إلا دقائق تمنحها لهذا الطارق من قبيل الأدب  
 وحسن المجاملة ! لم تكن تستطيع أن تخترق حجج الغيب ، وأن تعرف أن  
 هذا الشباب سيكون له دور في حياتها ، وسيكون لها دور أي دور في  
 حياته .

حيا بأدب ، ولكن بلا خجل يعقد اللسان ، ولا اضطراب يشتت  
 الذهن . كان مستجمعاً نفسه متحكماً في أعصابه . وابتسمت السيدة  
 المحجوبة ثم قالت :

— إنك لم تصدقني سنك ، فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين .  
 وكانت بهذا تلمح إلى رسالته التي أرسلها إليها في ١٢ من سبتمبر  
 سنة ١٨٩٥ يقول لها فيها :

« إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق  
 من طولوز ، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين  
 أشعر بهما في سبيل الوطن العزيز ورفعته » .

فأجاب في التو : لقد بلغتها ياسيدتي وأكملتها . .

فلما كتبت عن هذه المقابلة قالت : « إن عقل هذا الشاب قد بلغ  
 أشده واستوى قبل أوانه » .

فلما ناقشها فيما عرض لها من حديث قالت عن هذه المناقشة :  
 « لقد أطل هذا الشباب التدبر والروى في إمكان مصيره خطيب مصر » .  
 فقد كان صوته قاطعاً وثبته مقنعة ، وكان يجمل في لفظ ما يقوله



الآخرون في كلام كثير . كان يطلب وكأنه يأمر وإن لم يتجاوز قط حدود الأدب .

ثم قالت السيدة جوليت لمصطفى :

ضع يا ولدى مقالا في إحدى المسائل السياسية الخاصة بمصر ، وأفض فيها واسترسل استرسالا بغير تقيد ، فإنه لا تضرني منك سورة الشباب ولا حدة اليقين .

فأجابها في لطف : كتابتي مقالة في مجلة يسرني سرورا زائداً ياسيدتي خصوصاً في مجلة كبيرة مثل « لانوفيل ريفيو » ، ولكن في ذلك إبطاء ، فأرجو منك ياسيدتي أن تفتحي لي أبواب جريدة كبرى حتى أستطيع أن أكتب فيها من فوري .

ودار بينهما حديث حول الميعاد الذي ستنشر فيه مقالته ، فاقترحت أن يكتب مقالا ينشر في عدد مجلتها الذي يصدر في ١٥ من نوفمبر ، وهو يريد أن يكتب في صحيفة يومية مقالا ينشر غداً ، فتنصحه بأن يكتب في مجلتها لأن الصحف لا تتسع للمقالات المطولة وأن المقالات الموجزة لا تكفي لبيان الرأي ولا تجمع أنصاراً ، واقترحت آخر الأمر أن يكتب مقالا لتشره في عدد أول نوفمبر بعد أن كانت مواده قد أعدت وأرسلت إلى المطبعة ، فهتف : « كم تقويني ثقتك ! إن لي أما أحبها حبا شديداً وهي تثق بمشروعي ، فببركة رضاها عني وبارشادك إياي سأقوم يقيناً بعمل وطني جليل ، وأمل أن أصبح أنا لبيروتي الذي يحب الشرق والمسلمين » . وسجلت السيدة جوليت عن هذه المقابلة قولها :

« من تلك المحادثة أخذت حقيقة أؤدي لمصطفى كامل وظيفة الأم ، فعرفته بجميع الأكابر الذين يعينهم شأن مصر ، وأوليته من خب الأم جميع منازل أبنائي المتقدمين عليه الذين كان يختص منهم ببيروتي والكولونيل مارشا وإرنست جوديه بالحمية » .

وليست هذه المقابلة وما أسفرت عنه إلا نموذجاً لما تفعله شخصية

مصطفى كامل في الناس الذي يتصل بهم ويتحدث إليهم ويعمل معهم :  
 كيف يفكر ؟ كيف يفرض رأيه ؟ كيف يكتسب حب الناس وثقتهم ؟  
 اللفتة التي يبدئها بالعمل ، والخوف الشديد من مرور الزمن ، والثقة  
 الكبرى في نجاحه ، وفي حقه في أن يحمل الناس معه إلى حيث يريد  
 بلا خوف ولا تهيب ولا غلظة أو تسلط ، كل هذا مع النضوج المبكر .  
 وفي هذه الخصائص تبدو شخصية مصطفى كامل واضحة كلية  
 وكأنك تقرأها في كتاب مفتوح .

أولى هذه الخصائص : النضج الذي يكاد يكون معجزة إنسانية .  
 ويلبها مباشرة الثقة بالنفس ، ثم يأتي الإيمان بالمثل الذي رسمه لنفسه ،  
 الذي يلد القدرة الفائقة وسريعة الأثر على الإقناع والتوجيه المعلنة عن ملكة  
 قيادة كاملة . وبعد ذلك يأتي خوف خفي من الزمن . . . لقد كان منذ  
 البداية يحس إحساساً غامضاً ، لم يفصح عنه قط بأنه ذاهب عن هذه  
 الدنيا سريعاً ، ولكنه أفصح كثيراً عن أنه ليس لديه وقت يضيعه ،  
 فإن أمل بلاده في النجاة من الاحتلال ، يدنو قريباً لو أن المصريين  
 واصلوا الضربات ولم يخافوا ، أو يتفرقوا ، أو يدعوا مكاناً للحسد  
 والضغينة بينهم . . .

أما آيات النضج فإليك الأمثلة عليها . :

أول هذه الأدلة رسالته إلى أخيه على فهمي بعد نجاحه في شهادة  
 الدراسة الثانوية التي أرسلها في ١٢ من يولييه سنة ١٨٩١ . فبعد أن يبشره  
 بأنه حصل على هذه الشهادة يقول مباشرة :

ولكني أؤمل أن تعود إلى القوى ، لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية ،  
 فقد عازمت على الانضمام إلى صفوف طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة  
 والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم . وأنت تعلم أنني أميل إليها كثيراً ،  
 وعازمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها « جمعية إحياء الوطن » ،  
 وربما دهشت من إقدامي هذا لضغني الذي تعلمه في اللغة الفرنسية ،

ولكن اعتمدى على الله وعلى نفسى أكبر ضمان لنجاحى ، والله الموفق إلى أقوم سبيل .

ثم يختم هذه الرسالة الصغيرة المبينة بعبارة تفيض إنسانية :  
« دادتى حليلة ترجوك ألا تكون شديداً على العساكر السود ، فإنهم أهل غدر ، ويحملون الضعيفة ، وأنت خير من يحسن معاملة الناس » حفظك الله :

هذه الرسالة قطعة حية من شخصية مصطفى كرسالته إلى السيدة جولييت ، كحديثه مع هذه الكاتبة الفرنسية الكبيرة .

فهي أولاً غاية فى الإيجاز وآية فى الوضوح ، ونموذج للحسم الرائع الذى لا يعرف تردداً ، ومثل لتبين الهدف بمزاياه ومتاعبه . فقد كان ممكناً أن تصبح هذه الرسالة برقية فليس فيها حرف واحد زائد ، فهي تتضمن :  
أولاً : نبأ الحصول على الشهادة الثانوية باقتضاب وبلا فرح غير لائق برجل وبغير غرض من قيمة هذه الخطوة التى يسميها : « عقبة كؤود » .  
ثانياً : قرار دخوله مدرسة الحقوق .

ثالثاً : تفسيراً لهذا القرار لأنها مدرسة حقوق الأفراد والأمم .

رابعاً : نبأ عزمه على إنشاء جمعية لإحياء الوطن .

خامساً : علمه سلفاً بأن ضعفه فى اللغة الفرنسية يجعل انضمامه إلى مدرسة الحقوق أمراً شاقاً ولكنه يعلق قائلاً : « إن اعتمدى على الله وعلى نفسى أكبر ضمان للنجاح » .

ثم تأتى هذه الإشارة التى تشعر بصغر سنه : بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، فيشير إلى « دادته حليلة » ويحس بالحنو والحب لهذه الدادة ، دون أن يرى لهذا الحب أو الحنو لفظاً يعبر عنه ، ولكن الإكبار من شأن رأيها والاهتمام بتبليغه إلى أخيه يكتفى إعلاناً عن هذا ، وهو ينقل نصيحتها الساذجة بحروفها ، ثم يختمها بأجمل ما يختم به كلام « وأنت خير من يحسن معاملة الناس » .



ألا ترى في هذه السطور ملامح زعيم ، يرصد قصده ويذهب إليه  
تواً بلا إبطاء ، ولا إمهال ولا تردد . ألا تراه يرى الخطوات التي تكمل  
بعضها بعضاً : شهادة الثانوية تفضي إلى دراسة الحقوق ، ودراسة الحقوق  
هي معرفة حقوق الأفراد والأهم ، ومعرفة هذه الحقوق تؤهل لإنشاء جمعية  
إحياء الوطن .

ثم يدخل مدرسة الحقوق الخديوية ، ويدخل في الوقت نفسه مدرسة  
الحقوق الفرنسية . قرار يتسم بكل صفاته وخصائصه : القدرة على إصدار  
القرار ، وتحمل تبعات القرار ، فإذا جاء الخديو عباس لزيارة المدرسة  
العليا التي مصطفى كامل بين يديه قصيدة من شعره الساذج البسيط :  
بشرى الحقوق بسيد الأمراء      كنز العلا عباس ذى النعماء  
بشارك يادار العدالة والهدى      بمليك مصر وأوحد العظماء

وهذه القصيدة أيضاً قرار من قرارات هذه الشخصية الناضجة نضجاً  
مبكراً ، فقد كانت خطواته الأولى نحو إحياء الوطن والخديو عباس شاب  
في مثل سن مصطفى كامل تماماً ، وزيارته لمدرسة الحقوق هي إيماءة إلى  
أنه يحب هذا الطراز من الثقافة ، لأنها عدة الذين يمكن الاعتماد عليهم في  
مقاتلة الإنجليز . فالقصيدة هي عربون الود بين أمير البلاد الشاب الذي  
تبدو عليهم شمائل الوطنية ، وبين الزعيم الشاب الذي عرف منذ اليوم  
دوره وقرر أن ينهض به . والقصيدة تجعل اسم مصطفى كامل معروفاً ،  
والشهرة من عدة الزعماء وعتادهم . والوقوف بين السامعين : أمراء ووزراء  
وأساتذة وزملاء هي تجربة من تجارب النفس التي لن تستطيع أن تترك  
أثرها وتؤدي عملها وتشق طريقها إلا بمكابدة متاعب التحدث إلى الناس  
بما تسببه هذه المحاولة من إجهاد للنفس وإرهاق للأعصاب .

من خصائص شخصيته البارزة التي تخطئها العين اتقاد وجدانه  
واشتعال عاطفته ، فهو لا يستطيع أن يتناول شيئاً ولا أن يخاطب شخصاً ،  
ولا أن يؤيد رأياً ، ولا أن يهاجم رأياً بغير مبالاة أو بتردد ، فأنت تشعر

في كل ما يقوله أو يكتبه بقلب ينبض وإحساس يتفجر وعاطفة تتحدث عن نفسها في عبارة مفيضة ومؤثرة معاً .

وتظهر هذه السمة أوضح ما تظهر في رسائله إلى أخيه ، وإلى أصدقائه محمد فريد وفؤاد سليم وعبد الرحيم أحمد وأمه الروحية جوليت آدم ، تحس أنه يحبهم بكل قلبه ، وأنه يود أن يثير في قلوبهم له حبا مماثلاً . وإنه في هذه العاطفة دائماً الطرف الفعال الموجب لا الطرف السالب المتلقى . هو الذي يخطب الود ، وهو الذي يعاتب : وهو الذي يشتد في العتاب ، وهو الذي يؤنب ويصفح ، ويطلب المزيد من الود والحب . وهو يحب إخوته ، وهو يحب أمه ، وهو يحب أصدقائه ، ويحب الذين أحسنوا إليه ولا ينساهم قط في المحنة . وفي رسائله فيض من تقبيل الوجنات والسؤال عن الأولاد والأهل والمرضى والغائبين .

يروى على فهمي أنه وصل إلى القاهرة من سواكن بالسودان التي كان يعمل فيها ضابطاً فجر يوم الخميس ٣٠ من مارس سنة ١٨٩٣ فسمع من إفريز المحطة من يناديه في هذه الساعة المبكرة التي يحلو فيها النوم ، فإذا هو مصطفى ، ما كاد يرى أخاه حتى تعلق برقبة معانقاً ، ثم سار خلف الجنود ، حتى وصل إلى ثكناتهم ، فلما وضع « على » سلاحه خرج ومعه مصطفى لا يفارقه ، ثم واطب على زيارته كل ظهر ليتناولوا الغداء معاً في ثكنة الضباط المسماة في تلك الأيام « القشلاق » . وقد مر بنا كيف أن وفاة أخيه عبد الفتاح التي وصله نبؤها وهو في قهوة كافيه دي لاييه بباريس ، أفقدته الوعي ، ثم أنزلت به المرض ، وألزمته أن يعود إلى بلاده سريعاً مع أنه لم يكن قد مضى على وصوله إلى فرنسا إلا وقت قليل . ولما حصل على شهادة الحقوق كتب لأخيه على يقول : « إني أؤكد لك أنني ما سررت بفوزي في هذا الامتحان إلا لأرضي سيدي البار أخي الرحيم حسين أفندي واصف » .

أرسل من باريس إلى صديقه فؤاد في ٢٥ من يونيو سنة ١٨٩٥ يقول :

« لم يكن عهدي بؤدكم لحظة أو ساعة بل كان عهدي به أعواماً وأجيالاً لا يغيره البعد ولا النوى . مضى على شهر بباريس وأخباركم عنى منقطعة ، فلا رسالة ولا سؤال ولا جواب » . ثم يضيف إلى آخر الرسالة حاشية يقول فيها : « أرسلوا رسائلكم مسجلة ألف تسجيلة » .

وفي رسالة تالية يقول من باريس أيضاً :

« استمر في مراسلاتي ، واعلم أني لا أشتاق لأحد في مصر ، حتى من أهلي أكثر من اشتياقي إليك ، فإنني ما كنت أعلم قبل اليوم أن لك يافؤادي هذه المنزلة العليا » .

وفي رسالة تالية : تسلمت يوم الاثنين الماضي أول يوليو رسالتك الأولى المؤرخة في ١٩ يونية ، فطرت فرحاً وسروراً وابتتهجت أحسن الابتهاج . هذا وأرجوك ألا تحرمي من رسالتك الجميلة الظريفة ، وإنني لأشكرك أحسن الشكر على إهدائك لي صورتك العزيزة ، فهي دليل بقائك مخلصاً في وداي صادقاً في محبتي كما كنا دائماً بل فوق ما كنا . . . وكأنك علمت مقدار شوقي لرؤيتك وحنيني للاجتماع بك والتلذذ بمحادثتك واستطلاع آرائك العالية وإحساساتك الشريفة فأهديتني بصورتك التي تمثل أمامي فأحييها ألف تحية ، وفي الحقيقة أحييك ، أحيي صادق ودك ونخالص عهديك . دمت لي ودمت لك » .

وفي رسالة ثالثة :

أشكرك شكر الرضاء للسحاب على هذا الوداد الذي إن تشخص كنت أنت شخصه ، وإن كان لفظاً كنت معناه أو معنى لفظه ومعناه ، ففسير على مهما تراءت ألفاظ البلاغة ووسائل التعبير أن أصف لك السرور الذي نخاليج فؤادي وكل جوارحي بقراءة رسالتك الأخيرتين ولاتسل كم مرة قبلتهما وكم طرت فرحاً لما علمت أنك ستشرفنا في شهر نوفمبر القادم » .



وفي رسالة رابعة :

« بعد تقبيل وجنتيك . . تقبيل أخ كله شوق إليك وكله اشتياق ، أخبرك بأنى لم أتسلم منك كتابا من نحو خمسة عشر يوما خلافا لعادتلك مما زاد تلهفى عليك » .

وفي رسالة خامسة :

« تسلمت أول أمس رسالتك المؤرخة ١٧ سبتمبر ، وبتلاوتها سررت كثيراً لما جاء فيها من اللطائف . ولكن ماختمتها حتى شعرت بألم شديد فى فؤادى وأظنه مسببا عما بدا لى من أنك لاتأتى فى نوفمبر إلى باريس وخصوصا أنى سألتك هذا السؤال مراراً وإلى الآن لم تفدنى ، فطمنى بالله عليك ، فإنى بشوق فريد إليك ، فلا تمر لحظة واحدة حتى أشاهد صورتك المحبوبة ، حفظك الله لأهلك ول » .

أما رسائله لمحمد فريد ، صديقه وخليفته ، فتجربى خلالها هذه النبذة ، فيقول له فى رسالة مؤرخة ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ :

« غاية رجائى من الله — إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا — أن يحفظ لى ودك الصادق وحبك الطاهر ، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ، ومن أخيك الشاكر العارف للجميل » .  
وفي رسالة أخرى أرسلها بعد أسبوع يقول :

« دم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص » .

ويقول له فى رسالة أسبق من تلك الرسائل مؤرخة فى ١٩ من يولية سنة ١٨٩٨ :

« ما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك مالى ، ومالى مالك ، وحياتى حياتك ، وحياتك حياتى ، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت ، فروحى وروحك ، بالود والإخلاص فى كل لحظة وكل آن ، ودمت لى أخا وفيا صادقا ، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب » . ويقول له فى رسالة أخرى :  
« سأكتب لك كل أسبوع ، ولاتنس العائلة ، وأرسل سلامى لكل أفرادها »

ويقول في رسالة تالية : « إذا قابلت شوقي بك ( أمير الشعراء ) فقبله لي مرتين ». وهكذا، فأنت مع رسائل مصطفى كامل أمام فيض من العواطف يشمل الجميع ، فإذا انتقلنا إلى رسائله إلى صديقه عبد الرحيم أحمد الذي كان يعمل في ديوان الخديو، والذي كان في الوقت نفسه ، صلة الوصل بين مصطفى والخديو<sup>(١)</sup> فنحن أمام العاطفة المتدفقة نفسها ، وأمام صديق يشكو من تقصير أصدقائه ، وعدم وفائهم لعاطفة نحوهم ، ووده إياهم . مع انشغال باله بأحوال أخيه على فهمي الضابط الذي كان البريطانيون قد بدأوا يضطهدونه . في رسالة في الثامن من يولية سنة ١٩٨٥ ( والرسائل كلها في هذه السنة ) يقول مصطفى :

« انتظرت ورود رسالة واحدة منكم فلم يتحقق سعدى بذلك مما جعلنا في اندهاش وحيرة » . وفي آخر الرسالة : « لاتنسوا شقيقي فهمي عساه ينقذ من نارسواكن » .  
وفي ٤ من أغسطس قال :

« وصلت إلى باريس منذ يومين بصحة جيدة والحمد لله — وقد كنت أعلل النفس قبل حضوري إلى باريس بأن أجده منك رسالة أو رسالتين ؛ فلما وصلت وقلبت ما وجدت من الرسائل لم أجده شيئا مذكوراً ، ولست أدري ماداعي تأخيرك عن مراسلتى وأنت تعلم أنها في الحقيقة داعى بلبالي واشتغال بالى .

« فأسألكم بحق الوطن وحبه أن تفيدوني عن صحة ( هذه الأخبار ) وألا تخفوا عني شيئاً ما . وهل علمتم أن أخى استغنى من خدمة الجيش أولاً ، فإنى لست أدري » .

وفي رسالة مؤرخة ٩ من أغسطس يعود إلى حديث أخيه فيقول :  
« ورد لي كتاب من شقيقي فهمي يخبرنى أنهم يعاملونه بقسوة غريبة

( ١ ) صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل — نشر الدكتور

جداً جداً ، وأنه يريد أن يستعفى ويستشيرك ، فأنا أكتب بعد رسالتك هذه مشيراً عليه بالاستعفاء ، وأملئ أنكم لاتقصرون في عمل اللازم لتعيينه في وظيفة مترجم بالأوقاف بمبلغ ١٠ جنيهات .

ويختم بقوله : أسألكم مراسلتى على الدوام ، ولو تنقصكم الأوامر السامية ( ويقصد هنا الخديو ) فإن رسالة منكم تسرنى كثيراً وتشرح صدرى . فاسعوا في سرور من لا يسعى إلا في خلاص وطنه المحبوب ، وإنقاذ من الخطر العظيم .

وفي الرسالة الثانية يقول : « أنتظر رسائلكم بالصبر النافذ » ، ويختم الخطاب بقوله : « اجعل كتاباتك طويلة وافية ، فينبى بشوق إليك ، وكتاباتك تمثلك أمانى . »

وفي رسالة في ٢٣ من أغسطس يقول :

« قضيت هذا الأسبوع كله منتظراً منكم رداً على رسالتى التى أرسلتها من فينسيا ، فلم أحظ بنوال هذه البغية العزيزة ، ولاتنسوا إخبارى بأمر استعفاء شقيقى متى فهمتم بذلك . »

وفي رسالة أرسلها في ١٤ من سبتمبر يقول :

« أخبركم بأنى لم أتسلم منكم من نحو ثلاثة أسابيع رسالة ما ، كنت أنتظر معرفة حكمكم وحكم رأى العام عندكم عن الرسالة الأخيرة ( أخطار الاحتلال البريطانى ) ، ولكنكم بخلم علينا ، فصبراً صبراً . »

وفي الرسالة المؤرخة ١٨ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ قاضت المارة بمصطفى كامل ، وعزّ عليه استجداؤه الرسائل ممن يتصل بهم من أجل العمل العام إلى جانب أنهم من أصدقائه ، فقال :

« ترانى من يوم مبارحتى الإسكندرية وأنا فى بلبال أشغل بغير سكون وراحة لما يصل إلى من الأخبار المكدره ، وإنى وإن كنت أعتبرها من الصعوبات التى لابد من قيامها فى وجه رجل مثلى أخذ على مسؤوليته



أخطر الأمور فإني أتعجب كثيراً من أن الذي يقيم هذه الصعوبات في وجهي هو من أبناء وطني ومن أعز أحبائي ، وأرحمهم قلباً ، وأكثرهم رضاءً علي ، بخيل بكتاباته لا يرسلني إلا كل شهرين مرة على أن يرسله أسبوعياً وأريد بذلك أنت أيها العزيز ، فيها أنا ذا قد مضى على في أوروبا أربعة أشهر ونصف أرسلت لك فيها نحو ثلاثين رسالة ، وأنت لم ترسل إليّ إلا ثلاثاً فقط على أنك ( وأنا أعلم منك ذلك ) ولذلك أن تنتهز فرصة مكاتبتني لخدمة الأوطان معي فلم لم ترسلني ؟ »

ولكن الشيء العجيب في تكوين مصطفى كامل المزاجي أنه مع هذه العاطفة المتدفقة لا يفقد عقله ، ولا يتطوح مع الخيال ، ولا يقول حرفاً واحداً لا يريد أن يقوله ، فهو لاء الذين يحبهم ويسرف في حبهم ، ويتلهف على رسائلهم ، ويبثهم أشواقه عن بعد ، ويشتد في لوهمهم إذا تأخروا في الكتابة إليه ، هم معاونوه في العمل العام ، وهو بهذا الأسلوب العاطفي الصادق ، يستثير فيهم عاطفة الوطن ، ويقدر فيهم لالعطف عليه بل العطف على الوطنية التي يدافع عنها ، والمبدأ الذي وده به جهده وحياته وماله . أفتكون عاطفته هذه هي إحدى حيل نفسه التي فنت فناء تاماً في حب مصر ، فأصبح كل ما يقوله ويعمله ، وما يحسه ويشعر به راجعاً إليها ، وصادراً عنها .

وقد بلغ من شدة حرصه على التزام مقتضيات العمل ، وترك الحماسة جانباً ، أنه أرسل إلى أخيه الذي يكبره رسالة في ١٢ من مايو سنة ١٨٩٥ ، قبل أن تم اللوحة التي قدمها إلى رئيس مجلس النواب في ٤ من يونية سنة ١٨٩٥ ، قال له فيها : « إني أصرح لك بأن صدرك سينشرح عندما تقف على مأسأعله خدمة لبلادنا التي لا عز لنا إلا بها ، فقد أوصيت على صورة سياسية تمثيلية لأقدمها مع عريضة سياسية لمجلس النواب الفرنسي . . وإني أرجو منك ألا تدفع هذا النبأ لأنني

من يتمسكون بقول النبي الكريم : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .  
ولما أرسل إليه عدد من الضباط الذين كانوا يعملون مع أخيه  
في سواكن في ٢٤ من يونية سنة ١٨٩٥ عريضة تأييد قالوا له فيها :  
« اقبل شكرنا ، واعلم أن روحنا طوع إشارتك في خدمة هذه البلاد » ؛  
أرسل إلى أخيه رسالة يقول فيها : « من الحكمة ألا نمكن العدو من رقابنا ،  
بل نبجتهد في توجيه السهام إليه مع احتراسنا من سهامه . وإني لأود  
أن يدخل الضباط في حركتنا دخولا ظاهراً ، لأن هذا يضر بالمسألة  
المصرية ضرراً بليغاً حين يجد الاحتلال مسوغاً لاختلاق التهم  
الثورية » .

ولاشك أن شاباً في مثل سن مصطفى كامل في تلك السنة ، التي  
لم تكن تتجاوز الحادية والعشرين ، كان يحتاج إلى ضبط نفس شديد ،  
لكيلا تدير رأسه رسالة كرسالة الضباط زملاء أخيه ، فقد كان جديراً  
بأن يلعب به الخيال والكبرياء الوطني ، فيحسب نفسه زعيماً تحت  
إمرته ضباط وأنه قادر على أن يتخذ من هؤلاء نواة لعمل عسكري ،  
وقد تجره الأحلام إلى أكثر من ذلك ، والرأي العام المصري لم ينضج بعد ،  
وحركة الوطنية لاتزال في بدئها . .

وقد تعجب حينما ترى هذا الذي يتدفق عاطفة ، وقد أصبح قادراً  
على أن يحيط بالتفاصيل العملية ويذكرها بالدقة ، متابعه ، وإليك  
فقرة من رسالته من طولوز في يولية سنة ١٨٩٥ إلى صديقه عبد الرحيم  
أحمد ، وهو يروي له أنباء خطبته التي ألقاها في طولوز ، لينفي عن نفسه  
تهمة التبذير ، وليؤكد أنه ملتزم الاعتدال أو التقشف ، قال (١) :

« هذا وإني دعوت بالأمس بعض الرجال الذين خدموني وساعدوني  
هنا في نشر الإعلانات وتحضير قاعة الخطابة ، واليوم أدعوا رباب الجرائد ،

( ١ ) صفحات مطوية من حياة الزعيم مصطفى كامل ، ص ٤٠ .

وأخطب فيهم خطبة قصيرة توافق المقام .

وأحقق لكم أن حضوري هنا أكسب مصر كل طولوز ، وخصوصا . رجال التحرير فيها الذين صاروا تحت أمرى ورغبى ( بلا ثمن ) . لا تسل عن المصاريف التى صرفت لأجل هذه الخطبة من سكة حديد ( ١٢٠ فرنكا ذهابا وإيابا ) - ١٦ ساعة مسافة السكة الحديد ، وأجرة القاعة والخدم والإقامة والولائم وطبع الخطبة وتوزيعها وإرسالها بالبوستة ، كل ذلك وصل إلى نحو ٦٥٠ فرنكا ، ولكنى مع الاعتدال والتدبير لأصرف إلا مايوافق المصلحة ويعود نفعه على خدمة مصر » .

وهذا التوازن الرائع بين العاطفة والروح العملية ، تجد مثله توازنا بين المرونة والسياسة ، ورفض الإهانة ، فكل مايقضى به الوصول إلى النجاح من أجل الفكرة العامة مقبول ، وكل إهانة أو تعال أو تجاهل مرفوض ، ويرد على صاحبه فى الحال .

فإذا نصح مصطفى كامل صديقه عبد الرحيم أحمد أن يساير النائب الفرنسى ديبلونكل الذى كان يدافع عن قضية مصر ، وحقوق مصر فى مواجهة الاحتلال البريطانى لانتماه إلى العصبة الاستعمارية الفرنسية الخاصة والمعادية لبريطانيا وتوسعها على حساب فرنسا ، وكان فى مصر عدد من الفرنسيين والأجانب المتعاونين مع الحديو عباس فى جهوده ضد بريطانيا ، مثل المسيو بوترون Bouteron رئيس اللجنة المختلطة للدومين (١) أى الأتبان المملوكة للحكومة التى عرفت فيما بعد بالأملاك الأميرية ، والمسيو بروفيرس Precuier رئيس المحكمة المختلطة الابتدائية بالقاهرة ، والمسيو Pront المندوب الفرنسى فى إدارة سكة حديد الدلتا ، والمسيو ارشيد جافيو

( ١ ) صفحات مطوية من حياة الزعيم ص ١٩



Gavillot الصحفي وروندا رويه Rouis Roviller الأمين بالقلم الأوروبي بقصر الحديو وهو سويسرى الجنسية . وكان هؤلاء الأجانب يفضلون بطبيعة الحال أن يخلوا ميدان الدعاية المصرية فى فرنسا لفرنسى مثلهم ، يشعرون بشعورهم ، ويعمل لمصلحة بلده ، ويأتمنونه على أسرارهم وأسرار الحديو ، كما يأتمنهم على أسرارهم واتصالاته ، فقبل مصطفى كامل أن يدارى ديلاونكل هذا ولا يغاضبه حتى لا يغضب الحديو الواقع تحت تأثير الأجانب المحيطين به والذين يصورون له أن النجاح فيما ينصحون به ، وأن مصطفى غير مجرب ، ولا يدرى من شئون سياسة فرنسا ما يدرى ديلاونكل . فكتب مصطفى كامل فى هذا الشأن مانصبه :

« ديلاونكل يحب علوا اسمه ، ويسعى لذلك ، فتراه لا يسر مطلقا إذا رأى تعارفت مع أحد ، لأنه يريد أن أكون طوع بيمينه ، ومع ذلك فهو ينفعنا ، وإن هو احتس ولم يظهر الخفة لا يضرنا ، وعلى كل حال سياستى هنا سياسة الكسب لاسياسة الخسارة ، فإنى أستولى على فكره بالقول الطيب واللسان الحلو الذى يخدمنا ، كما أنى أستولى على غيره ، وبقليل من حلوى الكلام يستخدم الإنسان كثيراً من الرجال . .

« وفى الختام أريد أن أوضح لكم فقط سياستى التى إذا رضى عنها من لا أغفل لحظة عن الدعاء له بالدوام والعز وبلوغ الآمال سرت عليها ، وإن كانت هناك إشارة أولا عملت بها - سياسة المسايرة والمسالة والملاطفة مع كل الناس وبالأخص مع المسيو ديلاونكل ورفاقه .

ولكن هذه المسايرة والمسالة تنقلبان إلى بركان يقذف بالحمم ، فبعد أن يقول مقاله مما نقلناه الآن يقول فى رسالة أخرى فى أغسطس سنة ١٨٩٥ : « أنا لأمل من الثبات وتحمل القول المر ، ولا أقف عند نقطة مادام المقصد شريفا ، وأى شرف بعد إعلاء كلمة الحق ، وخدمة الحرية والأوطان .

ينبى في رسالة سابقة له إلى صديقه عبد الرحيم أنه لم يكتب لأحد أعضاء حاشية الخديو عباس ، وهو يوسف بك صديق بن إسماعيل باشا المنشى ، وكان قاضيا في تلك السنة بالمحاكم المختلطة ، ويعتبر عضواً في اللجنة الأوربية التى ذكرنا أعضائها ، وكان بحكم اتصاله بالفرنسيين والسويسريين يحقد على مصطفى كامل ، ويدس له الدسائس ويقترح إعادته من فرنسا ، فيعلق مصطفى على هذا اللوم بحدة ويقول : « وربما تلومونى على عدم مكاتبة ذلك الصديق ، ولكنى أخبركم أن من طباعى - وربما عرفتم ذلك - أنى حر فوق مرتبة الأحرار لأنخالف ماتأمرنى به سريرتى ، ولاتأمرنى - كما تعلمون - إلا بما فيه رعاية مصلحة بلدى العزيز والوطن المحبوب ، ومافيه صيانة الذمة والشرف » .

ولكنه يصل إلى أبعد من ذلك ، فهو يقول لصديقه عبد الرحيم أحمد فى ٢٥ من يناير سنة ١٨٩٩ : « أرجوكم أن تنتهروا الفرصة اليوم لتطلبوا من سمو مولاي أعزه الله أن يتكرم على بتحديد مقابلة خصوصية أنى فيها عن نفسى مانسبه ذوو الأغراض لى ، ولكى أعلم إذا كان سموه لا يريد - نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى ، حتى يتيسر لى عندئذ أن أعمل ماأريد فى مصر أو خارجها ، عاجلا أو آجلا ، وإنى منتظر منك الرد هذا المساء أو غداً ، لأنى لاأريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار » .

وفى ١١ من فبراير ، أى بعد أقل من شهر ، ذهب مصطفى خطوة أبعد فقال لصاحبه عبد الرحيم : « فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلته فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدمانى . . وأظنكم لاتلومونى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم » . وبعد ثمانية أيام أرسل إلى صديقه عبد الرحيم :

« أخبركم أنى عازمت عزما نهائيا على مبارحة الوطن المحبوب

الأسبوع القادم ، وأرجو أن ترفعوا هذا النبأ إلى مولاي أعزه الله .

وقال : لقد فات الميعاد بعد الميعاد ، وانقضت أيامى بين الملل والانتظار ، ولأجد فى إقامتى فى مصر إلا ضياعاً لفرص عزيزة وتحسراً على حظ الملك والبلاد . ولعلكم تفهمون مقدار تألمى من كل ما كان وما أنتم عالمون به حق العلم ، فقد مضى فى مصر أربعون يوماً وأنا انتظر الأمر العالى بتشرفى بمقابلة العزيز حفظه الله . .

« وعلى أى حال فأنا مبارك الأوطان غير نادم على ما كان ، بل متخذاً ما رأيته وعلمته دروساً لى أستفيد منها فى المستقبل .

« وفى الختام أهديكم عاطر تحياتى ، وأسأل الله تحقيق الآمال وإرشاد رجال الأمير إلى ما فيه خيره ونفع البلاد . »

فهذه السطور تكشف عن السمة الكبرى لشخصية مصطفى كامل ، فهو بعد كونه وطنياً ، الوطنية الهامة ونبراسه ، وخطته ومنهاجه ، ومصدر قوته ، وهدى خطته ، فهو « حرق فوق مرتبة الأحرار » ، ومعنى الحرية هنا أنه لا يعمل إلا لحساب عقيدته ، فلا يستعبده أحد بماله ، ولا ينفذه ولا بما يثيره فى نفسه من أطماع السلطة أو الجاه . ولذلك هو يتلطف للخدو ، ويستعمل لغة القصور فى الحديث عنه ، وفى الحديث معه ، لاطمعا فيه ولا رغبة فى التزلف إليه ، ولكن ليعلم قضيته الكبرى وليستغل الخديو من أجل هذه القضية ؛ فإذا بدا له أن الخديو يخشاه ، أو يخشى الدنومنه أو التعامل معه ، اتقاء لبطش البريطانيين ، فما أيسر أن ينأى عنه مصطفى كامل ، ويسقطه من حسابه تماماً ، كما رأينا . وسنزيد بطبيعة الحال هذا المعنى فى موضع آخر بإذن الله من هذا الكتاب ، إنما حسبنا أن نقول إن صفة مصطفى كامل الأصيلة هى الوطنية والصلابة ، وإن المرونة صفة طارئة ، وهى مرونة الوطنيين وسياستهم ، وثمة فرق بين وطنية السياسيين ، وسياسة الوطنيين ،



فالسياسيون لا يفكرون إلا في الصالح العارض لحزب ينتمون إليه ،  
أو حكومة يرأسونها ، أو حاكم يخدمونه ، وقد يضطرون إلى انتهاج  
الوطنية مسلوكاً مؤقتاً ، فهذه هي وطنية السياسيين . أما سياسة الوطنيين  
فهى مايلجأ إليه الوطنيون من التضحية أحياناً بالقليل من أجل الكثير ،  
وبالطارئ من أجل الخالد ، وتحمل الأذى الشخصى فى سبيل العقيدة  
العامة ، واصطناع الصبر مع الأراذل والمتعاليين ، لا طمعا فيما بين أيديهم  
من مال أو جاه أو سلطة ، وإنما طمعا فى توجيه مالم وجاههم وسلطتهم  
فى سبيل المبدأ .

والخاصية البارزة من خصائص شخصية مصطفى كامل الإنسان ،  
هى جلده . على العمل وجهه له ، وحرصه على القيام بالتفاصيل  
والاهتمام بها إلى جانب الكليات .

قال فى رسالة إلى صديقه عبد الرحيم أحمد أرسلها إليه من باريس :  
« مرسل لكم بالبوستة ثلاثون نسخة من الرسالة التى نشرتها أخيراً  
بشأن خطر بقاء الإنجليز فى مصر ، ولعلها تسركم وترضيكم كما سرت هنا  
فحول السياسيين وعظام الباحثين المدققين ، وقد أرسلت منها عدداً  
عظيماً فى كافة أنحاء أوروبا ، وقضيت طوال هذا الأسبوع فى تسفيرها  
 وإرسالها » : فهو يهتم بإرسال الرسالة التى حررها وترجمها إلى الفرنسية  
وأشرف على طبعها تصحيحاً ومراجعة ، ثم يقوم بوضعها فى المظاريف ،  
ويكتب عناوين المرسل إليهم ويضعها فى صناديق البريد . وهو يقول  
لصديق نفسه : « فليس فى عيني أجمل وأكمل من رجل يعتمد على نفسه  
قبل اعتماده على غيره ، وهذا الاعتماد على النفس يقتضى الإنسان  
أن يقوم بعمل الجماعة وهو فرد » .

ولو أخذنا مثلاً ما قام به مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٥ هالنا هذا  
الجهد المتصل المتنوع ، فهو فى أول السنة يجرى حديثاً مع شقيق اللورد

كرومر ، والكولونيل يارنج ، وهما معا على ظهر السفينة التي عاد به  
إلى مصر ، فإذا علقت جريدة الاحتلالين على هذا الحديث بأنه  
حديث خرافة ، رد عليها بمقال ، ثم أتبع ذلك المقال بمقالين في الأهرام  
بعنوان : التهديد الباطل وصواعق الاحتلال ، على التوالي ، والأخير منهما  
احتجاج صارخ على إنشاء المحكمة المختصة ، ثم يسافر في الحادي  
والعشرين من مارس إلى الإسكندرية ليستقبل ديلونكل النائب الفرنسي ،  
ثم يصحبه خلال إقامته في مصر ، وقيم له في أبريل سنة ١٨٩٥ حفلة  
تكريم ، ويخطب فيها ، ثم يودعه في الميناء عند عودته إلى بلاده ،  
ثم ينشر مقالا في الأهرام عن سياسة الدول الكبرى في الشرق الأقصى ،  
وهو في واقع الأمر بحث في السياسة الدولية ، ثم يسافر إلى فرنسا ويوصل  
مقالا للأهرام بعنوان « من أين يأتي الخطر » ؟ ويقصد من أين يأتي  
الخطر للقضية المصرية ، ثم يقدم في الرابع من يونية من السنة نفسها  
العريضة المصحوبة باللوحة الملونة إلى رئيس مجلس النواب ، فيثير  
تعليقات صحف العالم في فرنسا . تعلق عليها الجولوا ، والكان ، والديبا ،  
والروليك فرانسيز ، والفيجارو ، والبي جورنال ، والسولي ،  
والانترانسيجان ، والراديكال ، والفريتيه ، والسيكل ، والإكلير ، والماتا ،  
والباتري ، وفرانس ، والليبرتيه ، كما تعلق عليها في إيطاليا والنمسا  
وإنجلترا الصحف الكبرى ، حتى النيويورك هيرالد في الولايات المتحدة  
تقول رأيها فيها ، ثم يعود إلى نشر المقالات في الأهرام فينشر مقالا  
بعنوان كلمة إلى المدلسين ، ثم يجري حديثاً مع جريدة الجورنال الفرنسية ،  
ثم يلقي خطبة في مدينة طولوز ، فتثير الخطبة تعليقات في صحف فرنسا  
مثل ( الديش ) والجورنال ، كما تثير تعليقات من صحف خارج فرنسا  
كالأكستراجيلاط في فيينا وتعليقات من صحف بريطانيا التي تنهال  
على مصطفى كامل بأقذع ألفاظ السباب ، ثم يقيم مأدبة للصحفيين  
والسياسيين وأهل الرأي في طولوز رداً على حناوة هؤلاء وصحفهم به

وبخطبته وبشخصه ، ويغادر طرلوز إلى ألمانيا حيث يلتقي الصحفيين والنواب ، ومنها يعود إلى باريس ، ويشفق أخوه على من هذا النشاط المتصل أو قل المحموم ، فينصحه بالرفق بصحته ، والاتشاد في العمل والسهر ، فيرد عليه برسالة في ١٨ من يوليو سنة ١٨٩٥ : « لا تحسب أني أدبت ماعلى لبلادى من الدين الكبير حتى إذا قيل لك إن أخاك يردف الحديث بخطبة ، ويتبع الخطبة بمناقشة ، ويقضى على أثر المناقشة بمقالة ، فليس هذا كله شيئاً . وإذا كان من يعشق فتاة جميلة لا يهدأ له روع ، ولا يهنأ له بال ، إلا إذا وفرها صنوف السعادة والرفاهية ، فما بالك بمن يعشق فتاة الدهر ، وأم العجائب ، مصر ؟ هل يعذر هذا العاشق إذا لم يسلم روحه على قدميها إذا اقتضت الحال ؟ » .

ثم يكتب مقالا في الأهرام بعنوان « ما وراء السياسة الإنجليزية الحاضرة » ، ثم يصل إلى فيينا في أواخر يولية ، فتجري معه جريدة الاكسترا تاجبلاط حديثاً ، ثم يعود إلى باريس في أوائل أغسطس من السنة نفسها لينشر فيها رسالته الصغيرة : « أخطار الاحتلال البريطاني » ، فتتلقفها الصحف بالتعليق والترحيب والنقد والثناء والهجاء ، في مختلف الصحف على تباين نزعاتها وميولها ، وتخصها مدام جوليت آدم بمقال في جريدة « البتي مارسيليه » .

وفي آخر أيام أغسطس يقيم مصطفى احتفالا بعيد جلوس السلطان العثماني ، وذلك في فندق من فنادق باريس ، ثم تلغى الحكومة المصرية تحت ضغط سلطة الاحتلال البعثة المصرية في باريس ، فتجري جريدة « الإكلير » مع مصطفى في سبتمبر من السنة نفسها حديثاً ، فتعلق عليه في الأيام التالية صحف فرنسا ، وفي مقدمتها جريدة (الطان) ، ويختنق الاحتلال أويكاد من هذا النشاط الذي يؤلب عليه - أويكاد يؤلب - الرأي العام في مصر ، والرأي السياسي في فرنسا والنمسا وألمانيا ، بل في بريطانيا نفسها ، فينفس عن غضبه وغيطه باضطهاد على فهمي



كامل الضابط في الجيش المصرى بسواكن بالسودان . وفى ١٥ من أكتوبر فى السنة نفسها تنشر له مجلة « النوفيل ريفو » أولى مقالاته ، التى بدأت بها علاقته الحميمة مع مدام جوليت آدم ، وكانت بعنوان « إنجلترا والسلام » ، وجن جنون الصحف الاستعمارية ، وفى مقدمتها « دى استندارد » اللندنية ، فأمرت مصطفى كامل وإبلا من الشتام ، ومالبثت جريدة « الجولوا » حتى طلبت حديثاً مع مصطفى تعليقا على هذه الحملات ، فتم الحديث فى شهر أكتوبر ؛ وفى شهر نوفمبر نشر فى الأهرام ثلاث مقالات متتابعة ، الأول عن الوزارة الفرنسية التى شكلت آنذاك ، وهو مقال تحليلى للسياسة الخارجية يدل على اطلاع دقيق على هذه السياسة وتتبع ذكى لمعوماتها وألغازها ، وخطاب مفتوح إلى الورد سالسبرى رئيس وزراء بريطانيا فقال فى مجلة « النوفيل ريفو » بعنوان « تحالف يتحتم » ؛ فإذا أوشكت السنة أن تنتهى أتى مصطفى كامل خطبة فى الجمعية الجغرافية بباريس .

كم كانت هذه السنة مليئة بالحركة والبركة ، بالسفر والانتقال ، بالخطبة والحديث والمقالة والرسالة ، والحفلة والاستقبال . ونحن إذ نذكر هذه الأعمال نحسب أنها لا تكلف إلا بقدر الحروف التى نكتبها بها ، ولا ندرى أن من وراء كل عمل من هذه الأعمال جهداً ينوء به الجسم والعصب معاً ، وتفكيراً يواجه المشكلات الصغيرة التى تفسد الأعمال الكبيرة ما لم تحل : الخطبة تحتاج إلى مكان لائق ، وموعد مناسب ، ودعوات تصل إلى المدعوين ، وتنظيم للقاعة ، ولطف فى الاستقبال والتوديع ، وعناية بالكبار والصحفيين . فإذا سهى عن شئ من هذا أو لم ينل حظه من العناية فسدت الخطبة وضاع أثرها أو لم يلتفت إليها إلا القليل ، القدرة على العمل والجلد على تحمل متاعبه تحتاج إلى صفة أخرى ، كان حظ مصطفى كامل فيها عظيماً ، تلك هى القدرة على التركيز . فمصطفى كامل كان قادراً أن يهب — كما سبق القول — حياة كاملة

للفكرة التي عشقها واستولت على كل جارحة فيه . والعقل المشتت ، المشغول في الوقت الواحد بأكثر من عمل ، هو عقل قاصر وعاجز إن يصل إلى أقصى طاقته . أما العقل المستجمع لقواه ، والمحتشد للعمل الذي بين يدي صاحبه ، فهو عقل تتضاعف قوته ، ويفعل في ساعة ما يعجز عن مثله الآخرون في أيام . والقدرة على التركيز ، تبدأ في أول الأمر بالجهد ، ثم تصبح عادة فتتحوّل إلى قوة وميزة .

والتركيز إعلان في ذاته على صفات عقلية ونفسية أخرى لا يتم غيرها . فهو ثمرة الإرادة القوية ، والإيمان بالعمل الذي يتناوله الإنسان . لقد كان مصطفى كامل قوى الإرادة إلى أقصى غايات الإرادة القوية . فقد دخل مدرسة الحقوق وهو يشكو من الضعف في اللغة الفرنسية ، فلم يتقنها من أجل هذه الدراسة فحسب ، بل أتقنها ليخطب بها ويكتب ، وينطقها كواحد من أبنائها . كل ذلك في سنين قليلة . فقد دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٢ ، وكان يخطب في طولوز بالفرنسية في سنة ١٨٩٥ ، ارتجالاً ، بغير الاستعانة بورقة .

وآخر الأمر كان مصطفى كامل بكل لطفه وحرارة شخصيته ، وسحرها وجاذبيتها وشدة انفعالها بما تقول وما تفعل ، ولفتاتها الإنسانية ، وإتقانها للفن الرائع ، فن كسب الأصدقاء واستبقاء مودتهم واستثارة عواطفهم ، وتدفق بيانه ، ووضوح أفكاره ، واستقامة خلقه ، وتجرده من المصلحة الشخصية ، وترفعه عن الدنايا والصغائر ، وانقطاعه لمشله العليا ، وتفانيه فيها — بكل هذا استطاع أن يكون رسول الوطنية المصرية ، وأن يجعل منها قوة ، لاتنفد وطاقة لا تنتهي ، وحركة لا تقف ، وإيماناً لا يفتر .

وأوحى بمثاله العظيم لألوف من مواطنيه خب المبادئ التي وهبها حياته وجسّد لهم الاقتداء به ، والسير على منواله فراح واحداً من أعظم الخالدين في تاريخ أمته وفي تاريخ الإنسانية .

ولقد أحسنت مدام جولييت آدم التعبير عن هذه المعاني ، إذ قالت في مقدمة كتاب « رسائل مصرية فرنسية » التي ضمت رسائله إليها :

« هو حيّ في شخص الكل ، والكل يحيا في شخصه ، وما يحيى من الحوادث لن يغير شيئاً من صورته وعنوان مجده ، وإن الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر ، لقد قامت عند وفاة مصطفى كامل مظاهرات لم تصدر من أمة أخرى أعظم منها ، وقد صار عمله كله حياً في قلب كل مصري ، لأن كل مصري يفهم أن مصطفى كامل قد أحيا مصر ، إذ نفخ فيها من روحه ، وعندما كان يقول متباهياً : أمي ، لم يكن يقوّلها بلسان الملك عن رعاياه ، بل كان يحيى في نفسه بلاده ووطنه وكان يحيا معهما » .



## الداعية

ما مصطفى كامل إلا داعية . .

كان صاحب دعوة ، وقد أخذ ينشرها ويجمع حولها المؤيدين ، ويدفع عنها المعارضين ، يبت لها في القلوب الحب ، ويشير لخصومها في النفوس البغض . بدأ هذه الدعوة منذ استطاع أن يحمل القلم ، وأن يتحدث إلى الناس ، ولم يفتر حماسه لهذه الدعوة أو إيمانه بها ، كما لم يهدأ نشاطه في العمل لها ، كتابة وخطابة ، وسفراً وسعيًا ، وتنظيمًا وتديرًا ، ودرسًا وبحثًا ، حتى النفس الأخير في الدقيقة الأخيرة في اليوم الأخير من حياته .

كان يعمل وهو مريض ، وهو شاعر بآلام الغربة والفشل ، وهو يرى الأعداء يتجمعون عليه ، والحساد يتألبون ضده ، والأصدقاء تفتّر هممتهم ، ويضعف عزمهم ، ويقلّ بذلم ويكثر قولهم ، خلق داعية ، ووهبه الله كل أسلحة الدعاة :

أولاً - الإيمان الذي لا يقف عند حد برسالاته ودعوته ، وهو إيمان يقوى ويتجدد عند النوازل والمصائب ، ويعلو ويتسع نطاقه عند الانتصارات والمكاسب . إيمان يخالط شغاف القلب ، ويجرى مجرى الدم ، ويردد مع الأنفاس ، لا يبغى جزاء ولا شكوراً .

ثانيًا - نشاط جسمي وعقلي لا يدركه ضعف ، ولا يناله فتور ، من الصباح إلى المساء يكتب ويخطب ، ويفض الرسائل ويحررها ، ويقابل الصحفيين والأصدقاء ، ويتعاقد مع المراسلين لصحفه المتنوعة

العربية والإنجليزية والفرنسية ، اليومية والأسبوعية والشهرية ، عدا الكتابات الصغيرة ، وما يترجم إلى اللغات الأجنبية من خطبه ومقالاته .

ثالثاً - دراسة متصلة لتطورات الأحداث في أوروبا كلها ، وسعرفة تامة بما يجرى فيها على المسرح علناً ، وما يجرى وراء المسرح في الدهايز ، وتنهم دقيق للشخصيات التي تلعب الأدوار الرئيسية والشخصيات الثانوية ، وما يجرى بين الدول الكبرى من اتفاقات ومؤامرات ، وما يجمعها من مصالح ، وما يفرقها من مطامع .

رابعاً - اتصال مباشر حتى بأصحاب الصحف ، ورجال القلم ، وزعماء الأحزاب ، ورؤساء الوزارات ، وحرص شديد على توسيع دائرة معارفه ، وتوثيق عرى علاقاته ، والتودد إلى كل صاحب نفوذ يخدم دعواه ، وكل صاحب قلم ينشر مبادئه ، وهو يجمع بين التلطف والثقة وبين كسب الود ، ويتوسط الأصدقاء والمعارف وإهداء الهدايا وإقامة المآدب .

خامساً - قدرة فائقة على الكتابة السهلة المؤثرة البليغة ، التي لا يبعد معناها عن قارئ بالعربية أو الفرنسية ، خالية من الحشو ومن التعقيدات ، بعيدة عن التكلف والمحسنات ، تصل إلى هدفها بلا لف ولا دوران ، وتفعل فعلها في السمع والقلب لحنيتها وصدقها ؛ وقدرة غير مألوفة على الارتجال والحديث الذي يبعد عن أسلوب الخطابة بغير إقبال على السامع . فقد كان خفيف الظل ، حسن المدخل إلى القلوب ، حساساً لماحاً ، مجاملاً يعرف الكلمة التي تستميل القلب ، وتجذب السمع ، مع الإقناع ، وإثارة الشعور بصدق صاحبها .

سادساً - كان قائداً موهوباً ، يعرف كيف يجمع القلوب ولا ينفرها ، ويحكم العلاقات والصلات ولا يمزقها ، ويستثير نشاط إخوانه ، ويوجههم دون أن يحسوا بأنه يدفعهم أو يخرجهم أو يورطهم . وقد جمع حوله بهذه الموهبة أشخاصاً يتنافرون بطبيعتهم ، منهم الغنى واسع الثراء ،

والصغار الفقراء ، والعلماء المشهورون والطلاب المبتدئون ، وأهل الحضر وأهل الريف ، ورجال الدين ، ورجال القانون ، والمصريون والشرقيون ، والأجانب والمتمصرون ، والمتطرفون والمعتدلون والمحافظون .

سابعاً - كان يفهم أن الدعاية ليست كلاماً يقال ، ولا كتباً توزع ، ولا مؤتمرات تعقد ، وإنما مخاطبة مدروسة ، بمصالح الذين يتحدث إليهم ، يخطب فيهم ، وهو عارف مشاعرهم وميولهم ، فيثير في نفوس كل منهم الاهتمام به ، والحرص على نجاحه ، لأنه يحقق لبلائهم ، مصلحة أو يدفع عنها شراً .

وقد كان أول آيات توفيق «مصطفى كامل» أنه عرف «عبد الله النديم» الخطيب والكاتب والشاعر والزجال والصحفي والمهرج الذي سبق الثورة العربية إلى العمل السياسي ، ثم صاحبها ، يخطب لها ، وينشر الصحف ، حتى إذا ما أخفقت ، لم يسلم نفسه للغاصب الأجنبي ولا للحاكم المصري ، وإنما ما توجبه الفطرة السليمة ، فقد اختفى حتى هدأت الفتنة ، وذهب الروح ، واطمأن الحكم الجدد نوعاً ، فخرج لا يلبس جاهاً ، ولا ليخطب ودّاً ، بل ليستجيم قليلاً ثم يعاود النفخ - في حذر واتشاد أول الأمر - في نار الثورة تحت رمادها . اختفى عبد الله النديم تسع سنوات والحكومة تبذل أقصى الجهد لوضع اليد عليه ، حتى عثرت عليه في ناحية السنطة بمحافظة الغربية فساقته الشرطة ، بغير إهانة ، إلى وكيل النيابة قاسم أمين فأحسن استقباله ، وطمأنه وداوم السؤال عنه ، وأخرج عبد الله النديم جريدته «الأستاذ» ، وتداولتها الأيدي ، وقرأها مصطفى كامل ، وسعى إلى صاحب «الأستاذ» فاتخذته أستاذاً . ولما أصدر مصطفى كامل مجلة المدرسة أحسنت استقبالها جريدة «الأستاذ» في الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٣ ، ونوهت بها ، بعد عشرة أيام من صدورها . ولو بقي عبد الله النديم في مصر لاستعان به مصطفى كامل في اجتماعاته ، ولا ستكتبه في جرائده ، ولكن اللورد «كرومر» لم يطق حيوية عبد الله .



النديم وقوة لسانه أكثر من سنتين ، ثم نفاه في ١٣ من يونيو سنة ١٨٩٣ ،  
فغادر النديم بلاده ولم يعد إليها ، فقد لقي ربه في تركيا .

ولكن اتصال مصطفى بعبد الله النديم كان له أكثر من معنى . وكان  
أجل هذه المعاني ، وأسمائها اتصال الثورات ، وانتقال الشعلة من يد إلى  
يد ، ومن جيل إلى جيل ، لا تنجو ولا تسقط ، فقد كان مصطفى كامل  
تجسيدا لروح الثورة الحقيقية في حركة عرابي ، التقطها من أعظم ثوارها  
عبد الله النديم .

وقبل أن ينزل مصطفى كامل قاربه في بحر السياسة المصرية الهائج  
المضطرب تتلمذ على جميع الزعماء السابقين الذين كانوا يرقبون الأحداث  
من هزيمة الثورة العرابية ويحترون الألم ، وينتظرون طلوع الفجر ، ويقلبون  
النظر في الأمور ، ويتمنون خروج رجل من بين الألوف ، وقد مر بنا  
أن مصطفى أرسل إلى صديقة فؤاد سليم يقول إن أحد رواد ندوة والد فؤاد  
سليم قال لمصطفى يوما : ألا يخرج من بين المصريين فرد واحد ؟ فسأله  
مصطفى : وماذا يفعل هذا الواحد ؟ أجابه : الأصل في كل الأمور واحد .

وبمثل هذه الحواطر ، وعلى نارها الهادئة نضج وجدان مصطفى ونضج  
عقله للأحداث التي تجري حوله ، وساءل نفسه « أأكون أنا ؟ .. أأكون  
هذا الواحد ؟ .. »

قال لنا على فهمي كامل شقيق مصطفى في كتابه عنه :

« في هذه السنة - ١٨٩٤ - وإلى الفقيه زيارته لصديقة فؤاد بك  
سليم ، بمنزل المرحوم والده في سوق السلاح حيث كان يجتمع أعضاء  
الحزب الوطني ، لأنه كان من ذوى النفوس الكبيرة العالية فضلا عن  
تضلعه في العلوم والمعارف على اختلاف أصنافها ونظرة البعيد في عواقب  
الأمور . . . وكان المغفور له لطيف باشا سليم يرى أنه لابد من تكوين  
حزب منظم يعمل لصالح البلاد ، ويدافع عن حقها وكرامتها أمام  
أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، وكان هذا الحزب العظيم يضم بين أعضائه

الصحفى الماهر والخطيب المفوه ، والقاضى العادل ، والقانونى البارع ، وكلهم كانوا من نخيرة رجال مصر . فانضم المرحوم مصطفى كامل إلى هذا المجتمع وهو فى السنة الثامنة عشرة فرحاً مسروراً ، لأنه كان لا يزال من طلاب العلم ، وأولئك مشهورون ، فأخذ يكتب فى الجرائد المقالات وينشر الأحاديث .

فى ٢٨ من مارس سنة ١٨٩٧ أرسل مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم يقول لها : « إني ما يئست قط من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة رسالتنا ، لاسيما أن الوطنيين المصريين مستعدون الآن ، ولنا حزب سرى مخلص للغاية ، وهو على استعداد لتضحية ذاته فى سبيل الوطن المقدس » .

يعنى هذا عندى أن مصطفى كامل فهم الدعاية أو الدعوة على وجهها الصحيح ، فهى أولاً ، وقبل كل شىء عمل سياسى منظم أو أدنى ما يكون من التنظيم والاستعداد للكفاح ، يبدأ بالقلة ثم يزيد مع الأيام اتساعاً ، يكسب كل يوم أنصاراً ثم كلام يوجه إلى الأصدقاء والأعداء معاً . . .

فالدعاية ليست مجرد كلام ، والكلام ما لم يكن لثأره وعاء يحتويها ، وينتقل بالحركة خطوة فخطوة ، وما لم ينتج بالقدر المطاوب على الوجه المقصود ، ذهب هباء فى الهواء . وقد عرف مصطفى كامل وهو فى هذه السن المبكرة رجالاً من ذوى المكانة وجالسهم وتحدث إليهم وتحدثوا إليه ، وأنت تعجب كيف استطاع مصطفى ، فى هذه السن فى وقت كان المجتمع فيه محافظاً ، يجعل للسن مقامها ولا يسمح للصغار بمجالسة الكبار ، فإذا جلسوا معهم وجب على الصغار أن يلتزموا الصمت ، فلا يشاركوا فى حديث ، ولا يوجهون سؤالاً ، ولا يستحسنون جواباً .

ولو قرأت أسماء أصدقاء مصطفى فى تلك الفترة أوشكت أن تكذب ما ذكر عنه فى هذا الصدد ، فقد عرفه خليل أفندى مطران الشاعر

ومندوب جريدة الأهرام في الإسكندرية إلى بشارة تقلا باشا صاحب الأهرام عقب حصول مصطفى على شهادة الثانوية العامة ، فاحتفى به (الباشا) ، وأفسح له صدر جريدته . ثم عرف مصطفى كامل بعد ذلك أعيان مصر وزعماءها أمثال أمين باشا فكري مدير الدائرة السنية السابق ، وإسماعيل باشا صبرى وكيل وزارة العدل (الحقانية) ، ثم محمد بك مجدى المستشار بمحكمة الاستئناف ، ومحمود بك سالم القاضى بالمحكمة المختلطة ، والشيخ على الليثى الشاعر ، وكان قد عرف من قبل على باشا مبارك ، وفى دار لطيف سليم عرف أحمد بك الصوفانى عضو الجمعية العمومية ، وابنه عبد اللطيف بك الصوفانى ، وحسن باشا عبد الرازق عضو مجلس شورى القوانين ، وإسماعيل بك شيمى المحامى ، والقاضى سابقاً بالمحاكم المختلطة ، ومحمد بك فريد رئيس قلم قضايا الدائرة السنية ، ومحمود باشا شكرى . وهؤلاء قدموه لغيرهم ، ومن هؤلاء وهؤلاء عرف مصطفى الكثير عن أحوال بلاده قبل أن يتسبب عن الطوق ، فقد تحدثوا عن مشاهداتهم وذكرياتهم عن عهد إسماعيل وعهد الثورة العرابية ، وكان بعضهم قد سافر إلى أوروبا وتجول فيها ، فقارنوا أمامه بين ما كان يجرى في مصر وما كان يجرى في تلك البلاد . . . وهذا هو الزاد الحقيقى للداعية . أن يعرف البيئة التى يتحرك فيها ، وأن يقف جيداً على ما يفكر فيه الناس الذين سيتحدث إليهم ، ويدرك مزاياهم وعيوبهم ، ويحيط تماماً بما يستطيعون أن يقدموه وبما يعجزون عن تحمله أو الإقدام عليه ، ثم يعالج هذا كله ، فيزيد من الانتفاع بالمزايا ، ويقلل ما استطاع من أثر العيوب ، ويضم الأرباع والأنصاف والأثلاث بعضها إلى بعض ، ليخلق منها أعداداً صحيحة ، فالخطيب الذى يتكلم ولا يعمل ، إلى جانب الذى يعمل وحده ولا يطبق الآخرين ، وصاحب الجاه الذى يبخل بماله ، ومن تعوزه شجاعة القلب ، ولكنه لطيف الطبع ومحبيب إلى الناس . . هؤلاء جميعاً لا يهتمهم الداعية ، غير باحث عن الكمال المطلق فى الأشخاص



والأشياء وإلا فلا يعمل شيئاً .

ولقد أتاح لنا مصطفى كامل ، في وقت مبكر من نشاطه الدعائي ، أن نعرف أسلوبه في الدعوة ونظريته إلى الدعاية الناجحة المثمرة ، وذلك بالحديث الذي أجراه في يناير سنة ١٨٩٥ مع الكولونيل « بارنج » شقيق اللورد « كرومر » المعتمد البريطاني في مصر ، فقد ألقى أولاً في وجه هذا الإنجليزي المعتز باستعمار بلاده ، وقوة سلطاتها ، وبقدرة رتها على إخافة أولياء الدول الكبرى ، ألقى في وجهه بتصريحات الساسة الإنجليز المتكررة أمثال اللورد ليون سفير بريطانيا في فرنسا سنة ١٨٨٢ ، واللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا ، والمستر جلادستون وزير خارجيتها أيضاً ، واللورد دربي واللورد سالسبوري ، كلها ناطقة بتعهد هؤلاء الساسة الكبار بأن الاحتلال البريطاني مؤقت ، وأن الجلاء عن مصر آت بغير شبهة ، ولكنه لم يقنع بهذه التصريحات ، وإنما انتقل منها إلى شيء آخر ، حينما قال الكولونيل يارنج ضاحكاً على كلام مصطفى : ومن لكم ياترى من السفراء في أوروبا حتى تحلم بقرب الجلاء ، فأجابه مصطفى في الحال :

« لنا أوروبا بأسرها التي تناديها مصالحها العديدة بأن تنصرنا عليكم كما تنصر تلك المصالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تفويض أركانها .

فقال الكولونيل : اصرفوا عن أوروبا أممكم ، فإننا نرضيها بالأراضي الكثيرة والأملاك الواسعة . ويعقب مصطفى على هذا بجملة اعتراضية : « كأن إنجلترا ملكت الأرض وما عليها » .

ثم يرد مصطفى على الضابط البريطاني : لنتفق جدلاً على ذلك ، ولكن هل نسيت أن في حمايتكم لمصر ، ووضع يدكم عليها ، ضياعاً للموازنة الأوربية التي تعمل كل دولة للمحافظة عليها ؟ ومهما قدمتم من الهدايا لبعض الدول ( علماً بأنكم لستم المتصرفين في كل الأرض ) فهل تحسبون أنها تقوم لديها مقام ( مصر ) طريق الشرق الأقصى

وأعظم المستعمرات الأوربية ؟ . . ولم ساعدت فرنسا الولايات المتحدة وطردتكم ؟ أكانت مصالحها هناك أكبر من مصالحنا ؟ ولماذا قامت أوروبا مرة واحدة لمساعدة اليونان ؟ .»

فالدعاية عند مصطفى كامل ليست مخاطبة للمشاعر الإنسانية عند الدول العظمى ولا هي استجداء للكرم الإنساني ، ولا إثارة للعطف على المظلومين ، وتحريكاً للضمير ضد انتهاك المعاهدات وخيانة للوعود الدولية . . ولو قبل ذلك لكان ساذجاً ، ولما كان لديه الأمل الذي كان يدفعه في بعض الأحوال إلى الظن بأن الجلاء واقع بعد سنة أو بعض السنة كما سئى . ولم يكن في هذا حالماً ، بل كان دارساً حاسباً لعملية توازن القوى الدولية والصراع بين المصالح الكبرى المتباينة والمتعارضة .

وقد يكون في تصويره للأمور في هذا الحديث ، الذي وقع في السنة الأولى أو الثانية لنشاط مصطفى خارج بلاده تبسيط أكثر مما يجب ، أو سذاجة لا بد أن تكون نصيب التفكير السياسي المبتدىء ، ولكن التفكير في جملة صححيح وقوامه العناصر التالية :

أولاً - فهم تام لتطور الموضوع الذي يناقشه ، واستدكار لما يتصل بهذا الموضوع من معاهدات وتصريحات وأحداث .

ثانياً - إظهار الجانب الأدبي للمسألة وبيان حقوق المصريين من حيث كونها حقوقاً دولية ، وأسانيدها من مبادئ الحق الطبيعي ، لا للتوقف عند هذا الحد ، بل للانتقال منها إلى الجانب العملي .

ثالثاً - بيان المصالح الدولية التي تقف في وجه بريطانيا ، والتهديد بالاستعانة بأصحاب هذه المصالح .

رابعاً - إعلان أن المصريين لا يستسلمون للاحتلال ، ولا يقبلونه وأن مقاومته تزيد مع الأيام .

ولاشك أن هذه هي الخطة المثلى ، فمصطفى كامل ، حينما كان يقصد فرنسا ، لم يكن يطلب منها على سبيل الصدقة والإحسان أن تقف

مع مصر ضد بريطانيا ، بل كان يقصدها لأن فرنسا بطبيعة الأمور ، ولغيرتها الشديدة من الاحتلال البريطاني ، ولجزعها المستمر على مصالحها الاقتصادية ومركزها الثقافي ، تؤيد كل قول وعمل ضد هذا الاحتلال ، وهي حينها ترى خصوم الاحتلال يتكاثرون يداخلها سرور عظيم ، فما كان مصطفى كامل حالمًا ولا واهما ، ولا خادعًا لنفسه ، ولا موهومًا لمواطنيه حينما كان يمنيهم بمساعدة فرنسا بلجهاد مصر ضد الاحتلال البريطاني وعطفها على حركة مصطفى كامل ونشاطه ، فإنها أفسحت له صدور جرائدها الكبرى ، وأتاحت له منابر في جمعياتها ودورها وندواتها يخطب فيها ويندد بالاحتلال البريطاني ، ويشير فزع الفرنسيين كلما ضيقت بريطانيا على ثقافة فرنسا ولغتها الخناق ، أو لما طردت عميداً ، فرنسيًا لمدرسة عالية ، وعينت مكانه آخر بريطانيًا ، أو قللت عدد الدروس الفرنسية ، أو استبعدت اللغة الفرنسية تمامًا من التعليم في مصر .

وليس صحيحًا أن مصطفى كامل كان يعقد أمله كله على فرنسا ، فما من سنة سافر إلى باريس إلا قصد بعدها إلى عواصم اللغة الألمانية برلين وفيينا ، وتخرج منهما إلى بوادبست ، وكان له في جميع هذه العواصم أصدقاء من الصحفيين والساسة والنواب والشيوخ ، بل إنه آخر الأمر قصد لندن نفسها عقب حادثة دنشواي في ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ .

ولسنا قادرين على أن نتابع جميع أعمال مصطفى كامل في حقل الدعاية ، ولكن يمكننا أن نقول كلمتين في خطابه إلى المستر جلادستون في الثاني من يناير سنة ١٨٩٨ . ونذكر القارئ الكريم بما جرى في هذا الخطاب ، فقد أرسل إليه مصطفى كامل في هذا التاريخ رسالة يقول له فيها : لقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء ، وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل



مصر إلى أجل غير محدود، فإن هذا يمس شرفها أشد المساس... وإننا سجلنا كل تصرّحاتكم وحفظنا مجاهراتكم، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها بالكلية، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن، أي أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد هو الجلاء» . . .

فرد عليه جلا دستون في ١٤ من يناير، وكان في مصيف ببارتز قائلا :

«إني أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم بصفة كونكم مصريين ولكنني مجرد بالمرة عن كل سلطة و... أما آرائي فإنها لم تتغير قط، وهي دائماً أنه يجب علينا أن نترك مصر، بعد أن نتمم فيها بكل شرف، وفي فائدة مصر نفسها، العمل الذي من أجله دخلناها. وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافي منذ سنين .

هاتان الرسالتان كانتا من ضربات مصطفى كامل الموفقة، ولكنه مع ذلك عمل مدرّوس لم يكن ضربة حظ، والألفاظ القليلة الواردة في خطاب مصطفى تدل على فهم سياسي دقيق خال من كل تزويد، وكل بالغة وكل تفريط .

ولقد رد جلا دستون على مصطفى كامل لأمر عديدة قدرها جميعاً مصطفى وهو يكتب رسالته . أولها أن جلا دستون لا بد قد عرف من هو مصطفى كامل، وأدرك بما نشر له في صحف فرنسا وما نشر عنه منها أنه الصوت الجديد لمصر الفتية الراضية للاحتلال، فالرد عليه رد على شخص ذي قيمة، هذا أولاً، ولما كان البريطانيون حريصين — لا سيما مع الشرقيين — على الظهور بمظهر الديموقراطيين الذين لا يدعون رسالة تغير رد ولا سؤالاً بغير جواب، فمن مصلحة جلا دستون الشخصية أن يبدو في هذا المظهر . ولما كان هو خارج السلطة، ويهمه أن يقول شيئاً يدافع عن سياسته يخرج به خصومه، فله مصلحة في ألا يدع هذه الفرصة

تمر دون أن ينتفع بها . وقد كان .

أما مكاسب مصطفى كامل السياسية والدعائية من هذه الرسالة والرد عليه فقد فاقت كل حساب . كسب مصطفى شخصياً كسياسي وكداعية ، إذ رد عليه شيخ من شيوخ السياسة البريطانية ، ورئيس وزراء سابق ، وزعيم لحزب الأحرار ، والشخصية المقابلة لشخصية دزرائيلي زعيم المحافظين .

وكسب إذ ظفر بتصريح من رئيس وزراء بأن ( زمن الجلاء وافي ) فلا داعي إذن لليأس من الجلاء ، كما يحاول أصدقاء الاحتلال من المصريين والأجانب على السواء ، أما الكسب الأكبر فهو ما أثارته رسالة جلادستون لافي فرنسا وحدها بل في بريطانيا نفسها ، فقد اهتز وقار التيمس شيخة الصحف البريطانية وأكثرها تحقيقا ومحافضة ، فقد حمل مندوبها في باريس على جلادستون ومصطفى كامل معاً ، فسلكهما في حبل واحد ، وكتبت الديلي تلجراف والديلي مستجر وسان جيمس جازيت وذى جلوب وقد كان المعهود بصحيف بريطانية أن تتغاضى عن كل شيء يجري في مصر ، لاسيما إذا كان بطل هذا الشيء مصرياً ، وكان من خصوم الاحتلال ولكن مقام جلادستون حملها حملاً على أن تخرج على موقفها التقليدي ، أما فرح الجرائد الفرنسية والألمانية والنمساوية بهذا الحديث فحدث عنه ولا حرج ، فقد كتبت الإكلير ، ولا بولوتيك كلونيال ، والديبا ، والفيجارو ، والبوست ، ولوسوار والموند . .

ولم يكلف مصطفى كامل هذا النجاح شيئاً إلا بضعة سطور ، وثمن طابع البريد ، وهذا هو النجاح الدعائي والسياسي الرائع . ولو أردت أن تعرف مقدار هذا النجاح ، فقلب الصحف البريطانية بعد سنة ١٩٢٠ ، بعد أن خمدت جذورة ثورة سنة ١٩١٩ ، وبعد أن تحول الأمر كله في مصر صراعات حزبية ، وحرباً داخلية ، فإنك لن تجد بها أثراً لعمل مصري ولا لرأي سياسي فيها ، بل إن الدعاية الحزبية التي كانت تقوم

بها الأحزاب في لندن الواحد ضد الآخر فكانت تكبد المصريين ألوف الجنيهات ، ولا تحرك في الوسط البريطاني ساكنا ، وقد بلغ من كثرة الأموال التي تنفقها الأحزاب المصرية على الدعاية في لندن ، أن قال بعض أصحاب جريدة الديلي هيرالد المناصرة لحزب العمال البريطاني ، إنه لولا أموال الوفد المصري ، لأغلقت جريدتهم أبوابها ، وبعد ذلك بسنين قال أصحاب جريدة الديلي تايجراف ، إنه لولا مساعدة إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء المصري المالية لها ، لأفلست .

بل إن الأمر انتهى إلى التعاقد مع سناتور أمريكي ، أي عضو مجلس شيوخ وهو المستر « فولك » ليدافع عن القضية المصرية في أمريكا مقابل أجر يدفع له ، ولما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ طالب بباقي الأجر باعتبار أن هذا التصريح أعلن استقلال مصر ، وقد كان مؤخر أتعابه مشروطا بحصول هذا الاستقلال .

وتمكننا أن نتخذ من رسالة مصطفى كامل الصغيرة التي عنوانها « أخطار الاحتلال البريطاني » الصادرة في ٨ من أغسطس سنة ١٨٩٥ ، نموذجا ثانيا لأسلوبه في الدعاية التي لا تهمل الجانب الأدبي والأخلاقي ، للمشكلة التي يتناولها صاحب الرسالة ، ولكنه ينفذ فوراً إلى جانب المصلحة التي يوجه إليها الحديث ، فقد استعرض مركز مصر وأهميته للعالم قاطبة وأظهر للقارئ ، بأن بريطانيا بفضل وجودها في مصر ، ستكون قادرة على بسط نفوذها على أفريقيا من البحر الأبيض إلى رأس الرجاء الصالح ، وأن ذلك سيفضي إلى أنها ستكون صاحبة التجارة الأفريقية والآسيوية الأولى ، هذا إلى جانب وضع يدها على جبل طارق وعدن ومالطة وقبرص مما يجعل البحر الأحمر بحيرة إنجليزية ويحول لبريطانيا التصرف المطلق في قناة السويس ، وتهديد سوريا ، ومراقبة الخطوط البحرية بين الدول العظمى ، فأى دولة ترضى بأن تظل مصر تحت أغلال الاحتلال ، وما من حكومة تستطيع بعد أن وقفت على هذه الحقائق الخطيرة أن تلتقي عن عاتقها



## مقاومة هذا الاحتلال ؟

فمصطفى كامل لم يدع القارئ الأوربي يفرغ من رسالته حتى يثبت في يقينه بأن الاحتلال البريطاني خطر عظيم على السلام بأسره ، وأن الذين يقاومون هذا الاحتلال لا يؤدون واجبا نحو العدالة والشرف الأوربي فحسب ، بل إنهم يعملون للسلام العام ، ثم لاتحاد المسيحية مع الإسلام ، وقصارى القول أنهم يساهمون في نصرة المدنية .

وأحسب أنه لا يمكن أن يفوت القارئ العربي ، أهمية هذا الكلام . فاتحاد المسيحية مع الإسلام ، كان معنى غير مطروق في تلك الأيام ، وكان يحمل في طياته من الأفكار السياسية والثقافية شيئا كثيرا ، ينبه أذهان الساسة إلى قيمة مصر وقيمة الشاب الذي يتحدث باسمها والذي وضع هذه الرسالة . ولقد أكسبت هذه الرسالة ، مصطفى كامل صداقة غالية ونافعة له ولبلاده ، وهى صداقة مدام جوليت آدم التى قالت إنها لم تقرأ — على كثرة ما قرأت — شيئا عن الاحتلال فى مصر فى مثل نصبح رسالة «أخطار الاحتلال البريطانى» وقوة حجتها . ولو حسبنا المكاسب المادية والأدبية التى حققها مصطفى كامل بعقد صلته بهذه الكاتبة الكبيرة ، صاحبة المقام العظيم ، بمجرد إهدائه إليها هذه الرسالة التى لا تزيد عن عشر صفحات ، لوجدنا أنها تساوى عشرات الألوف من الجنيهات ، لأنها فتحت له أبواب الصحف ، يكتب فيها بلامقابل ، وقدمته إلى عشرات من ذوى رأى والقيمة فى الحلبة السياسية .

ولقد أتاحت لنا الرسائل التى نشرت أخيراً ، والتى أرسلها مصطفى كامل إلى صديقه توفيق أحمد<sup>(١)</sup> وإلى صديقه فؤاد سليم<sup>(٢)</sup> نظره أكثر عمقا إلى أسلوب مصطفى كامل فى الدعاية ، إذ قال فى رسالة فى بداية سنة ١٨٩٥ من باريس :

( ١ ) صحف مطوية عن تاريخ الزعيم مصطفى كامل .  
( ٢ ) رسائل تاريخية من مصطفى كامل إلى فؤاد سليم الحجازى .

أحب أن أشرح لكم دور المسألة المصرية هنا وأحوال الجرائد ورجال السياسة فأقول : إن لمصر نصراء عديدين جداً ، وكلهم يعتبرونها كالألزاس واللورين (١) أهمية وحضارة بل يقدمونها عليهما . ولكن كل الرجال السياسيين وغير السياسيين يجهلون تماماً ما يحدث عندنا ، وعندما أشرح لهم بعض الأحوال تراهم يستغربون ويزدادون حنقاً على الإنجليز ، وقد وعدني الكثير بكتابة الفصول الصحفية وبعمل الأحاديث معي ونشرها في الجرائد ، ولذلك أرى أن وجودي هنا له أهمية كبرى ، وأن نشر جريدتي يكون عنوان الفلاح . وسأزيد الحقائق نشرًا بالرسائل التي سألقيها في المنتديات والجمعيات ، وأما الجرائد فمستعد لخدمتها أحسن خدمة ، وقد دعوت الكثير من أصحابها للقاء معي ولا طفتهم حتى خلعت عقولهم بحسن الخطاب والاستقبال والاحترام . وكلهم مائلون لمصر . ولو أن هذه الولائم تكاف مصاريف كثيرة فلاني مع الحكمة في صرفها أراها أنفع ما يصرف ، ولايضاح الحقائق أقول لكم إن بعض الجرائد يطمع في الدراهم وقد لمح لي بذلك بعض أصحاب الجرائد ، ولكن إن قضت الظروف بشراء بعضها فإنها تكون المهمة منها وذلك لانتكالم عنه إلا عند اللزوم . أما رجال السياسة هنا وأصحاب النفوذ فقد عرفت بعضهم ثم قال :

وفي الختام أريد أن أوضح لكم فقط سياستي .

أولاً : سياسة المسايرة والمسالمة والملاطفة مع كل الناس . .

ثانياً : التعارف مع من ينهم التعارف بهم وإهداؤهم الهدايا ودعوتهم لولائم عند اللزوم .

ثالثاً : نشر محادثات في الجرائد interview فإن لها نتيجة خطيرة وتأثيراً قوياً .

(١) إقليمان فرنسيان كانت ألمانيا قد ضمتهما إليها في أعقاب حرب

رابعاً : إلقاء الخطب في المتدييات ، وتكون محكمة وتامة ومملوءة بالسكون والحكمة مع القوة في البرهان والحجة وستكون أول خطاباتى إما في آخريونيه أو في أول يوليو .

خامساً : نشر رسائل متوالية عن المسائل المتعلقة بمصر ، وسأُنشر في النصف الأول رسالة عنوانها ( La danger de l'occupation Britanique en Egypte pour la monde entier ) أوضح فيها كل الأخطاء السياسية الكبيرة وهي مكتوبة حاضرة لتوزيعها لكل الرجال السياسيين المهتمين .

سادساً : سياحة في ألمانيا أقدم فيها نسخة من هذه الرسالة إلى البرنس بسمارك وأقابله وأسأله آراءه وإقامة أسبوعين في برلين أقابل فيها الإمبراطور إن تمكنت من ذلك وساعدتني الظروف ، وأقابل فيها رجال الجرائد والسياسة .

سابعاً : عقب هذه السياسة سياحة في سان بطرسبرج وهذه سهلة جداً لأن بتعارفى مع شيكولانيكولوفتش يمكن أن أقابل الرجال المهمين .

ثامناً : العودة إلى باريس في أوائل سبتمبر ونشر جريدتى أول أكتوبر بالفرنساوية والإنجليزية وتكون أسبوعية وفيها كل ما يحدث في مصر ، وما يكتب في الجرائد عندكم وكل ما يلزم كتابته ، وهي كما قلت تحتاج وحدها إلى ١٥٠٠ جنيه سنوياً على فرض أننا سنرسل منها ٣٠٠٠ نسخة لكل جرائد الدنيا الخطيرة وكل الوزراء وأعضاء المجالس النيابية .

وفي ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، قدم مصطفى كامل تقريراً إلى الخديو عباس ، يتضمن ما يقترحه في شأن الدعوة لمصر ، ننقل عنه :

« .... وأحسن ناموس يوصلنا إلى المراد ينحصر على ما أرى في الأمور الآتية :

اولاً : أن نسعى في تقوية تيار الحركة الحاصلة في أوروبا ( حركة العطف على طلب الجلاء ) وذلك لا يكون إلا باتباع طريق واحد لا يتغير وهو طريق التعجب إلى كل السياسيين ، وملاطفة أرباب الصحف والكتابة



والخطابة ونشر الرسائل العديدة عن مصر . . . . ولقد ظن بعضهم أن وجود لجنة فرنسية في باريس تشتغل بأمر مصر كاف للقيام بهذا الغرض وأن لا لزوم لوجودي في أوروبا ، مما أظن أن مولاي لا يوافق عليه أبداً لأن مقابلي للناس وتفهمي إياهم الأشياء والأمور الجارية في مصر ، ومطالبي بحقوق مصر ، وبصنعتي من أبنائها يحدث تأثيراً أكثر كثيراً من التأثير الذي يحدثه أبلغ الفرنسيين وأكتبهم كل يوم بأناس مختلفين روسيين كانوا أو ألمانين أو فرنساويين . ومهما كان الفرنسي صادقاً في خدمته لنا فلا يتصور العقل أنه يكون كمصري يتألم بآلام أمته ويحزن لحزنها ويفرح لفرحها .

ثانياً : استخدام كل الأجناس دون أن نفوض لأي أجنبي كان ، أمرنا ونستودعه أسرارنا لأن الأوربي مهما بدت عليه دلائل الصدق والإخلاص لسدة الأمير ولمصر فهو لا يبحث إلا عن منفعته الخاصة .

ثالثاً : التحجب لألمانيا والتقرب منها بكل الوسائل الممكنة ، وأرى التقرب منها سهلاً جداً إذا استحسن مولاي حفظه الله رأيي في استخدام جريدتين أو ثلاث ألمانية ثم زيادة ذلك بدعوة أولاد الإمبراطور غليوم إلى زيارة مصر في فصل الشتاء دعوة ودية بواسطة قنصل ألمانيا ، فإن هذا الأمر يقبله الإمبراطور بكل ارتياح أولاً لكونه صادراً عن سموكم ، وثانياً لأن إمبراطور ألمانيا يحب شهرة اسمه واسم عائلته في الشرق ، ودعوة كهذه تستميله ولا شك لنصرة مصر خصوصاً إذا عاد أولاده من مصر ومعهم الهدايا الشرقية النفيسة التي يهديها لهم سموكم .

رابعاً — استخدام بعض الجرائد الأوربية الخطرة من فرنسا وألمانيا والروسيا ، وأرى أنه يكفي من فرنسا استخدام جريدتين ومن روسيا كذلك ومن ألمانيا ثلاث على الأقل ويسير على استخدام كل هذه الجرائد لمالي من الروابط مع رجال التحرير في فرنسا ومع كثير من الكتاب الروسين والألمانيين ، ( فضلاً عن أني عازم على زيارة برلين في شهر أكتوبر

القادم إن شاء الله تعالى ، وأرى أن مبلغ ٧٠٠ جنيه يكفي لاستخدام أهم جريدة مدة عام كامل . واستخدام كل هذه الجرائد يكون دائماً باسم جمعية مصرية وطنية ، وأرى مع استخدام بعض الجرائد الخطيرة ، يجب استخدام بعض أفراد من كتاب أسرار ( سكرتيرى تحرير ) الجرائد الأخرى فإن بيدهم إدارة شؤون الجرائد والموظفين بها يكفي مبلغ زهيد لإرضائهم ، وربما تكفى هدية حسنة وهذا أمر يتعلق بالطباع والأميال .

وبهذا التقرير يضع مصطفى كامل سياسة عامة للدعاية فى أوربا ، تتناول الحكومات والصحف ، والنفقات اللازمة ، والأساليب التى يجب اتباعها لكسب تأييد هذه الصحف ، من هدايا حينئذ ، ومن أموال أحياناً ، ومصطفى كامل لا تشغله فرنسا وحدها كما يظن بعض الناس ومازال بعضهم على رأيه حتى الآن ، أخذاً بالظاهر من نشاط مصطفى كامل . ولكنه لم يكف عن لفت النظر إلى الاهتمام ببرلين وبطرسبرج ( لنتجراد الآن ) عاصمة روسيا ، بقدر الاهتمام بفرنسا ، واهتمام دولة ما بمصر يدفع الدول المنافسة إلى بذل اهتمام أكبر بها وهكذا .

ولقد أكد مصطفى وجوب أن يكون المتكلم أصلاً مصرياً ، وأن يكون الأجانب مساعدين ، لأن كلام المصرى عن وطنه أوقع ، لاسيما إذا كان الحديث عن استقلال مصر ، لا عن عمل تجارى أو اقتصادى . ويدل تفكيره على إصدار جريدة مصرية تنشر أخبار مصر — وترجم المقالات المنشورة فى صحفها ، على تقديره للمواظبة والمتابعة فى الدعاية ، وعلى طموحه ، إذ أن التفكير فى إصدار صحيفة ناطقة باسم مصر ، لم يخطر على بال أحد بعد ذلك ، لكثرة تكاليفه ، وضخامة أعبائه . .

## بلاغة الروح

كل ما يقوله مصطفى كامل ، وكل ما يكتبه ، تتخلله جاذبية ، ويرى فيه سحر ، لا تدرى بالضبط أين مصدره . فالألفاظ بسيطة ، وصياغته سهلة ، وأفكاره في متناول الكاتبين والقائلين ، ولكنها حينما يصف بعضها إلى جانب بعض ، ثم تتلى ، تحس أنها عمل ، تتقطع أنفاس الكاتبين المجيدين ، والخطباء المتمرسين دون الوصول إليه .

فخطابه إلى مدام جوليت آدم في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، مثال من هذه البلاغة الفريدة ، فهو يقول : « إني لا أنال صغيراً ولكن لي أطماعاً جماماً ، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة » .

إن هذه الألفاظ في جملتها ، فريدة بين أجمل القصائد بالعربية وبكل لغة أخرى . ثم قوله : يقولون إن وطني لا وجود له وأنا أقول ياسيدتي إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه .

هذا المعنى البسيط ، عميق وبعيد أيضاً . فالقول بأن وطننا ما لا وجود له ، وأن الدليل على كذب هذه الدعوى ، هو حب إنسان له هو أسلوب جديد لم يسبق إليه مصطفى أحد ، ولم يقلده فيه بعده أحد . ثم قوله : وقد قيل لي أكثر من مرة إني أحاول محالاً ، وحقيقة تصبو نفسي إلى هذا المحال . . .

وقول مصطفى كامل في ٤ من يونيو سنة ١٨٩٥ في اللوحة المقدمة



لرئيس مجلس النواب الفرنسي نموذج آخر من بلاغة :  
 إن هذا اللوح يمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على  
 حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما . ولقد برهنت الأمة المصرية  
 مع ما يعتورها من المصائب على سكينه وصبر عجيبين استمالت  
 بهما قلوب الأمم الأوروبية ، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة  
 بفرنسا ، هذه الدولة العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان . . . . .  
 ثم قوله :

على أن اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة  
 التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها . .  
 وانظر إلى رسالته إلى جلادستون :

« لقد سجلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد ( عن الجلاء ) ولو أنكم  
 لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يديكم لأسباب نجهلها  
 جهلا تاما فإننا لانزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف  
 الزمن .

وفضلا عن ذلك فإن تصريحا منكم في مسألة مصر ، يكون له  
 أعظم قيمة في هذه الأيام التي يحسب فيها الجمع الغفير من أبناء ديننا  
 المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام ، ولئن مع انتظار الجواب  
 على كتابي هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم  
 احترامي . . »

ومرضت والدتي مصطفى مرضا شديداً أزعجه فانقطع لتهريضها ،  
 وانصرف عن عمله وعن مكاتبة أمه الروحية مدام حوليت فكتب يعتذر لها :  
 « بأي حال أقدر أن أعتمد على صفحك بعد هذا السكوت الطويل ،  
 إنك كتبت إلى بأنه كان ينبغي أن أكون فارقت الحياة ، لتغفر لي ذنبي  
 ولكن لا ، هذا هو ذا سبب آخر لا بد أن تقبليه أنت المعدودة من خير  
 الأمهات .

والدتي العزيزة كانت مريضة طوال هذا الشتاء مرضاً في القلب،  
وهو ما أقلقني أربعة أشهر .

فهل أيجد اعتذاراً أروع ، وعبرة أبسط ، وألفاظاً أجمل .

تقول له مدام جوليت ، لم يكن هناك إلا عذر واحد يمنعك من الكتابة  
إلى ، هو أن تدون قدمت . ويقول لها كان هناك ، عذر أحق بالقبول ،  
وأجدر هو مرض أمي ، ياخير الأمهات .

أحسن ما يعتذر به لأم ، هو انشغال ابن بأمه . إن مرضها يساوى  
في نظره موته .

ولقد وصف لنا بعض انكتاب مصريين وأجانب شعورهم وهم يسمعون  
مصطفى كامل أو هم يقرأونه، أو هو يتحدث إليهم ، وسنقل إليك شيئاً  
مما قالوا ، لنرى أثر كلام مصطفى المنفوخ والمكتوب في النفوس ،  
قال محرر الإكلير بعد قراءة مجموعة ( مصريون وإنجليز ) التي صدرت  
في سنة ١٩٠٥ في ثلثمائة وعشرين صفحة ، تضم خطاب مصطفى كامل  
والرسائل التي تبودلت بينه وبين كبار السياسة بعد ترجمتها إلى الفرنسية (١) .

« إن فيها قوة وحملة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف  
وتهزها ، وتشعر اليد بارتعاش عند قلبها ، وإن القارئ عند ما يطالع  
هذه الخطب لا يقرأها في الحقيقة ، بل يسمعها ، لأنها بالغة في الحياة ،  
على الرغم من هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة ، وعلى الرغم من الحملة  
التي تلازم كل حب شديد ، فقد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ  
دائماً على الاعتدال ، ويقف عند الحد الواجب ، فهو حاد اللهجة ،  
وفي عباراته حركة شديدة أحياناً ، بحيث يشعر بأنها تجري وتعدو،  
وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج ، فيخيل إلى الإنسان

( ١ ) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - عبد الرحمن الرافعي

أنها ستأخذ في طريقها كل شيء ، ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة ، وفكر عال موجود ، فعبارات الخطيب تغلي كالماء ثم تجري واضحة رائعة تطرب القلوب وتنزل برفق ، ويتسع مجراها وتروى وتلطف ما تمر عليه .

ولقد أعطانا مندوب جريدة ( الريفورم ) التي كانت تصدر بالفرنسية في الإسكندرية صورة لمصطفى كامل الخطيب ، وأثره في نفوس سامعية ، وذلك يوم ألقى خطبة في ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ وهي الخطبة التي تعرف باسم خطبة الوداع <sup>(١)</sup> :

« لا يتاح للمرء كل يوم أن يحضر خطبة سياسية في مصر ، والحق يقال إن مصطفى كامل ؛ هو الذي اتبع طريقة : الخطابة ، وهو وحده الذي يسمعنا الخطب السياسية في مصر ، فكما رأينا منذ عشر سنوات في تياتروزينيا يخطب ، رأينا مساء أمس في التياترو نفسه خطيبا سياسيا ، وبديهي أن الصحفي لا يدع فرصة تنوته من هذا القبيل ، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان في مظاهرة وطنية ، أضف إلى حشد هذا العدد العظيم مع جمع من رجال الشرطة ، فالصحفي الذي لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفي مقصر في واجبات وطنيته » . وعلى هذا نقول لقرائنا إنه ما وافت الساعة الثامنة حتى تقاطرت جماهير المواطنين إلى تياتروزينيا فملأوا الألواج والكراسي وازدحم الملعب بهم أي مزدحم ، حتى لم يبق موطئ لقدم ، بل قد غصت المماشي والحديقة بالناس يأتون أفواجا حتى امتلأ بهم الشارع ، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين ،

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - عبد الرحمن الرافعي



قادمين من جميع جهات الوجه البحرى ، لسماع خطبة ( الرئيس ) كما يلقبونه بذلك ، وكان فى الحضور صنوة المحامين والأطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة ، فكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية .

« كان المنظر فخما جليلا ، منظر هذه الطرايش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه ، وبينها هنا وهناك بعض العمام البيضاء ، كان المنظر جامعا بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية . . إن أذن الأوربي المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لاتألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيراً بنبرات صوت الخطيب الشرقى وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين ، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا فى مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية ، وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى ، ولقد كان الخطيب جامعا لكل ذلك وتأثيره شديداً فى الحاضرين يمكن تبين أثره على وجودهم من دقيقة إلى أخرى ، كان تأثيره بحيث لم تكف الأيدى عن التصفيق له تصفيقا صادقا صادرا من أعماق القلوب خاليا من كل تملق » .

« إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين ، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة ، إن كلامه مؤثر فى النفوس تأثيراً عظيما . . . »  
ولخليل مطران الشاعر العظيم ، ومندوب جريدة الأهرام وصف مماثل لخطبة أخرى ننقله هنا (١) :

« أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر ، مجاور له ، أسمع منه مناداة حبابه ، ومناجاة نسمااته ، وأرى من حركته الدائمة

( ١ ) مصطفى كامل باعث الروح الوطنية - عبد الرحمن الرافعى -

المستمرة ما يخيّل إلى أن على ظهر كل موجة مهداً يهز صعداً ونخباً ، وأن في المهد امراً طفلاً سيكون بعد حين امراً كهلاً ، فهل ذلك الأمر الذى تهزه الأمواج ، وتغذيه الشمس ، تنميه الليالى ، سيكون أمنية مرجوة لمصر ، تتحقق ، وهل المناداة والمناجاة اللتان اسمعهما أول أصوات البشرى التى ستعلو بعد حين . ذلك ما أوهمتنى إياه خطبة مصطفى بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين ، أكثرهم من المصريين ، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف .

« وقف يتكلم فى الساعة التاسعة ، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس ، عشرات عشرات فى اللوجات ، جلوسا ووقوفاً : فى الكرسى وفيما بينها ، صامتين تشوقا إلى ما سيسمعون ، منتظمين انتظاماً طبيعياً ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب ، بل من هيبة الموقف ورجاء مانتوقع . ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدى ، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره ، وشدة إخلاصه ، معتبرين بما سمعوه ، من مؤثر العظات أعظم الاعتبار ، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهناؤه أحسن تهنئة ، ولا غرو فإنه صوت مصر الحى ولسان ضميرها المجاهد . »

وقد كتب الكاتب الفرنسى لوى برتران فى مجلة ( العالمين ) الباريسية ، واصفاً أثر مقابلاته لمصطفى كامل (١) .

« رأيت رجلاً صغير الجسم ، شاحب اللون ، خفيف اللحم تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبى المزاج ، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيباً فطرياً ، فكلمنى عن شئ من تاريخ حياته ،

(١) مصطفى كامل باعث الروح الوطنية - عبد الرحمن الرافى -

ومن عجيب ملاحظته أنه على الرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة من غير أن تتخذه صلة النسب أرفعة الرتب ، ثم إنه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة ، وعلى الرغم من أنى كنت وإياه وحدنا فى غرفة ، فإنه كان يخاطبني وكأنما هو يخطب فى جمع عظيم ، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيراً فى النفوس يضطرها إلى الاقتناع بما يقول ، حتى إنى لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادى بين الميل الغريزى إليه ، وما سمعته من قبل من خصومه ، على أنى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية ، قابلته مراراً وتحدثت معه كثيراً .

وعلى الرغم من أن كل الذين كتبوا عن مصطفى كامل الخطيب من مصريين وأجانب ، قد أجمعوا على أنه عظيم التأثير فى القلوب ، شديد التحكم فى سامعيه ، يستولى على ألبابهم ، ويحماهم على التعبير عن الاستحسان والاقتناع ، بالتصفيق والتهتاف ، وقبل ذلك - عن الاستماع والحرص الشديد على النظام ، على كثرة الذين تضمهم الأمكنة التى يخطب فيها مصطفى كامل ، فإن أحداً من هؤلاء لم يحدثنا عن خصائص مصطفى الخطابية من حيث الوقفة ، وأسلوب الإشارة وطريقة الأداء ، وتكييف الصوت ، وسرعة الكلام وبطئه ، وارتفاع الصوت وانخفاضه ، والتلاوة من الورق ، والارتجال ، وتدقيق الكلام أو تقطعه ، وتردد الخطيب فى بعض المواقف بحثاً عن اللفظ المناسب أو العبارة المطلوبة ، أو التاريخ الواجب ذكره ، أو الرقم الذى ينبغى لإيراده ، فحرمنا من الوقوف على صورة واضحة لمصطفى كامل الخطيب . . . . . إلا من حيث أثره المحجب ، وتفرد فى عصره ، بالمكانة الأولى بين الخطباء والمتحدثين . على أننا إذا أردنا أن نتلمس وسائل تعرف خصائص مصطفى كامل الخطابية ، فلا بد لنا من أن نرجع أول ما نرجع إلى ما كتبه أخوه على فهى كامل عن والدهما المرحوم على أفندى محمد ، الذى ورث مصطفى كامل



بعض صفاته : والواضح أن الوالد كان جهورى الصوت ، بحكم كونه ريفيا وضابطا ومدرسا ، ومهندسا مشرفا على تنفيذ أعمال يقوم بها جماعات عمال ، وواضح أنه كان عظيم للقصص يقص القصص على أولاده ، فملكة الراوية والحديث تواتيه ، وقد كان بارعا فى قص الحكايات يستهوى أسماع أولاده ، وأول ما كتب عن مصطفى كامل وخصائصه الخطابية ، هو ما نشره مندوب جريدة ( جازيت دى طولوز ) فى ٢٣ من نوفمبر سنة ١٨٩٤ فقد قال :

قال لنا مصطفى كامل بصوت عال وطلاقة نادرة ولغة صحيحة سهلة وسرعة مذهشة . « وقد نقلنا قول ( لوى برنران ) فيما تقدم وقد تحدث هو أيضا عن أسلوب مصطفى كامل الخطابى ، فى الحديث فقد كان يحدثه به وهما وحدهما فى غرفة ، خالية من الناس ، وكأنه يخطب جماعة . فن كل هذا يمكننا أن نقطع أن مصطفى كامل ، كان جهورى الصوت ، يملأ صوته المكان الذى يخطب فيه ، بحيث يسمع كل الحاضرين بغير وسيلة من وسائل تكبير الصوت وتضخيمه التى عرفت فيما بعد ، وبدون أدنى مشقة . وكان فوق جهارة صوته متدفق العبارة ، سريع الأداء ، وفوق كل هذا واضح مخارج الألفاظ إذ لو كان من لا يستبين السامع عبارتهم لكان الاستماع إليه . . . شاقا ولا أقبل الناس على خطبه وأحاديثه . قد كتب لأخيه يصف له كيف قام بتجارب عديدة فى حجراته بطولوز قبل أن يلقي خطبته الأولى ، والذى نتصوره ، أنه لم ينقطع عن هذه التجارب حتى بعد أن تمكن من فن الخطابة ، وبعد أن أصبح خطيبا مجيدا ، فإن خطاباته التى حفظت عنه ، ليست خطابات مرتجلة ، تماما ، وإن كان مصطفى كامل ممن لا يقرأون خطبهم ، فقد كان يتكلم منطلقا ، قد يستعين بورقة صغيرة فيها نقاط تذكره بمراحل الخطبة وعناصرها ، وربما ببدييات الحمل ، لكنه بعد ذلك يعتمد على ذاكرته وحافظته ، فهو يكتفى بإعداد الخطبة ثم تلاوتها فى خاوته

مرتين أو ثلاثاً ، في الأيام السابقة على الاجتماع ، فتثبت في ذاكرته وتجري على لسانه ، وربما أدخل عليها فور اللحظة من التعديل ما يقتضيه الموقف .

وعلى الرغم من حرارة خطبه ، وحرارة أسلوبه في الأداء ، وجيشان عاطفته ، فهو يخطب ، ويتكلم ، فإنه لم يكن من الخطباء الذين يبلغ بهم الانفعال إلى حد يخرجهم عن الوقار ، فحركات يديه وذراعيه ، مضبوطة ، وضربات قبضة يديه ، تتوالى أحياناً عند التأكيد أو الغضب ، ولكنها لا تبلغ مبلغ الأداء المسرحي ، الذي يتقاصر فيه الخطيب ، ويتناول ويتقدم ويتأخر ، ويحني رأسه ، وينفتح صدره ويأوى عنقه ويمط شفتيه ، ويعقد حاجبيه ويتظاهر بالضحك ، ويدعى البكاء . فهذه كلها آفات ، نجما منها مصطفى كامل ، فكان وسطاً بين الحرارة والاعتدال والتدفق ومزايآه الأخرى هي جهازة الصوت ، ووضوح مخارج الألفاظ ، والحماسة دون المبالغة المفسدة لوقع الكلام ، والمهذبة لكرامة الخطيب .

ومن أكبر خصائص مصطفى كامل الخطيب والكاتب والمتحدث سهولة ألفاظه ووضوح أفكاره ، وخلوها من الاستطرادات التي تشتت الذهن ، أو كثرة الأرقام والأسماء والتواريخ التي يثقل على الأذن التقاطها . إن خطب مصطفى كامل كانت لا تخلو عادة من أسماء وتواريخ ، لكنها في الخطبة الواحدة ، قليلة بحيث لا تتحول الخطبة إلى محاضرة . وأساليب مصطفى كامل في الكتابة والخطابة ، متقارب ، فهو إذا كتب خطب ، وإذا خطب ، كأنه يملئ مقالا ، وهذه حقيقة الكاتب الخطيب ، ويتقارب أسلوبه في العمل الأدبي المقروء أو الملفوظ .

ومن الأمور التي تستوقف النظر أن خطب مصطفى كامل خلت تماماً أو خلت تقريباً من الاستشهاد بالآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية ، ولم يستشهد من الشعر إلا بيت أو اثنين في مقالين من مقالاته مع أن العهد الذي كان يخطب فيه مصطفى كامل كان شديد الكلف

بالشعر ، وكانت كفاءة الكاتب والخطيب تقدر بكثرة ما يستشهد به من الآيات والأحاديث ، القول المأثور ، ويبلغ الإعجاب بهما ، إذا ضمن كلاماً قرآنياً من كلام الله تعالى أو أحاديث رسول الله ، فجرت في الحديث أو الخطاب ، كأنها جزء منه .

ومقالات مصطفى كامل وخطبه مقاطع بين الطويلة والقصيرة ، ولكن كل مقطع يتكون من جمل بينها فواصل ، يمكن الوقوف عندها ، والتقاط الأنفاس . لا يكرر الألفاظ الواحدة في خطبه ولا مقالاته وهو أسلوب خطابي معروف ، ولا عيب فيه ، ولكنه يكرر المعاني لاسيما ما كان منها متصلاً بفكرة الجلاء وجرائم الانجليز في مصر .

والأمر الثاني الذي يستوقف النظر في خطب ومقالات مصطفى كامل أنه على الرغم من أنه خاصم أقوى قوتين في مصر : الاحتلال والحديث ، وأنه نازل جميع الرجال ذوي النفوذ الذين لم يؤيدوا الحركة الوطنية ، أو مالوا إلى الانجليز أو أحسنوا الشهادة في الاحتلال أو ثبطوا همة المجاهدين المصريين ، وهؤلاء جميعاً من ذوي النفوذ والمكانة ، ولكنه لم يخرج قط عن حدود القانون ، وذلك لشدة اتزانه ، واعتدال مزاجه ، وتجرده من الغرض . والحق أن مصر والبلاد العربية ، وربما أكثر بلاد العالم لم تعرف خطيباً في مثل مكانة مصطفى كامل وعظيم أمره وكثرة أتباعه ومؤيديه ، عاش ومات دون أن يكون سباباً أو فحاشاً ، أو خادشاً للحياء أو جارحاً للأذن ، أو مثيراً للاشمئزاز أو الامتناع ، وعلى العكس كان صوته وكلامه ، وصورته ، باعثة على الحب له ، والافتناع به والاطمئنان إليه .

وقد جرت كثير من ألفاظه وعباراته على ألسن المصريين ، وعاشت بعده زمناً طويلاً ، ولا تزال ألفاظه دون جميع الخطباء العظماء الذين عرفتهم بلادنا ، مصدراً لإلهام الشعراء والموسيقيين والملحنين والفنانين . ومن أقواله المأثورة المحفوظة : لو لم أكن مصرياً ، لوددت أن أكون مصرياً .



أحرار في بلادنا كرماء لضيقنا .  
 بلادى بلادى لك حبي وفؤادى .  
 لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة .  
 إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدا الدهر مزعزع  
 العقيدة سقيم الوجدان .  
 لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين ، أو تحولت الأهرام عن مكانها  
 لما تغير لي مبدأ ولا تحول لي اعتقاد .  
 إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن  
 نرى من الآن الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة  
 ثابتة .  
 مهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق  
 وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف ، ولا نقول أبداً : طال  
 الانتظار .  
 لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحداً بعد واحد ، لكانت  
 كلمتنا لمن بعدنا :  
 كونوا أسعد حظاً منا ، ليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على  
 أبديكم .

## أصول وبنود

كان هدف مصطفى كامل ، الأوحـد والأسمى ، هو جلاء الجيوش البريطانية عن مصر ، « الجلاء أولا ، ثم الاستقلال . فالجلاء عمل مادي ، لا خلاف عليه ، لا تخطئه العين ، ولا يختلف في شأنه الناس ، أما الاستقلال ، فكلمة مطاطة يمكن معها للمحكومين المغلوبين على أمرهم أن يعرفوا بأنهم مستقلون ، ومهماز الحاكم الأجنبي يخز جنوبهم ، وثقله يؤود ظهورهم — وقد استقلت مصر ثلاث مرات : مرة في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، حينما صدر تصريح ٢٨ فبراير من تلك السنة ، وأعلن أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتحول لقب حاكمها ، من سلطان إلى ملك ، وأصبح لها دستور ومجلس تشريعي ، وسفراء يمثلونها عند ملوك العالم ورؤسائهم ، ثم استقلت مصر مرة ثانية في ٢٦ من أغسطس سنة ١٩٣٦ ، ثم استقلت مرة ثالثة في سنة ١٩٥٤ ، ولكن لم يكمل استقلالها إلا حين جلا الإنجليز للمرة الثانية في ديسمبر سنة ١٩٥٦ في أعقاب حرب .

ولكن مصطفى كامل ، كان يعلم أن هدفه العزيز والغالى ، يمكن الوصول إليه بأهداف مرحلية ، لا تغنى عنه ، ولا تحل محله ، ولكنها تجعله أقرب منالا ، وتجعل الشعب لمتاعب الجهاد أعظم احتمالا ، وتضييق على الغازى الغاصب الخناق ، وتجرده من بعض سلاحه ، وتحرمه من فريق من أعوانه وأنصاره .

ولذلك دعا مصطفى كامل وعمل لأهداف أخرى عديدة كان

سباقاً في الدعوة إليها ، مهد لها الطريق ، وبذر بذورها ، وأرسى أصولها .

والحقيقة أن مصطفى كامل ، تكلم وكتب ، وفكر في كل ما يهم مصر ، وما يحقق لها الثروة ، ويوفر لها المتعة ، ويرسم لها طريق النجاح .

ألقى بذرة الدستور ، وألح في الدعوة . وبقي أملاً من آماله .  
وألقى بذرة الجامعة ، ونبه الأذهان إليها ، وبقيت حلمًا من أحلامه .  
وألقى بذرة التعاون ، وكشف للناس فضائله ، وكان رائد التعاون تلميذاً من تلاميذه .

وألقى بذرة اتحاد طلبة الجامعة ، وتحققت فكرة لعهد في أيامه .  
وألقى بذرة التعليم القومي ، الذي يقوم على التربية ، لا على التلقين ، وضرب للناس مثلاً في ذلك الميدان .

وألقى بذرة العمل الحر ، ونفر الناس من الوظيفة الحكومية ، وهاجم التهافت عليها والترامي على أعتاب الحاكم .  
وألقى بذرة الصناعة والتعليم الصناعي . وصور للشعب ثمارها وثماره ، وأغرى بالتفكير فيهما ، والسعى إليهما .

وألقى بذرة تمجيد عظماء مصر ، وتخليد أيامها التاريخية ، احتفالاً بتاريخ مصر وبث في النفوس الاعتداد بوطنهم ، والاعتزاز بتاريخهم .  
وقد كان كما علمنا أول من أخرج مجلة مدرسية معتمداً على نفسه لا تؤيده إدارة ولا وزارة .

كما كان أول سياسي يؤلف كتاباً في العلاقات الدولية ، ويشرحها ويعلق عليها ويستخرج منها الحقائق الكلية ، فقد وضع كتاب « المسألة الشرقية » ، كما كان أول سياسي يؤلف كتاباً يدرس نظام وأسباب رقي أمة شرقية نافست دول الغرب وأصبحت لهم نداءً لتكون للمصريين ، أنموذجاً ومثلاً ، إذ وضع كتاب « اليابان بلاد الشمس المشرقة » .



وكان أول صحفى ، يصدر ثلاث جرائد يومية ومجلتين إحداهما أسبوعية ، والثانية شهرية ، وكانت إحدى الصحف بالعربية ، والثانية بالإنجليزية والثالثة بالفرنسية .

وكان أول سياسى مصرى ، يضع الكتب والرسائل باللغات الأجنبية ، ويترجم مقالاته ورسائله وخطبه إليها . .

والحقيقة أنه فى كل هذا لم يكن الأول فقط وإنما كان أيضًا آخر من حاول ذلك ، ونفذه ، فمن بعده لم يأت السياسى أو الصحفى ، أو صاحب دار نشر أو رجل أعمال ، يصدر بنفسه وبإشرافه وتوجيهه صحفًا عربية وإنجليزية وفرنسية ومجلات شهرية وأسبوعية ، مع مهامه الكبرى ، التى كان يحملها بشجاعة ، ويؤديها بكفاية ، وينجح فيها نجاحًا منقطع النظير .

وإذا كنت قد قلت فى موضع سابق هذا الكلام أو ما يشبهه ، فعذرى أن الإنسان لا يمل من الإشارة إليه ، والوقوف عنده ، ولفت النظر إلى دلالته ومعانيه ، ولا سيما نحن فى تلك الأيام التى تشى باحتمالات لا حصر لها ، وتطورات لا نهاية لآثارها ونتائجها .

وإذا كنت قد ذكرت الدستور والجامعة والتعاون واتحاد الطلاب والصناعة والعمل الحر ، فليس معنى ذلك أن هذه هى البذور التى ألقى بها وحدها فى أرض مصر ، ووجدان شعبها ، فقد دعا إلى أشياء كثيرة عظيمة مجيدة منها مجانية التعليم وإلزاميته ، ومنها عمله الدعوى المستمر لتأييد وحدة الشعب المصرى ، بجميع عناصره وفئاته ، والحملة على التعصب الدينى ، والتفرقة العنصرية ، ومنها الدعوة إلى السلام العالمى ، وإظهار مخاطر الاحتلال البريطانى عليه .

## الدستور :

لقد كان هتاف مصطفى كامل للدستور المصرى ، والدعوة له ، والمطالبة به ، مبكرة فى حياة مصطفى كامل السياسية .  
بدأ مصطفى كامل يروج للفكرة الدستورية ، وهو بعد طالب فى مدرسة الحقوق ، فقد أخذ يشرح فى مجلته الصغيرة ( المدرسة <sup>(١)</sup> ) :  
أنظمة الحكم من ملكية مطلقة ، و ملكية مقيدة وجمهورية ، كما يشرح هيكل الحكومة الدستورية من سلطة تشريعية وسلطة قضائية وسلطة تنفيذية ، فقال عن السلطة التشريعية ( هى أهم القوتين لأنها هى التى تسن القوانين واللوائح وهى التى تضع أنظمة الحكومة الداخلية ، وبمعنى آخر نقول إن القوة التشريعية تعد كأمره والقوة التنفيذية كماأمر يجب عليه إطاعة أوامر أمره . وليس للقوة التشريعية فى البلاد شكل واحد ، فهى تختلف باختلاف الممالك ، وعلى كل حال فهى تابعة لدرجة حضارة الأمة ، ففى فازت الأمة فى الحضارة بالقدح المعلى كانت قوتها التشريعية مستقلة ، كاملة الاستقلال ، متمتعة بقوة التشريع الحقيقية لاراد لما تسن وتضع وبالعكس هذه الأمة التى عم الجهل أبذاءها وتحكم الفشل بين أفرادها ، ترى حكومتها حكومة مستبدة طاغية ملكها ملك بيديه كامل التشريع ، والتنفيذ فهى بالطبع أمة محرومة من قوة تشريعية مكونة كغيرها منها بعض أفراد تنتخبهم الأمة بأسرها . ولقد قال فى ذلك أحد فلاسفة اليونان ما معناه ( ليس لأمة من الأمم أن تعد نفسها أمة إلا إذا كان مجلس نواب ينوب عنها فى وضع اللوائح والقوانين التى تحكمها ) .

وقال فى عدد سابق من مجلة المدرسة ( العدد الرابع الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٨٩٣ ) وهو يتحدث عن الملكية الديمقراطية والمطلقة فيقول عن الأخيرة . . والحكومة التى فيها السلطة مطلقة للملك تكون مركزاً للظلم

( ١ ) مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعاً - على فهمى كامل .

ومحطًا للإيجاف بخلاف التي استحسنها فإنها مجلبة للعدل وموضع التقدم والنجاح .

فإذا تذكرنا أن مصطفى كامل دخل مدرسة الحقوق وهو في السادسة عشرة من عمره ، وأنه في السنة الثانية من التحاقه بها ، أصدر مجلة المدرسة ، عرفنا أن هذه الآراء الواضحة القوية ، والصحيحة من الناحية العلمية ، هي آراء صبي في السادسة عشرة وبضعة شهور ، وعرفنا فوق ذلك أن الفكرة الدستورية ، صاحبته منذ شب عن الطوق ، واتصلت بعقله حقائق الأنظمة الدستورية ، وعرف خيرها من شرها وأبيضها من أسودها وهو بذلك أسبق الكتابين في الدعوة إلى الدستور بهذا الوضوح والجلال ، الذي لا يشوبه غموض ولا التواء . ولم يكف مصطفى كامل عن انتهاز أية فرصة تلوّح له ، وهو يصف مشاهداته في أوروبا التي كان ينشرها في الأهرام سنة ١٨٩٢ وما بعدها دون أن ينوه بمزايا الحكم الدستوري ، ويبين سر انتشار التعليم والصناعة ، وقوة الوحدة الوطنية في الدول الأوروبية مرجعه أن الحكومة هناك (أهلية) أي ناتجة من الشعب ، تمثل مصالحه ، وتفكر في خيره ، فإذا جاءت سنة ١٩٠٠ ، وبزغ نور القرن العشرين بزغ معه نور صحيفة اللواء اليومية التي صدر أول أعدادها في الثالث من يناير سنة ١٩٠٠ ، كتب مصطفى كامل في العدد الثالث من هذه الصحيفة الوليدة الصادر في الخامس من يناير سنة ١٩٠٠ (١) مقالا بعنوان « الحكومة والأمة في مصر » قال فيه :

لعمري إذا كان الإنجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصري ، في وفاق واتفاق ويسيروا به في طريق السعادة كما يدعون ، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد ووفرين ويجعلوا للحرية ،

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - الطبعة الثانية - عبد



والعدالة ، أساسات قوية ، متينة لا تستطيع يد بشرية إنجليزية أو مصرية ، أن تمسها بسوء .

ولعل هذه أول وآخر مرة طلب فيها مصطفى من الإنجليز شيئاً يجرؤونه في مصر ، ولكن ما طلبه منهم في ٥ من يناير ، هو في الواقع إلغاء اوجودهم وإنهاء لاحتلالهم ، إذ أن قيام أنظمة قوية كاملة للحرية والعدالة ، لا يمكن أن تمسها بسوء يد بشرية ، إنجليزية كانت أو مصرية ، ليس له إلا مؤدى واحد ، هو استقلال مصر بشؤونها ، واستقلال مصر بشؤونها منهُ للاحتلال وأو بقيت جيوشه على أرض مصر .

وفي ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٢ كتب تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) (١) :

« عندى أن هذه الأدوار والأداء المتنوعة « فى وزارى التربية والتعليم ، والداخلية ) والى تدل كايها على شدة الحاجة فى هذه البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحرر مادة إلا بمشيئته ، ولا يزعم نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويجر عليها الوبال . »

وفي التاسع من مارس سنة ١٩٠٤ كتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابى) فى اللواء مايلى (٢) .

لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ما قلناه من فوق المنابر وما كتبناه فى هذه الجريدة وغيرها من وجوب إنشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب صار على

- 
- (١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية —  
عبد الرحمن الرافعى .  
(٢) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية — الطبعة الثانية —  
عبد الرحمن الرافعى .

ألسنة الكثيرين من أهل القطر . لأنه الأنشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقاً أو لاحقاً لتخاض البلاد من رق الاحتلال ، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة .

وقد رسم مصطفى كامل للمصريين طريق الوصول إلى هذا الدستور ، فقال :

ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد ، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته ، إذا تمسكت به ودعت إليه طالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكرة والثبات التي هي أكثر القوى الفعالة في حياة الأمم ، فلتعمل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال .

ولما احتفل مصطفى كامل بالذكرى المئوية لاعتلاء محمد علي عرش مصر ، وذلك في الحادى والعشرين من مايو سنة ١٩٠٢ خطب في مسرح ( زيزينا ) بالإسكندرية فقال عن الدستور (١) .

إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على الأعمال كافة ، ومراقبة ما تجريه الحكومة لحيرها أو لضرها ، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد . الدستور هو ألا يستطيع أحد مهما كان عظيماً ، وطنياً أو أجنبياً ، أن يمس القوانين والأنظمة بشيء ، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور ، وأن المحتلين لو شاءوا أن يغيروا أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون ، لعمري أن ما يسميه المحتلون أو أنصارهم الدستور هو القوضى في لباس النظام ، والاختلال في قالب الاحتلال . نحن نرى من العار والحياة عدم المطالبة بالحرية . . . نحن نرى من الحبس ومن الموت عدم المطالبة بالدستور .

(١) مصطفى كامل حياته وجهاده - أحمد رشاد .

ولما كانت هذه بذور قوية وسليمة ألقته يد صالحة وصادقة فقد أنتجت ثمارها ، إذ تلقف اللواء محمد فريد من مصطفى كامل فاستمرت المطالبة بالدستور واشتدت ، وفي المؤتمر الوطنى السنوى للحزب الوطنى اقترح محمد فريد إرسال برقية إلى الخديو وهو فى المدينة المنورة مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، يهتئون بالزيارة ويطالبون بالدستور ، وفى مؤتمر الحزب الوطنى المنعقد فى بروكسل سنة ١٩١٠ قال محمد فريد :  
 اسمحوا لى أيها السادة أن أخاطبكم عن المسألة التى نضعها فى الصف الأول من اهتمامنا بعد مسألة الجلاء التى بدونها لا يكون ثمة إصلاح حقيقى فى البلاد ، ويكون كل ماتناله الأمة دونها من قبيل ذر الرماد فى العيون ، أريد أن أخاطبكم عن مطالبتنا بالدستور الذى يضع فى يدنا سلطة التشريع ، ويجعل لنا الرقابة الفعالة على شئوننا المالية التى تدار الآن بغير مراعاة لمصالح البلاد » وكى يعرف فضل مصطفى كامل وخليفته فريد وحزبه ، فى موضوع الدستور يحسن أن نعرف بماذا كان يطالب الأستاذ أحمد لطفى السيد ، كدستور للبلاد ، قال فى جريدة الحرية :

فهل نحن نطالب بتوسيع اختصاص هيئاتنا النيابية على هذا النحو ( أى نحو الدستور البريطانى ) ؟ كلا إنما نطالب بالجزء الذى يمس حاجتنا من السلطة التشريعية ، وهو أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً فى القوانين التى تطبق على المصريين دون غيرهم .

وهو بحسب بهذا الدستور الجزئى ، أنه سيستطيع أن يحصل على شىء ذى قيمة لأن الإنجليز لن يسلموا مطلقاً بأن هناك قانوناً يسرى على المصريين وحدهم ولا يؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر ، من قريب أو بعيد على الأجانب . وقد عانى المصريون من نظرية ( الصالح المختلط ) فى ظل الامتيازات الأجنبية وفى القضايا المعروضة على المحاكم المختلطة ، فقد كانت هذه النظرية تقضى باختصاص المحاكم المختلطة دون المحاكم



الوطنية في كل نزاع فيه صالح مختلط ، فأصبح من حق المحاكم المختلطة أن تقضى باختصاصها بكل نزاع يسرها أن تستأثر به ، وكانت تجد دائماً ما يعينها على إثبات وجود صالح مختلط .

وانتقل الحزب الوطني من المطالبة بالدستور بالمقالات إلى تنظيم حركة تشارك فيها الجماهير ، وتنقل المطلب إلى صفوف الشعب ، فأعد الحزب عشرات الآلاف من طلب مطبوع موجه إلى الخديو ليقم الحياة النيابية في البلاد، وقد تم توقيع ٤٥ ألفاً من المصريين على هذا الطلب وقدمه فريد للخديو عباس في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٠٨ ، واتسع نطاق الدعوة للدستور ، وأصبح المطلب الثاني للمصريين بعد الجلاء .

### الجامعة :

شكا مصطفى كامل ، وهو يخطو خطواته الأولى ، من حرمان مصر من التعايم الذي يتيح للمصريين الدراسات العليا ، في علوم الرياضة والفيزياء والكيمياء والآداب - والتاريخ ، وهي الدراسات التي تتيح لهم فرص إنضاج مواهب البحث والمقارنة والاستنتاج والخروج بهم من الحفظ والاستذكار والاستيعاب ، بالجملة طالب بالدراسات الجامعية التي تخرج الأساتذة والباحث ، لا الحفاظ والمقلدين ، وطالبي الوظائف الحكومية ، وأدوات الحاكم المطيعة السلسلة القياد .

كان مشغول الخاطر بالعلم والتعليم والمعلمين ، وناقش مشكلات التعليم في مصر وسوء اختيار المعلمين ، والإكثار من المعلمين الأجانب ، وعلى وجه خاص بالمعلمين الإنجليز في المدارس الثانوية والعليا والإغداق عليهم بالمرتبات الوفيرة ، والظن على المدرس المصري بما يستحقه من المكافأة أو المرتب .

وفي ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ قال في اللواء :

« لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها به قيمة عند الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها ، وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور العلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد ، الأمة في أشد الحاجة إليه ، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة .

وفي ٨ من يناير سنة ١٩٠٥ عاد مصطفى كامل إلى فكرة الجامعة ودعا إلى إنشاء جامعة بالقاهرة ، واستحث الأغنياء بأن يحتضنوا هذا المشروع أدبيًا وماديًا . ونشرت الصحف على أثر هذه الدعوة المقالات الطوال في هذا الصدد ، ولكن ، لم يتقدم من الأغنياء بتبرع ذي قيمة لهذا المشروع إلا الأمير حيدر فاضل .

وفي ٣ من فبراير من السنة نفسها كتب مصطفى لأمه الروحية جوليت آدم يحدثها عن حملته الصحفية لإنشاء الجامعة ، وأخبرها بأن الجميع قد وافقوا على هذا المشروع ورجاها أن تكتب مقالا ، في تأييده ، وفي مايو سنة ١٩٠٥ بدا أن مشروع الجامعة يتعثر ، وخشى بعض الأمراء الذين تهيأوا للمساهمة في المشروع من أن يحتاج إلى أموال باهظة وأن تبرعاتهم لن تكفي ليقف المشروع على قدميه ، فقبضوا أيديهم عن البذل ، وكان قد جمع مبلغ خمسة آلاف لإنفاقها على بعثات للخارج بدلا من الانتظار حتى يكتمل التبرع ويتم جمع المبلغ اللازم لإنشاء الجامعة ، ولكن الأمير حيدر فاضل سافر إلى الإسكندرية لمقابلة الحديو ونيل موافقته ، ولكن الحديو ماطله ، ولم يصل الأمر إلى نتيجة مرضية ، وأفضى كامل بأحزانه إلى مدام جوليت آدم ، وحديثها عن خيبة أمله ، ولكن مصطفى لم يلبث أن أخبر مدام جوليت أن مشروع الجامعة قد تكمل أخيراً بالنجاح ، إذ تم الاتفاق على إرسال بعثة إلى أوروبا لتكون

نواة للتدريس في هذه الجامعة وقد جمع آنذاك نحو ٨ آلاف جنيه وسبق باب الاكتاب مفتوحاً حتى آخر سبتمبر .

ولما عاد مصطفى كامل من بريطانيا بعد حملته الناجحة ضد كرومر بمناسبة حادثة دنشواى التى وقعت فى ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦ جمع بعض المال للاحتفال بـمصطفى وتقديم هدية تذكارية له فرفض أن ينفق فى هذا الوجه ، ورجا أن يوجه إلى مشروع إنشاء الجامعة ، ويقول محمد فريد: « فخير هدية اقترحها عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة ، هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى ، لتأسيس كاية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ، ممن لا يخافون فى الحق لومة لومة ولا عتاباً ويعملون مداواة جروحها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها ، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدى والأمة محرومة منه بغير حق » .

« هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالمواطنين الصناديق إهداؤها لمصر والمصريين ، هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحاً وانشراحاً وفيها أرقى مظاهر الحياة » .

« فلتنس الأحزاب انقساماتها ولينس الصحافيون خصوماتهم ولتلق بالأحقاد ولو يوماً واحداً ، فى هوة لا يسمع فيها لغو ولا دوى ، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الضخم ، وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم » .

فالجامعة كانت فكرة من أفكاره ، وبذرة ألقاها ، ثم رعاها صغيرة حتى اشتد ساقها وأصبحت أمل أكثر المصريين ، حتى أوفدت البعثة الأولى من بعثاتها ، واحتفل بها فى نادى المدارس العليا ، الذى كان بدوره



ثمرة من ثمار جهد مصطفى كامل . فإذا يكون هذا النادي وما دوره في الحياة العامة ؟

## نادى المدارس العليا

في سنة ١٩٣١ وما بعدها ، بعد أن أنشئت الجامعة الأهلية ثم بعد أن بعثت بعثتها الأولى ، وفتحت أبوابها للتلاميذ ، وقاعاتها للمحاضرين وطلاب المعرفة ، ثم بعد أن أصبحت جامعة حكومية سنة ١٩٢٨ شيدت لها دور فاخرة على أرض حدائق الأورمان بالجيزة ، لم يكن لطلاب الجامعة ناد يضمهم ويهيء لهم فرصة التلاقى ، وينظم لهم برنامجاً للمحاضرات وآخر للرحلات ، وتخرج منه مشروعاتهم ، لم يكن لهم سوى شقة في عمارة بشارع عدلى بالقاهرة في حين افتتح نادى المدارس العليا في حياة مصطفى كامل في الخامس من أبريل سنة ١٩٠٦ ، في مبنى كامل في العقار رقم ٤ بشارع قصر النيل ، وكان مبنى فسيحاً يضم الغرف الرحبة والقاعات المتعددة ، تحيط به حديقة غناء ، ونخصص من قاعاته واحدة للمكتبة ، وثانية للاجتماع والمحاضرة ، وثالثة ( للبياردو ) وألعاب التسلية المنزلية ، ورابعة لمجلس الإدارة واجتماعاته ، وخامسة لمكتب الرئيس ولأمين النادي .

وقد كان يوم افتتاحه عيداً من أعياد مصر القومية حضره وزير المعارف ( التربية والتعليم ) ووكيله سكرتير الوزارة الإنجليزي ومحافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها .

وافتح ناد في ذاته ، ليس بالشئ العظيم ، لولا أن نجاح فكرته وتنفيذها في ذلك الوقت وإقبال الطلاب عليه كان في نجاح مطرد ، واستمرار زيادة أعضائه وثبات العمل فيه وتنوعه وانتظام المحاضرات ، وتردد كبار الشخصيات عليه ، اختلاط خريجي المدارس العليا من مستشارين وقضاة

ومحافظين ومديرين ، وأطباء ومهندسين بطلاب المدارس العليا، وتحدث الكبار إلى الصغار ، واستفسار الصغار من الكبار وإبداء الاقتراحات لهم ، والتعبير عن نقد الأحوال الجارية كل ذلك جعل من هذا النادي ندوة سياسية ووطنية وداراً للبحث والمناقشة ، وخرجت منه الأفكار الاجتماعية والمشروعات الوطنية وتعددت وتنوعت فصاحب الحركة الوطنية ووسع نطاقها وارتقى بأساليبها وقوى وحدة الطلاب على طريق الجهاد الوطنى والاجتماعى ، وجعل منهم طليعة التقدم والتطور وأشعرهم بدورهم ، رواداً وقادة ، فأدوا هذا الدور على أحسن ما يكون الأداء خطباء وأعواناً للحركة الوطنية ومناضلين بالفكر واليد ، حتى كان منهم الشهداء الذين لقوا ربهم ووقود الثورة فى السجون والمنافى والمعتقلات . قادوا المظاهرات وصنعوا الشعارات ووزعوا المنشورات ، وأطلقوا الرصاص فقتلوا من جنود الاحتلال وأعوانه عدداً أشعر الاحتلال أن مصر ترضيه وأطلق الاحتلال وأعوانه الرصاص عليهم ، فقتل منهم عدداً ، كانت دماؤهم زاداً للحركة الوطنية خرجت بها من دور الاستعداد والتهيؤ إلى دور الصلابة والقتال الحقيقى .

بدأ التفكير فى إنشاء النادي سنة ١٩٠٥ وتألفت لجنة لتأسيسه فى أكتوبر من تلك السنة برئاسة الطبيب القانونى الدكتور عبد العزيز نظمى (١) ، ولم يكن مصطفى كامل بعيداً عن ميلاد هذه الفكرة ، فكل الذين دعوا إليها وعملوا على تنفيذها من تلاميذه وأنصاره الذين يترددون عليه ، ويتأثرون به ، ويتداولون معه ، ليلة بعد ليلة فكتب فى اللواء فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٠٥ :

نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادي ممن يقدرون العلم وذويه،

(١) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية . الطبعة الثانية ص ١٥٨

لذلك نود أن يقتنى الكبراء والعظماء والوجهاء ، أثر الذين جادت  
نفوسهم بما تبرعوا به له حتى الآن ، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا  
النادى المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عندنا كثرة وقلة فنستنهض  
همم السراة لمديهم المعونة إلى هذا النادى الذى سيكون محط رحال  
أبنائهم .

واجتمعت أول جمعية عمومية بهيئة تأسيسية يوم الجمعة ٨ من ديسمبر  
سنة ١٩٠٦ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادى ،  
وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتى طالب وهو عدد كبير فى  
تلك الأيام ، إذ لم تكن السنة الدراسية الواحدة فى أية مدرسة عليا  
تضم أكثر من ثلاثين طالباً ، وقد انتخب رئيساً للنادى ، عمر بك  
لطفى وكيل مدرسة الحقوق رائد الحركة التعاونية فى مصر ، وصديق من  
أكثر أصدقاء مصطفى كامل إخلاصاً ، وانتخب مجلس الإدارة فضم  
أسماء لعب أصحابها أدواراً عظيمة فى حياة مصر السياسية والثقافية ، فقد  
مثل عمر لطفى ومحمد عبد الحالى ثروت خريجي الحقوق ، وقد وصل هذا  
الآخر إلى منصب النائب العام فالوزير ورئيس الوزارة ، ومثل طلبة  
الحقوق اثنان : أحمد أمين الفقيه العظيم ، وأستاذ قانون العقوبات الفذ ،  
ومثل طلبة الطب حافظ عفيفى ، الذى بقى زمناً طويلاً وفيماً لمبادئ الحزب  
الوطنى ، والذى وصل فيما بعد لمنصب السفير والوزير ورئيس الديوان  
الملكى . وقد احتفل فيما بعد بأولى بعثات الجامعة الأهلية إلى فرنسا فى  
٩ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ عام وفاة مصطفى كامل ، وقد ضمت هذه  
البعثة من الأسماء التى عرفت بعد ذلك فى تاريخ الجامعة والصحافة  
والأدب : محمود عزمى ، ومنصور فهمى ، والمحامى محمد كامل حسين  
أحد قادة الحركة العمالية فى مصر ، وواحد من أكثر زعماء شباب ثورة  
١٩١٩ صلابة وعنفاً واستهدافاً للخطر .



ولم تكن مصادفة أنه بعد أقل من سنة من افتتاح نادى المدارس العليا ، أن يقع أول إضراب يقوم به طلاب مدرسة ما ، وأن تكون هذه المدرسة العليا ، هى مدرسة الحقوق التى استمرت طويلا قائدة المدارس الأخرى ، فى مجال الاحتجاج ضد جميع الأعمال المنافية لحقوق الشعب والمعتدية على الحريات العامة . وقد كان سبب الإضراب المباشر هو أن وزارة المعارف التى كانت مشرفة على مدرسة الحقوق ، فرضت على المدرسة نظاماً وقيوداً هبطت بها إلى المدرسة الثانوية لا الكلية ، فاحتج الطلاب على هذا النظام ، ثم مالبتوا حتى دعوا إلى عقد اجتماع فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٠٦ - بحديقة الأزبكية التى كانت مدة طويلة بمثابة ( هايدبارك ) القاهرة ، يجتمع فيها الساخطون والمحتجون ، وتخرج منها المظاهرات ، وتنظم الاجتماعات ، وتعد الطلبات التى تقدم إلى السلطات وبعد أن ألقى الطلاب الخطاب ، وعبروا عن ضيقهم وسخطهم قرروا الإضراب ، وكان ذلك أول إضراب فى ظل الاحتلال البريطانى ، وقد كان تنظيمه أمراً جديداً يدخل الحياة العامة ، وأثبت أن تلك الحياة تغيرت تحت قيادة مصطفى وبفضل نفخه من روحه فيها ، فأعلنت الوزارة تعطيل الدراسة من ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى السبت ٣ من مارس ، وأندرت الطلبة بأن من يتأخر عن العودة إلى الدراسة فى ذلك اليوم سيفصل . وقد اتجه طلاب المدرسة إلى ( اللاواء ) وصاحبه ، فنشروا فيه طلباتهم ، وأذاعوا تفصيل شكواهم ، وكان يلقاهاهم ويحسن استقبالهم ، ويقف فى صفهم وينتقد عسف إجراءات التهديد وأسلوب الوعيد الذى سلكته الوزارة مع طلاب مهنة يعرفون الحق والواجب ويميزون بين الخطأ والصواب ، وكتب مصطفى كامل عن هذا الإضراب فقال :

« قضت البلاد أسبوعاً كاملاً وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية

في مقدمة أمورها الحيوية وأن لناشئتها المحل الأول من عنايتها ، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها . لقد أظهر إضراب الطلبة أموراً جمّة وأنتج نتائج عدة . أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها ، أظهر أن الطلبة وكلهم ولدوا في عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظم التي وضعها ، ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناءً أذلاء ، بل إنهم ذوو إباء ، وشمم وعواطف راقية ، وإرادة حقيقية ، وأظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق ، غيرون على حقوقهم ، محبون للعدالة ، متشربون بروح الاستقلال .

ولا شك أن هؤلاء الطلبة الذين نظموا هذا الإضراب ، ونفذوه ، هم الذين واطبوا على قراءة اللواء والتأثر به ، وزعمائهم هم الذين دعوا مصطفى كامل ليخطبهم في يناير سنة ١٨٩٨ فسمعوا منه :

« لا شك أنه لا يمكنكم القيام بإنارة الأمة وإرشادها حق الإرشاد إلا إذا كنتم في الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم في سبيل الحياة لا عمالاً في إدارة أو ديوان ، تتقاضون آخر الشهر مرتباً معلوماً يقتل فيكم عواطف الاستقلال ، ويحبس في نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظام الأعمال » ولا غرابة في أن الصحفي المصري ( بول مانس ) الذي كان يصدر صحيفة ( لوريا ) بالفرنسية في مصر ، قد اتهم مصطفى - بعد هذه الخطوة على مامر بنا من قبل - بأنه قد اتفق سرّاً مع الطلاب على تدبير ثورة ، وطالب باتخاذ الإجراءات الحاسمة لإحباط هذه المؤامرة .

ولم يسكت مصطفى على هذا التحريض الأحق ، ولا على هذه التهمة الساقطة فأرسل في ٣ من فبراير إلى الجريدة نفسها كلمة يقول فيها :

أبعد الدفاع عن الأوطان في نظركم لئماً ، ولا تعدون السكوت

عنه جبنًا وخيانة ، وإذا كنتم أنتم ، أبناء الأمة الفرنسية ، قد قمتم في وجه حكومتكم الأهلية الرعوفة بكم عدة مرات ، وهي منكم لأنكم شعرتُم بمظالمها ، فكيف تبهدون من اللؤم قيام أمة في وجه المظالم التي حلت بها من سلطة أجنبية طامعة فيها ؟ » .

ولا شك أن طلاب الحقوق قد سمعوا هذه الخطبة ، وعرفوا أن زعيمهم الشاب يدعوهم إلى الحياة الحرة ويحببهم في إعلان الرأي ، والحرص على الاستقلال الشخصي والقومي ونيل الوظيفة الحكومية ، لأنها تقيد صاحبها ، وعلمهم الاعتماد على المرتب المضمون ، وقد قرأوا بعد ذلك الرد على (بول مانس) ، قرأوا في الرد كلمة (الثورة) فقال ببساطة وتكرر ، و يدافع عن القيام بها في وجه حكومة ظالمة ، وهذا القول يتسرب إلى وعي الشباب ، وإلى وجدانهم في وقت واحد ويجرئهم على تحطيم الأغلال ، ورفض الإذعان للظلم سواء كان كبيراً يحق بالأمة ، أو صغيراً يتناول نظام المدرسة .

وقد كان نادي المدارس العليا — الذي لانبجذ له نظيراً حتى اليوم لطلاب الجامعات في كل من القاهرة والإسكندرية — الوعاء فعلاً لعدد من المشروعات الاجتماعية القوية الكبرى .

ففيه نبتت فكرة إنشاء مدارس الشعب التي يعلم فيها الأساتذة الكبار أمثال عمر لطفى وكيل مدرسة الحقوق ، وأحمد لطفى نقيب المحامين فيما بعد والشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد وغيرهم وغيرهم لمئات من العمال دروساً في القراءة والكتابة والحساب والتاريخ والتربية الوطنية والشئون الاجتماعية والمبادئ النقابية وأصول الحركة التعاونية .

وقد كان هذا المشروع سياسياً في الدرجة الأولى ، لأنه لا يحارب أمية العمال ، بقدر ما ينشئ الصلة بين طائفتين ثوريتين بطبيعتيهما في كل وطن وزمن : الطلبة والعمال ، وهذا العمل وحده ، يسقط التهمة الجائرة التي تقول إن مصطفى كامل جعل اعتماده كاية على طلاب المدارس



العليا والثانوية وطلاب الأزهر ، وعلى أهل المدن دون العمال وأهل الريف ، ذلك لأن البدء بالطالب القارئ والمتابع لما ينشر في الصحف وغير المثقل بأعباء البحث عن الرزق ، هو أمر طبيعي وحادث في كل البلاد ، ولا يمكن القفز من فوق رأس الواقع . . ولكن هذا التأثير المباشر والسريع بحركة مصطفى كامل من طائفة الطلاب لا يعنى أن مصطفى كامل اتخذه مسوغاً لإسقاط العمال وبصفة خاصة عمال الصناعة من حمايتهم ، وسنرى حالاً ، كيف كان يفكر في الصناعة وعمال الصناعة وهو بعد طالب في مدرسة الحقوق ، ولكنه لا يستطيع أن يخطب ودهما ، فالصناعة لم يكن لها وجود في مصر ، فكان لابد أن يدعو إليها ، حينها توجد يوجد الصناع ، وعندها ، يشغل بهم ، ويتحدث إليهم وينظمهم .

ولكن الثابت على لسان أكثر من صحفى أجنبي أن لواء مصطفى كامل كان يقرأ في الريف في الدوار وعلى المصطبة ، وكان اسمه معروفاً ، وذائعاً بين الفلاحين ، وقد جاءت حادثة دنشواي ودفاعه عن الفلاحين المتهمين فيها والمحكوم عليهم ، والإفراج عنهم سبباً مباشراً في توثيق الصلة بين مصطفى والفلاحين تماماً .

وقد قالت إحدى الصحف الفرنسية في سنة ١٩٠٩ ما ترجمه جريدة اللواء ، وقد قالت هذه الصحيفة : إن الذى يزور الآن قرى مصر يرى فيها أمراً مستحدثاً ما كان يخطر على بال أحد ، ويرى حلقات من الفلاحين ملتفين حول رجل يتصدر مصطبة فينصتون إليه ، وهذا الرجل في العادة من القصاصين الذى يتلون القصص القديمة ، ولكنه يقرأ الآن اللواء ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم ، وبذلك يبذر في قلوب أولئك الذين لم يألّفوا منذ أجيال غير الخضوع ، بذرات جديدة قد تنمو وتثمر في مستقبل الأيام .

أما المشروع الثانى الذى خرج من نادى المدارس العليا فقد كان مشروع مراكز رعاية الطفل ، الذى كان من أول مشروعات الحركة

الوطنية في عهد مصطفى كامل في المجال الاجتماعي تبعه مشروع ملاجئ الأطفال اليتامى ، ثم مشروع التعاون ثم مشروع الهلال الأحمر : المشروع يأخذ برقاب المشروع ، حلقات متصلة كان الفضل في إخراجها للناس ، وفي بسط نور إشعاعها على الأمة ، وإيقاظ وجدانها لنادى المدارس العليا .

### الدعوة إلى الصناعة واحترام شأن العامل :

كتب مصطفى كامل في مجلة المدرسة المعدة لزملائه طلاب المدارس وتلاميذها في العدد السابع ، مقالا تحت عنوان « الصناعة والصناع »<sup>(١)</sup> .

الصناعة لها في الوجود فضل ظاهر ، ومجد واضح لا ينكره إلا كل جاهل ، فضروريات الحياة هي المأكل والمشرب والملبس والمسكن قد صاغت أكثرها يد الصناعة ، فلها إذن على كل موجود فضل بيّن يحمله على إعلاء شأنها واحترامها واحترام كل من قام بها ، فكل من خالف ذلك يكون قد نسي واجبا لغده ساء القدر خطير المقام ، وحقيقة فإن الصناع الذين هم رافعو لواء الصناعة جديرون بالاحترام ، حقيقيون بالتبجيل والاعتبار ، وقد علم ذلك أهل البلاد المتقدمة علما حقا ، فاحترموا الصناع ، وأعلوا من شأنهم ، حتى أصبحوا في مقدمة المبعجلين ، وطلبة المحترمين ، وأما سكان البلاد المتأخرة ، فقد طرحوا احترام الصناع خلف ظهورهم ، ولم يكفهم ذلك بل إنهم أهانوه واحتقروه ، وعدوه أقل الناس شرفا وأقلهم مجدا وقدرآ ، والسبب في ذلك ظاهر كما قدمنا وهو أن احترام العناصر الشريفة ملازم للتقدم والتمدن .

(١) مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ربيعاً الجزء الثانى ص ٢٨٨  
على فهمى كامل .

وفي عدد اللواء الصادر في ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٠ قال في إحياء الصناعة

فإن إيجاد روح الصناعة في البلاد هو بلا مرأى أسى خدمة تقدم إليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد ، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر ، هذه الحقيقة وهذا الواجب فتبادلوا الحديث في أمر تأسيس مدرسة صناعية ، ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل ، وأشد المصريين اهتماماً بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى ، الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل ، يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون في تأدية هذه الحقوق ، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية (حسبوبك محمد) مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيراً ، ولكنه يعد لهم للبلاد وأبنائها بالخير الجزيل »

وهذه السطور سواء ما كان منها من علم مصطفى الشاذب المبتدئ وهو محرر مجلة المدرسة ، أو ما صدر عنه بعد أن خاض مع الحياة السياسية ، ومرت قلمه على الكتابة ، وامتألت جعبته بالأفكار والمعومات مما قرأ وسمع وشاهد ، تدل كلها على نضج كامل ، وفهم عميق لدور الصناعة من جهة ، ولدور العمال من جهة أخرى ، فهو يقيس تقدم الأمة بمقدار تقدم الصناعة فيها وبمقدار ارتفاع مقام العمال بين مواطنيها ، ويرى أن الأمم القوية الناجحة هي الأمم التي يلعب العمال فيها دوراً بارزاً والتي لا يستطيع المجتمع فيها أن يغض من مقامهم أو أن يتجاهلهم ، وقد تحتاج إلى جهد كبير لكي تعثر على رأى مماثل لسياسى مصرى آخر لا في هذه الحقبة ، ولا في الحقبة التي بعدها ، ولا نزال في حاجة إلى مثل صبيحة مصطفى كامل ، وأضعافها ، لنتنبه إلى التعليم الصناعى ونمنحه ما يستحق من العناية ، فلا يزال عدد المدارس الصناعية في بلادنا دون النسبة المطلوبة بأكثر من الكثير ، فنحن أينما وجهنا وجوهنا وجدنا مدرسة ثانوية عادية ، وفي النادر نجد مدرسة صناعية ثانوية ، في حين أن هذه



المدارس ليست فقط عصب النهضة الصناعية وإنما هي أيضاً الحل لأزمة  
خريجي المدارس الذين لا يتقنون صناعة ، ولا يعرفون إلا كيف يقرأون  
ويكتبون . [١٤]

## الإرشاد القومى

تنبه مصطفى كامل ، فى وقت مبكر إلى أن التعليم بدوب برية ،  
قليل الأثر ، لأنه لا يعدو أن يكون التلقين أو حشو الذهن بالمعلومات ،  
دون صقل الذوق ، أو دعم الشخصية ، أو بث روح الابتكار والبحث  
والاعتماد على النفس فى التلميذ ليكون عالماً لاموظفياً ، وإنساناً لا أداة  
وشخصية ذات اعتبار ، لا رقماً فى عملية جمع .

قال مصطفى كامل فى مارس سنة ١٨٩٩ وهو يعلن فى رسالة منه إلى  
جريدة المؤيد قبوله تولى إدارة مدرسة مصطفى كامل التى كان قد أنشأها  
مواطنان من أتباعه ، هما : محمد سعيد التومى ، وأحمد أفندى صادق ، فقد قال :

« إني أعلم أن حمل المدرسة ثقیل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ،  
ولكنى قبلتها بكل ارتياح فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك  
الناشئين ، وإني أتشرف اليوم بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة  
مقرون بالتربية ، لأننى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة » .

ولكن مصطفى كامل ، فطن إلى مرفق آخر ، فى مثل أهمية وحيوية  
التربية إلى جانب التعليم ، ذلك هو مرفق الإرشاد القومى ، وهو مرفق  
عرفت الأمم الكبرى اهتمامها إليه ، وعنايتها به ، وأنفقت المال والجهد ،  
ينتج أثره ، ويؤدى دوره ، وليس ضرورياً أن يحمل هذا الاسم بعينه ،  
وإنما المهم أنه يؤدى الوظيفة المقصودة منه ، ويؤدى الغرض المعقود  
عليه .

وإذا كانت الدولة تعلم أبناءها ، لأنهم فى حاجة إلى علم ، وتربيتهم

لأنهم في حاجة إلى تربية، فما الذي يجعلها تتخرج من أن تتولى إرشادهم ، كان التعليم والتربية مرتبة أدنى في التوجيه من ( الإرشاد ) مع أن التعليم والتربية يتضمنان من نشر الأفكار وفرضها على أبناء الأمة ، أكثر من ( الإرشاد ) الذي هو مجرد وضع الحقائق تحت نظر الشخص أو الأشخاص وله ولم أن يأخذوا منها ما يشاءون ويدعوا منها ما يريدون .

والإرشاد ، هو شئ غير ( الدعاية ) التي تقوم بها الدولة دفاعاً عن نفسها ، أو ترويحاً لأفكارها ، أو إشادة بأعمالها في الداخل ، أو نشراً لمبادئها أو تعزيزاً لمبادئها ، أو هجومًا على خصومها والتنديد بهم في الخارج ، وهو غير ( الإعلام ) الذي تتحدد وظائفه بإعطاء البيانات السياسية ، وما يشبهها للصحفيين ورجال الإذاعة المسموعة والمرئية ، فالإرشاد القومي هو ما تقوم به الدولة في مختلف المجالات من وظائف الإرشاد ، فالحكومة في كل دولة تقوم بإرشاد صحي ، وإرشاد زراعي ، وإرشاد اجتماعي وإرشاد سياحي وإرشاد ثقافي وإرشاد جوي للطيران والطائرات ، وإرشاد بحري في مداخل الموانئ والممرات والمضايق ، وإرشاد عن حماية الجو للزراع والصيادين ، هذا الإرشاد المتفرق المتنوع حينما تجمع عناصره وتتولاه هيئة حكومية يكون عوناً للتعليم ومساعداً للتربية ، لأن هدفه التربية المدونة بلحاظها الشعب ، وإثارة أحسن نزعاته وتقوية روحه المعنوية وتوثيق الروابط القومية ، والحق أن مصطفى كامل وضع بذرة هذا الإرشاد القومي ، بخطبه ومقالاته ورسائله وصحفه ومجالاته ، ولقد نسج أنصاره وأعوانه على منواله ، فأحيوا الأعياد القومية المبهجورة ، وأقاموا الاحتفالات في المناسبات العامة ، فراجت سوق الشعر والشعراء ، وارتفع مقام الأدب والأدباء ، واهتم الناس بجمال القاهرة ونظافتها وأقبل الكثيرون على سماع الموسيقى الشرقية والغربية في حديقة الأزبكية وفي الصالات ، وأصبح التمثيل وفرقه شغلا للأمة ، واحتل أبطاله مكاناً مرموقاً بين أبطال الشعب ، وبعثت أفكار ومشروعات قومية كثيرة كتب لبعضها النجاح

في أيام مصطفى وخليفته فريد ، كالجامة ونادى المدارس العليا ومدارس الشعب والحركة التعاونية ، وملاجئ الأطفال وعيد رأس السنة الهجرية وجمعيات الهلال الأحمر ، وكتب لبعضها البدايات الفكرية الموفقة كفكرة مصرف قومي ، إذ بدى بشركة التعاون المالى وجمعيات التعاون المنزلية، وهكذا أدى الإرشاد القومى دوره ، وكان المأمول أن يزداد مع الأيام رسوخاً ، وأن يزداد فهم دوره والإيمان به ، وأغلب الظن أنه سيستعيد ما فقده ، من فهم المجتمع لوظيفته، ومن حاجتهم إليه .



## أباطيل وأضاليل

لما وقع الاحتلال البريطاني ، أذهلت الصدمة الناس ، ولما ثابوا قليلا قليلا إلى صوابهم ، نشط الاحتلال البريطاني والذين انتفعوا منه من طبقات نشأت في ظله ، وأثرت بفضله ، ووصلت إلى الحكم على كتفه في عقد المقارنة بين ما كان في عهد الحديو إسماعيل بن فوضى مالية ، وقلق عام ، ومظالم أثقلت كاهل الفلاح ، وعبثت بمقام الحكومة وأزرت بسلطانها وبين ما انتهى إليه الأمر في عهد الاحتلال البريطاني ، من هدوء انتهت به الاضطرابات واستقرار في الحكم والحكومة ، انتهت به القلاقل ، واقتصاد وتدير للمال انتهى بفضله تزايد الديون ، ثم إقامة مشروعات للرى ، تحسن بما تم منها توزيع المياه على الفلاحين والمزارعين بعد شكاوى من الميل لصاحب المال ، وحيث ينال الفقراء . وقد فعلت الدعاية البريطانية المحكمة ، والمستمرة التي عززتها قدرة الحاكم الأجنبي الحديد ، بفضل وسائل الحضارة الحديثة ، وإتقانه لإدارة المستعمرات لطول ترمسه بها في أفريقيا وآسيا ، واتساع ملكه ، وجاه جيوشه ، وعظمة أساطيله ، وإذعان المجتمع الدولي له ، وقد كان للاستعمار البريطاني ميزة على ما يشبهه من أساليب الاستعمار الأخرى ، ذلك أنه كان يحرص على إقامة واجهة وطنية يختفي وراءها ، ويحرك من الخلف خيوطها ، فلا يتحمل من المسؤولية إلا أقل القليل ، وهو في الواقع صاحب السلطة في الصغيرة والكبيرة ، كما كان يحرص على ألا ينافس البريطانيون صغار الصناع والتجار في نشاطهم وفي سعيهم إلى أرزاقهم ،

فالتاجر البريطانية تقتصر على الدور الكبيرة فقط والشركات الضخمة والمصارف ، أما المتاجر التي تبيع سلع الحياة اليومية ، أو الأدوات الرخيصة ، فلا يهتم بها البريطاني ولا يضيع وقته فيها بعكس المستعمر الفرنسي والإيطالي ، وبصفة خاصة الإيطالي ، فهو لا يدع تجارة إلا ويشارك فيها ابتداء من محال مسيح الأحذية وقص الشعر إلى البقالة والمحابر .

والميزة الظاهرة الثانية للاستعمار البريطاني ، أنه يصطنع الحلم ويطيل الصبر على حملات النقد ضده ، وضد كبار موظفيه ، والوزراء وأمير الدولة ، فهو لا يضيق بالمقالات الحادة في الصحف ، ولا بمظاهر الاحتجاج ، طالما كان يحس بأن الحركة الوطنية أضعف من أن تنزع له من الأرض جذراً ، أو تسيل له دمماً ، أو تعطل له مصلحة ، بل إنه يسره أن توجد حيث يحكم ، حملات نقد ، وصحف تحتج وتشكو ، لأن ذلك ينفس عن الأبخرة المحبوسة في الصدور ، ويسمح له بأن ينسب إلى نفسه بذور الديمقراطية وحماية الرأي وتعويد الناس على المشاركة في شئون الحكم .

وبهذه الحطة البارة ، استطاع الاحتلال البريطاني ، أن يستميل قدراً من الرأي العام ، وقد كان الظن عند من تعاونوا معه من الباشوات الجدد ، وأصحاب المزارع التي منحهم إياها الاحتلال البريطاني ، عندما وزع أرض الدائرة السنية ، وما كان لدى الحكومة من أطيان ، وبفضل إسناد الوظائف إلى أبناء هذه الطبقة الذين تعلموا في مدارس مصر ، والذين سافروا إلى أوروبا وعادوا مفتونين بالحضارة الغربية وبالأساليب البريطانية في العيش والحكم والتعليم والسياسة ، وزاد من حبهم لهذه الأساليب واطمئنانهم إليها أن بعضهم أصهر إلى البريطانيين فتزوج من بناتهم أو اتخذ من عائلاتهم رجالاً ونساء الأصدقاء والصدقات . . واتسعت هذه الدائرة شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون الاطمئنان إلى

الاحتلال ، ورجاء تقدم مصر في ظله ، على وجه من التدرج والتطور هو الروح الغالبة : رضى الفلاح المضطهد لأن السخرة انتهت ولو رسمياً والضرب بالسوط ، قد انعدم أو كاد ، وعرف بالضبط الضرائب العقارية المفروضة عليه المسماة ( الأموال ) ، وانتظمت مناوبات الري صيفاً وشتاء واستقرت أوضاع الحكومة فأصبح في كل مركز مهندس ري ومهندسة ري ، وقاض جزئى يحكم ، ووكيل نيابة يحقق ويترافع ، وقاض شرعى يفصل في منازعات الأسرة ، كما يوجد ضابط للشرطة اسمه مأمور ، يعاونه معاونون وملاحظون ، فظهرت معالم الدولة ، وأصبح في عاصمة كل محافظة مدرسة ابتدائية ، يرسل إليها الفلاحون الذين يملكون فوق عشرة أفدنة أولادهم فلا يلبثون حتى يصبحوا كتبة في دواوين الحكومة . فيتصل الفلاح عن طريقهم بالحكم والسلطان ، وقد كان ذلك حراماً في عهد الخديويين قبل إسماعيل ، إذ لا يحكم إلا من جرت في عروقه دماء الأتراك أو الشراكسة أو من كان من أتباعهم واللائذين بجاههم ، وفي بعض الأحيان استطاع ابن الفلاح في عهد الإنجليز أن يصبح مهندساً ، وقاضياً وضابطاً ، فازدادت ثقة الفلاح بنفسه ، ونشأت طبقة تلي طبقة كبار الأغنياء تتطلع إلى مثل ما في أيدي هؤلاء من مال كثير ، وجاه عريض وسلطة يستحلب لها اللسان .

وفي وسط هذا الرضاء الشامل ، وعلى غير توقع أو انتظار ، دوى انفجار أزعج الجميع .. أزعج الباشوات الذين كوفوا ثرواتهم بفضل الغاصب المحتل ، وأزعج كبار الموظفين الذين أصبحوا حكاماً ولو في الظاهر ، وأزعج الذين يلبونهم ممن كانوا ينتظرون دورهم في الترقى والتقدم ، وأزعج كل الذين ينتفعون من هذه الطبقات وتراثها ونفوذها وجاهها ، ولم يكن لهذا الانفجار إلا صوت شاب صغير لم يكمل ثم العشرين من عمره ، يقول كلاماً يخالف في الكل والتفاصيل ما كان سائداً ورائجاً ومسلماً به .



فلاحتلال البريطانى - عند صاحب هذا الصوت - عار و كارثة  
ومصائب قوى ، والذين يعملون معه ، يخونون وطنهم وشرفهم ويبيحون  
للأعداء عرضهم .

والاحتلال البريطانى يضحك على المصريين ويسخر منهم ، إذ  
يقول لهم إنه خدمهم فى حين أنه أساء إليهم فى الواقع : فالتعليم فى عهد  
محمد على وإسماعيل كان كله بالمجان ، فأصبح فى عهدهم بالمصروفات وغلا  
العلم ، وعز على الفقراء والمتوسطين وقلت المدارس ، وضئلت مرتبات  
المدرسين المصريين وعظمت مرتبات الموظفين الإنجليز والأجانب وقل  
عدد المعاهد التى تخرج المدرسين .

والإصلاحات المزعومة فى الإدارة والحكم ، هى فى الواقع تجريد  
للحاكم المصرى من سلطانه ، وفرض الموظفين الأجانب ونهب خزانة  
الدولة لحسابهم ، والإبطاء فى مشروعات الإصلاح التى قام بها فعلا  
عهد الخديو إسماعيل من سكك حديدية ، وخطوط تليفونات وتلغرافات ،  
وتشييد مبان وجسور وإقامة منارات ، وشق ترع وإقامة خزانات ،  
وذكرت الأرقام فإذا هى مذهلة حقاً ، وإذا عهد إسماعيل مع كل ما فيه  
من عيب وظلم ، هو عهد إصلاح وتحضير ومدنية ، وإن الإنجليز بعد  
أن انتهت القلاقل ، وانعدمت الاضطرابات وساد حكمهم وأذعن  
الناس لهم ، لم يفعلوا عشر معشار ما أصلحه وأقامه عهد الظلم والاضطراب  
والقلاقل .

ثم هذه القلاقل والاضطرابات ، والديون هى كلها إن أردت الحقيقة  
بفعل الأجانب وتدبيرهم ودسهم ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً وفى مقدمتهم  
الإنجليز .

ثم إن ما يقال من حرية الرأى التى يكفلها الإنجليز هى قناع خادع ،  
فإن هؤلاء الإنجليز قد أقاموا محكمة أسموها المحكمة المخصوصة تفوق ديوان  
التفتيش ظلماً ، لأنها تمتلك أن تحكم بما تشاء بلا تحقيق ولا دفاع . .

وهذا هو سيف الإرهاب الذى لم يلبث الإنجليز أن أنفذوه فى صدر مصر فعلا فى حادثة دنشواى فشنقوا فى ساعة من الزمان وجلدوا عشرين فلاحاً بريئاً ضعيفاً . . .

اهتزت الصورة بعنف ، وارتبك الاحتلال والاحتلاليون وتزايدت أعضاؤهم من مكانها ، وإن أظهروا عدم الاكتراث ، وواصل لصوت الحديد ، دعاءه الطويل العذب ، وانتقل من الحملة على الإنجليز إلى التغنى بمصر وجمالها وماضيها وتاريخها وأيادها ، ليحيى نقة المصريين بأنفسهم ، فتحرك الأمل فى القلوب ، وانحسر اليأس عن النفوس وضاعت الحلقة على الباشوات والعقلاء والمعتدلين ، الذين كانوا يمحضون الوقت فى الأندية والقصور ، يتكلمون فيما يشبه الفلسفة والمنطق متظاهرين بالحكمة والعلم ، فأصبح لا بد من أن يغيروا موقفهم من عدم الاكتراث إلى الاهتمام ، ومن الدفاع إلى الهجوم .

ولما بدأوا هجومهم كان ضارياً . . .  
فهذا الشاب الذى فعل فيهم كل هذا ، والذى أطار أحلامهم ، وكشف حقيقتهم ، والذى أظهر زيف دعاوى الاحتلال وأكاذيبه ونفاق أعوانه وأصدقائه . . . لا بد أن يقضى عليه وبكل سلاح فتاك وبكل وسيلة ممكنة .

فمصطفى كامل هو غر مدع مأجور . . . بل إنه خداع ونصاب ، ثم هو صنيع لتركيا والباب العالى ، وعميل للخديو عباس وصوت لفرنسا وألمانيا فى وقت واحد .

ومع الأيام سقطت هذه الاتهامات وداسها التاريخ بقدمه لأن الشعب المصرى أحاط مصطفى كامل بحبه وتقديره ، وإعجابه ، فلما مات تدفقت جماهيره وراء جثمانه ، كأمواج بحر هادر ، ولكن استيفاء للكلام ، وإرضاء للتاريخ سنقول كلمة عن كل تهمة ، أو قل عن كل قرية .

## أولا - مصطفى كامل والحديو عباس

الذين رموا مصطفى كامل بأنه كان عميل الحديو وأجيره ، وأنه كان يعمل بوحى منه ، لا عن وطنيته الخالصة ولا عن إيمانه ببلده . الذين رموا مصطفى كامل بهذه الفرية المفضوحة ، كانوا يعلمون قبل غيرهم ، أنهم متجنون على الحق والتاريخ والفضيلة ، ويقولون زوراً من القول وبهتاناً مبيناً ، ونقول فرية مفضوحة لأن الدليل على كذبها وزيفها ذائع وشائع ، يصابح الناس ويماسيهم . ذلك هو السيل المتدفق من القول والكتابة ، والحركة المتصلة والانتقال ، والعمل المستمر في الصحافة والمدرسة ، وما يقوله مصطفى ، يقطر صدقاً ويمس شغاف القلوب ، ويجمع الأصدقاء والأنصار ، ويؤلب على الاحتلال الخصوم والأعداء . والقول الزائف المدفوع ثمنه لا يستمر أولاً ولا يؤثر في قلب ولا يفعل في نفس ثانياً .

وكانت حياة مصطفى كامل برهاناً على تجرده وتنسكه ، وكان راهباً متعبداً ، لا يمكن أن يعمل لغير عقيدته ، ولقد أطاق خصوم مصطفى فيه ألسنتهم ، وقلبوا كل حجر ليبحثوا تحتها عن دليل ضده ، فلم يجدوا شائبة في حياته فلا هو صاحب نساء ، ولا لاعب قمار ، ولا مالك عقار ، ولا شارب خمر ، ولا متردد على ملهى ، بل هو حليف مرض ، ضعيف البنية ، واهن الجسد ، ومثله كان أولى به ، أن يبحث عن الراحة في وظيفة كبيرة كما فعل غيره ، ممن ترك العمل الحر وأعلن أنه ( يريد الراحة ) وقد عرضت على مصطفى الوظائف ، من وزارة وغيرها ، فرفضها في إباء ، ولم يذع العرض ولا الرفض ، لأن كان يرفض لوجه الله لا لوجه الشهرة وطلب مديح المادحين .

والقرينة الفعلية الثالثة على براءته من هذه التهمة هو أن مصطفى كامل بدأ حياته السياسية وكتب وخطب ، قبل أن يعرف الحديو



عباس وتتصل به أسبابه ، ثم قطع صلته بالخدو عباس بخطاب مشهور ومعروف ومعلن ، وهو تصرف لا يصدر عن أجير ، ثم استمر بعد هذه القطيعة في العمل الوطني ، بل إن عزمه اشتد وجهاده اتسع ، وصلابته زادت على الأيام ظهوراً .

أما الأدلة التاريخية من وثائق فقد توافرت والحمد لله وكثرت . من ذلك الخطاب الذي أرسله مصطفى كامل إلى صديقه محمد فؤاد سليم في ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٩٥ (١) ونحن ننقل منه :

« إننى فى ضيق لأن الخديو لم يرسل من المال ما يكفينى للسفر إلى مصر ، إذ أن مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدديه نفقات الفندق ، وإننى صممت على عدم رجوعى إلى مصر لأن وجودى فى فرنسا مهم جداً للقضية التى كرست لها نفسى جسداً وروحاً ، وهى قضية الدفاع عن مصر ، وقد قررت ألا أعود إلى مصر إلا إذا يثت من معاونة الوطنيين : وإننى حالياً يائس من واحد ، وهو الخديو ، ولكن أليس فى استطاعة والدك والهاباوى ومحمود سالم ، أن يرسلوا لى سنوياً ( ٤٠٠ ) جنيه ماداموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرّون جهودى الوطنية ؛ وإذا كانوا غير قادرين على مساندتى فإنى سأعود إلى مصر يائساً فاقد الأمل ليس فى الجلاء فحسب بل فى مستقبل الأمة المصرية . تأكد يا صديق أنى لن أبقى فى مصر بعد عودتى إلا ريثما أوارى القبر ، سوف أنتحر لكيلا أعيش وسط أمة جاحدة فضلاً عن أنى لا أعرف اليأس حتى ألفظ آخر أنفاسى .

بلغ والدك أنى باسم الوطن المقدس وليس باسم الصداقة ، أتمس منه وحده أن يرسل لى مبلغ ١٥٠ جنيهًا هذا الشهر لهذه السنة كلها ، ولن أطلب منه شيئاً بعد ذلك ، وفى السنة المقبلة سوف أدير أمرى . فوالدك يدفع ١٥٠ جنيهًا والهاباوى ١٥٠ جنيهًا ومحمود سالم ١٠٠ جنيه ( ٤٠٠ جنيه )

( ١ ) رسائل تاريخية - نشرها وعلق عليها الأستاذ عبد العزيز حافظ

من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون لها قيمة عندى أكبر من نفود العباس .

صديقى العزيز . .

منتظر منك جواباً مستعجلاً « إما نعم مع المبلغ ، وإما ( لا ) ، وإذا لم ترسل إلى ردّ أفمنى ذلك أن الجواب ( لا ) » .

هذه الوثيقة تحسم كل شك فى صلة مصطفى كامل بالخدّيو عباس ، فالخدّيو يقبض يده على المال الذى يحتاجه مصطفى كامل ليواصل جهاده ، ومصطفى يكاد يختنق لهذا البخل القاتل للحركة ، ويمضى يستجدى أصدقاءه الذين يتوسم فيهم الوطنية ، والرغبة فى البذل من أجل الوطن . وما الذى يطلبه منهم ؟ إنه لا يطلب الآلاف ولا المئات ، وإنما يطلب من ثلاثة من أغنياء المصريين مجتمعين ٤٠٠ جنيه يكاد يكون نصيب كل منهم فيها لا يزيد عن مائة جنيه فى السنة كلها ، وبهذه القروش التى يستجديها مصطفى كان يفعل العجائب ويكسب لمصر الأصدقاء . وأهمية هذا الخطاب أنه مكتوب لصديق ، وقد بقى طى الكتمان ولم يعرف أحد مضمونه إلا فى سنة ١٩٦٩ بعد أن كان مصطفى كامل وصديقه محمد فؤاد سليم والخدّيو ، وهم الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى الخطاب قد واراهم التراب ، وتركوا دنيانا ، وانقطعت صلتهم بأطماع الدنيا ، وخصوماتها ، وكلام مصطفى ، عن الخدّيو عباس ، لا يصدر عن أجير وإنما يصدر عن صاحب عقيدة يرى من زملاء الكفاح نكولا عن الواجب وخيانة للمبدأ .

على أننا نشرنا فيما سبق رسائل مصطفى كامل إلى صديقه توفيق أحمد ونحن نلاحظ على هذه الرسائل ما يلى : —

أولاً : أنه لا يجتمع ذكر الخدّيو وذكر مصر ، إلا قدم مصطفى مصر على الخدّيو ، فى رسالة ٢٧ من يونية سنة ١٨٩٥ قال : « فلو أمرنى أعزه الله أن أذبح خدمة لبلادى ولشخصه الجليل لما تأخرت » ، ثم قال « وإنى

على شرف نفسى أعتبر خدمة الأوطان تحتاج لكثير من التعب وتحمل المصاعب وملاقة المشاق ، فلا بأس بتحمل مر الكلام وغيره خدمة لمصر المحبوبة وأميرى العزيز» ، وفى رسالة ٦ من يوليو يصف نفسه بقوله : وهذا الذى يتوقد وطنية وحباً لبلده ولأميره العزيز . ثم رد ولا يسأل الله والحياة شيئاً آخر غير خدمة الوطن وأميره المحبوب ، وفى رسالة ١٨ من سبتمبر يقول : يزول من عالم الحياة رجل يكون ذنبه فى الدنيا إذ ذاك أنه مصرى يحب بلاده وأميره ويغار عليها وعلى سيدها . وفى رسالة يناير سنة ١٨٩٩ يقول :

ولم يكن تأخيرى عن الحضور مخالفة ، بل كان خدمة للوطن وصيانة لكرامة شموكم ، وقال فى الرسالة نفسها وهو يوجه الكلام للخديو شخصياً يستسمحكم الإذن فى رفع هذا الكتاب إلى جنابكم السامى ممن عرفتموه بالإخلاص للوطن لشخصكم الجليل .

ومن عادة أفراد حاشية الملوك والأمراء وبطانتهم أنهم لا يقدمون على الملك الأمير أحداً وقد كان شعار الجيش المصرى فى عهد الملك فاروق « الله . الملك . الوطن » .

ثانياً : أن مصطفى كامل وازب ابتداء من الرسالة الرابعة المؤرخة ٣٠ يوليو سنة ١٨٩٥ حتى الرسالة الرابعة عشرة على طلب ما يلزمه من مال لنفاد ما عنده ، وقد انقضت شهور أغسطس وسبتمبر وربما أكتوبر دون أن يتلقى المال الذى يطلبه مما يقطع بأنه حتى المعونة القليلة التى كان يدفعها الخديو عباس لمصطفى كامل لمواجهة نفقات المطبوعات والحفلات والرحلات ، لم تكن تصله فى يسر وسهولة ، بل كان الخديو بتلكأ كثيراً فى إرساله لبخل الخديو الذى اشتهر عنه ، مما كان جديراً بأن يصرف مصطفى كامل عن التعاون معه والارتباط به ، لو كان الطمع فى المال هدفه .

ثالثاً : واضح من هذه الخطابات أن مصطفى كامل لم يكن يتلقى



من الخديو ولا أحد ممن في حاشيته أوامر تتعلق بالعمل الوطني ، فالتقارير التي يكتبها مصطفى كامل ، كلها اقتراحات منه هو ، وطلباته تتصل بسير العمل وأساوبه ، فمصطفى هو واضع الخطط السياسية وهو صاحب الكلمة في توجيه العمل السياسي ، وليس فيما يقترحه كله شيء يتصل بشخص الخديو ، مثل كتابة رسائل عن أعماله في مصر والإشادة بأفضاله على المصريين .

رابعاً : إن مصطفى كامل حينما كان صبره ينفد وضيقه بالخديو يزداد ، يعلن أنه سيعمل مستقلاً — وأنه ليس آسفاً على خيبة الأمل التي أصابته في الخديو ووطنيته وحسن وفائه للعمل السياسي ، بل ذلك سيفيده في المستقبل . وفيما يلي نماذج من تهديداته ! .

قال في ٢٥ يناير لصديقه توفيق أحمد وقد مرت بنا الإشارة إلى هذه

الرسالة

أرجوكم أن تنتهزوا فرصة اليوم وتطلبوا من سمو مولاي أعزه الله أن يتكرم على بتحديد مقابلة خصوصية أننى فيها عن نفسى مانسبه ذوو والأغراض لى ، ولكى أعلم ما إذا كان سموه لا يريد نهائياً مساعدتى فى خدمة بلادى حتى يتسير لى عندئذ أن أعمل ما أريد فى مصر وخارجا عنها عاجلاً أو عاجلاً . وإنى أنتظر منك الرد هذا المساء أو غداً لأننى لا أريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار .

ويكمل هذه الرسالة ، غير الناقصة ويزيدها وضوحاً — وهو واضح ، رسالة أرسلت بعده بأيام فى ١١ من فبراير سنة ١٨٩٩ ، يلتقى فيه مصطفى كامل بقفاز التحدى ، كما يقول الفرنسيون فى وجه الخديو عباس إذ يقول لعبد الرحيم وكيل الإدارة العربية لقصر الخديو أو ( بالمعية السنية ) بلغة ذلك العهد :

أنخبركم بأنه عيل صبرى ولست أظن أن هناك داعياً لكل هذا التأخير ، فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلة فلتحددوا لى هذه المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على

عدم حاجتكم إلى خدماتي وعلى رغبتكم في محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة للبلاد وأميرها إن شاء الله ، وأظن ولا تلومنى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار فلقد مضى فوق النصف شهر من يوم ماجئتم عندى وبلغتمونى رغبة الأمير فى تشريفى بمقابلته .

وأظن أنه إذا قرأ أى قارئ هاتين الرسالتين ، دون أن يعرف من المرسل ، ومن المرسل إليه ، ولا ملابسات إرسالها ، ظن أن المرسل إليه ، وهو أمير البلاد ( وخليويها ) يعمل أجيراً عند المرسل وهو مصطفى كامل . فى الرسالة الأولى يحدد كاتب الرسالة موعداً أقصاه أربع وعشرون ساعة ، لأنه لا يريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار ولم تجر العادة فى مخاطبة الحكام ، أياً كان مقامهم أو مناصبهم ، بمثل هذه اللغة الخافتة ، وبهذا الأسلوب المنطوى على التهديد ، وإظهار الاحتجاج والتعبير عن الخسرة لفوات الوقت ، ومرور الأيام بلا عمل ولا نفع . وواضح أن المسئول عن هذا الضرر كله ، هو الأمير . ولا أظن أن الإنسان سيفوته وهو سيقراً هذه الرسالة القصيرة عبارة « وإذا كان سميره لا يريد نهائياً مساعدتى فى خدمة بلادى » ولا بد أن يضع الكاتب تحت خدمة بلادى خطوطاً . فالخليوي يساعد مصطفى كامل ، كاتب الرسالة ، هذا أمر لا شك فيه ولا مرأى ، ولكن لا يساعده على قضاء حوائجه الخاصة ، ولا على التمتع بلذات الحياة ، وإنما يساعده ، على خدمة البلد . أما الرسالة الثانية ، فهو إنذار حرب لا تصاغ بمثل لغته إلا الإنذارات التى تتبادها الدول قبل إعلان الحرب مباشرة : والكلمات الشديدة منتقاة عن عمد ، وهى قصيرة وسريعة كقذائف المدفع الرشاش « أخبركم » بكل ما فيها من جفاف هى الكلمة التى يبدأ بها الإنذار . ثم يليها مباشرة « عيل صبرى » يعنى أنى لن أستطيع إفساح صدر العذر لكم ، ولا الصبر على رغبتكم وإضاعتكم وقتى ، ثم إنه يفضح هذا التسويف والمماطلة فهو يقول « لست أظن أن هناك داعياً لكل هذا

التأخير « فإن كان لمولانا أعزه الله ... »

والتزام الأدب لا يقصد به تخفيف لهجة الخطاب ، ولا شدة وقعه ، وإنما يقصد به الإبقاء على صيغته الرسمية وأن يسقط حجة من تهمه في المستقبل بالتهجم على مقام أمير البلاد أو مشاكسة لقطع العلاقة ؟ ويحمل مصطفى مسئولية الفضيحة التي قد تقع بعد ذلك ولكنه لا يلبث حتى يستمر في أسلوب الرسالة الإنذاري فيقول : فلتحددوا لي المقابلة هذا الأسبوع ، وإلا فإني أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتي « ثم تباع لهجة الخطاب إلى ذروة التهديد والإنذار ، بل والإتهام بالخيانة ، إذ يقول إن هذا التأخير مرده « رغبتكم في محض تأخيري عن بلوغ أمانى العديدة النافعة » ويرتب مصطفى كامل النتيجة الحتمية على كل هذه المقدمات فيقول : وأظنكم لا تلومونني إذا عملت من أول الأسبوع الآتي بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم . . . »

وبهذا يتضح حتى ، لكل أعمى ، لا يرى في هذه الدنيا شيئاً ، ولكل أصم لا يسمع في هذا الوجود صوتاً أن مصطفى كامل كما وصف نفسه في إحدى رسائله إلى عبد الرحيم أحمد « إنني حرقوق مرتبة الأحرار » وإنه حين كان يتعاون مع الخديو عباس حلمي ، كان مستقلاً عنه له إرادته التي لا تذوب في إرادة الخديو ، فهو يعمل دائماً لخدمة مصر ، وهو يفكر دائماً في استقلالها ، وهو يجاهد دائماً ضد الاحتلال الأجنبي ، أما الخديو فقد يساير حيناً ، ويتراجع حيناً آخر ، ويساوم حيناً ثالثاً ، خوفاً على عرشه أو تحقيق المصلحة عاجلة ، أو تنفيذاً لمناورة مرسومة .

ولعلنا لا نجد نموذجاً لما يقدمه المربي المخلص الأمين لتلميذه ، أفضل مما كتبه مصطفى كامل إلى الخديو في ٢٦ من يناير سنة ١٨٩٦ ، وكان الخديو قد أمر مصطفى كامل بالعودة إلى مصر ، بعد أن اشتد ضغط الإنجليز عليه ، لنجاح حملة مصطفى كامل واطراد تقدمه وارتفاع اسمه وذيوع شهرته ، فقد كتب يقول له : أي للخديو نفسه :



« ما إن وصلني نداء الأمر الكريم بالعودة إلى الأوطان إلا شعرت بأنه مسبب عن تهديد إنجليزي فرأيت من الحكمة أن أؤخر عودتي صيانة لكرامة سموكم ، إذ أني لو كنت عدت حين ذاك لتحقيق الإنجليز من أني مرسل إلى أوروبا من قبل جنابكم ، وأحببت أن أبرهن لسموكم بتأخيري عن الحضور أن ليس هناك شيء ما وراء التهديدات الإنجليزية ، وأن الإنجليز لا يستطيعون ولن يستطيعوا أن يضروا سموكم أصغر ضرر ، إذ لو كان في استطاعتهم لكانوا أتوه من عهد بعيد ، فالحائثون من سياسة التهديد المقصرون من همة سموكم العالية الناصحون بالانصياع للمطالب الإنجليزية هم في الحقيقة أشد أعداء الوطن والأمير » .

هذا الخطاب جدير بأن يحفظه عن ظهر قلب شبابنا ، وأن يعرفوا تاريخه ، وأن يستخرجوا معانيه ، فإنه يتجاوز بسمو عبارته وفكرته حدود المناسبة التي كتب فيها ، إلى المعنى الدائم الباقي فيه . فهو أولا يعلن أنه رفض الانصياع لأمر الخديو حينما طلب إليه أن يعود إلى مصر تاركاً جهاده في باريس وأوروبا . ومعنى ذلك أن المجاهد المصري ، حر بإرادته عن إرادة الحاكم حتى حينما يقوم بين الاثنين تعاون لخدمة الوطن ، فالمصري المنتمى إلى الشعب ، شريف وشجاع ومستقل . هذا هو المعنى الأول .

المعنى الثاني ، أنني أردت أن ألقنك أيها الأمير درساً في الشجاعة ، فالناس في خوف الذل في ذل ، وأنت خائف على عرشك ونفسك من الإنجليز ، والإنجليز لا يستطيعون أن يسيئوا إليك بسبب جهادى ، لأنهم لو استطاعوا ذلك ، لفعلوه في الماضي ، فهم يكرهونك بسببى أو بخير سببى ولم يؤخروهم عن إلحاق الأذى بك ، تعفف ، وإنما عجزاً ، فدع الخوف واتكل على الله .

والمعنى الثالث كن شجاعاً ، كن قوياً ، كن واثقاً من بلدك ، والمثل الأعلى الذى تعمل له فإن ذلك يشرفك ، ويقويك ، فلا تلق

بالا لبسوسة الذين حولك الذين يريدون لك النكوص بعد التقدم ،  
والجبن بعد الشجاعة ، وهؤلاء هم أعداؤك الحتميون وأعداء بلدك .  
ولست أدري أين هؤلاء الذين أرادوا أن يصلوا إلى موطنى أقدام  
« مصطفى كامل » ليتهموه بأنه كان يتلقى التوجيه والإلهام من الخديو عباس ،  
ولست أدري ماذا يقول رشيد رضا حينما يلتقى ربه ، ويسأله ، كيف  
كتب « الخديو عباس هو الذى أوجد مصطفى كامل واستعمله فى الحركة  
الوطنية وهو تلميذ فقير . . » والحق أن الذى أوجد مصطفى كامل هو  
الذى خلقه ، وإيمانه بوطنه ، وجلده على العمل ، وشجاعته ، أوجده الله  
باعث الفضائل عند خاصة خلقه الذين يؤدون رسالة السماء حينما ،  
ورسالة الوطنية والفضيلة حينما آخر ، ونحمد الله أن الخديو استعمل  
مصطفى كامل فى الحركة الوطنية ، لافيا يسيء إلى أمته وشعبه ودينه .  
وغفر الله لرشيد رضا ولأستاذه لقاء ما أحسنوا فى مجالات أخرى ( إن الله  
يغفر الذنوب جميعاً ) .

أما ما جاء فى نهاية هذه الرسالة ، نفسها فصورة أخرى من صور  
الشجاعة التى امتاز بها مصطفى كامل الخالد العظيم فقد قال للأمير :  
« أما ما كتبه لسعادة محافظ الإسكندرية ضد بعض رجال ( الحاشية )  
الذين أعتقد أنهم أشد بلاء على مصر من الإنجليز أنفسهم فما ذلك  
إلا لشدة تغبظى من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا العاملين على حرمانى من  
خدمة بلادى » .

فكون الرجل السيئ ، من بطانة الأمير ، وجاشيته ، مشمولاً بعطفه  
ورعايته ، لا يسوغ عند مصطفى الأبي الطاهر ، أن يعفيه من لسع  
قلبه وضربات سوطه ، ولقد عاشت مصر سنوات وسنوات ، وأكثر كبار  
رجالها تنقطع أيديهم دون أن يخطوا حرفاً واحداً لحاكم أو صاحب أمر  
فى البلاد . من مثل ما كتبه مصطفى كامل عن أفراد فى حاشية  
الخديو .

على أن مصطفى كامل انتهى به الأمر في نهاية المطاف إلى قطع صلته بالحديو غلنًا في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٠٤ وفيما يلي نص رسالة القطيعة :

« تشرفت في ديفون بالمثل بين يدي سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضي ، ورفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على أن أكون بعيداً عن فخامتكم ، وأن أتحمّل وحدي مسؤولية الخطوة التي أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعاً لتكدير خاطركم الشريف ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

« وقد رأيت يامولاي بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمني تأديته عقب عودتي إلى الوطن العزيز ، لأن الإنجليز أظهروا في خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنّة وحجة لتدخل غير محمود .

« وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع ، بمناسبة المقابلة التي تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جوليت من لدنكم ، ونصر يحهم بأن إنجلترا لا تسمح لجنابكم العالي بإكرام من يعاديهما وادعاءها بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً ، فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا بقيت صلتى بسموكم على حالها ، وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة ، وإني أرجو أن يعتقد مولاي حفظه الله أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائهم الظاهرين ، ويدخلون اشمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى العام حساباً



وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال بلاده ، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطاً بالاحترام التام والابجالات العام ، ليقاوم القوتين المحاربتين ، ألا وهما : الاحتلال والزمان .

« وإنه ليحلوا لي أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتي ، خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالية ، التي كنتم أول الداعين والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليقدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا نخجل ولا حياء » .

ولم تكن هذه الرسالة سوى الخاتمة الطبيعية ، للرسائل الأخرى التي بقيت في طي الكتمان لا تنشر ولا يسمع عنها أحد ، والتي يتميز فيها مصطفى غضباً ، وإباء وتمللاً من ضياع الوقت والمماطلة ، التي تبعها مخاوف الخديو ، وحبه للمناورة ، وميله للتقلب بين الحماسة حيناً والحرص على المصلحة حيناً آخر ، وتأثره بحاشيته الكارهة لمصطفى الحاسدة لنجاحه .

ولكن لعل أجمل ما في هذه الرسالة التاريخية النصيحة العلنية التي أسداها مصطفى كامل للخديو ، والتي دعاه فيها إلى إقصاء المفسدين من بطانته ، لأنهم يضررونه ، ويؤذون سمعته ، أكثر من ضرر الإنجليز الذين كلما حاولوا التضييق عليه ، أو انتقاص سلطاته ، زاد مقامه عند الشعب والتفاف الأمة حوله . أما آخر عبارات هذه الرسالة فوجعة غاية الإيجاع مؤلة أشد الإيلام . إذ قال :

« وإنه ليحلوا لي أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتي خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالية التي كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة بيني وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليقدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليها بلا نخجل ولا حياء » .

ومعنى هذه العبارة الموجزة ، النافذة من اللحم إلى العصب ، إنك يا سمو الأمير رجل متقلب ، فأنت الذي تغيرت ولم أغير أنا ، كنت تدعو

إلى الوطنية فعملت معك لهذا السبب ، ثم انقلبت على عقبيك ، فافعل ما بدالك ولكن لا تنتظر مني تعاوناً ولا سكوتاً ، بل إنه يسرنى أن أبعد عنك ، وأن تزداد الهوة بيني وبينك . ولو أن رجالنا وجدوا في السنوات التي تلت وفاة مصطفى كامل ، واختفاء خليفته محمد فريد ، عن مسرح السياسة العامة المرأة على الجهر ببعض ما قاله مصطفى كامل علناً ، وعلى رعوس الأَشهاد لتغير الحال .

على أن مصطفى كامل لم يكف عن توجيه النقد إلى الخديو كلما أخطأ ، حتى قبل أن تقطع بينه وبين الخديو القطيعة ، فإن مصطفى لم يسكت على وقوف الخديو في نوفمبر سنة ١٩٠٤ تحت العلم البريطاني واستعراض جيش الاحتلال في ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا<sup>(١)</sup> ، واضطر ديوان الخديو إلى القول رداً على هذا النقد بأن الخديو مر في الميدان مصداقة في أثناء حصول الاستعراض ولم يشارك فيه فعلاً ، وهو اعتذار مفضوح ولكنه أضاع المعنى الذي فرح به الاحتلال من أن الخديو يستعرض جيوش الاحتلال في مصر ، كما كان يفعل أبوه الخديو توفيق ، ولما استقال اللورد كرومر عين بدله السير الدون جورست ، اشتد ميل الخديو عباس إلى التعاون مع الإنجليز لأنهم غيروا سياستهم من مخاشنته في عهد كرومر إلى عهد (جورست) ، وصرح عباس ، كعربون على موقفه الجديد بقوله : إن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده وإنه مستعد للتعاون معه ، وإنه لا فائدة من استبدال احتلال باحتلال وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أي احتلال آخر<sup>(٢)</sup> .

فكتب مصطفى كامل في لواء يوم ٢٦ من مايو سنة ١٩٠٧ :

« ما يجب علينا إعلانه والجمهور به أمام الملاء كله ، هو أن تصرىحات الجنب

(١) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعي ص ٢٨٦

(٢) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

العالي لا تقيدنا بأى حال من الأحوال ، لأن مركز سموه غير مركزنا ، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، أو بيد المعتمد البريطاني أو بيد الاثنين معاً ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين الصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظمات الحكومة دستورية ونيابية .

وقال فى لواء ٢٧ من مايو (١) :

« قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية وإن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية نخدم نفسه وعرشه ، واستمال الشعب إليه ، وإن عمل ضدها أضرب بنفسه وعرشه ونفوس أمتة منه ، ولكنه فى الحالين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يقرها إنسان مهما كان قوياً وعظيماً .

وقال إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجنباب العالى حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم وشعورهم إصلاح حالة بلادهم وترقية شئونهم ومنحهم الدستور ، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير .

وقال :

« لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة بأنه موحى إليه من الدولة العلية ، وطوراً من ألمانيا وتارة أخرى من سمو الخديو ، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل وهذه الثالثة قد سقطت الآن معهما ، فحان الأوان أن ننهى أنفسنا » .

على أن الخديو عباس قد نفى من جانبه فى مذكرات نشرت فى جريدة المصرى فى ١٨ من مايو سنة ١٩٥١ أن يكون مصطفى كامل عميلاً .

( ١ ) مصطفى باعث الحركة الوطنية ، عبد الرحمن الرافعى ص ٢٨٧ و ٢٨٨



أو أجيراً له ، فقال : ليس هناك ما هو أشد بعداً عن الحقيقة من هذا الذى قيل . إن مصطفى كامل لا ينتمى إلا إلى نفسه ثم قال :

وكان مصطفى كامل أول من نشر الفكرة الوطنية بين الشبان المصريين الذين كانوا يتلقون دروسهم فى أوروبا ، وهو الذى أيقظ الروح المصرية من سباتها ، وضم إلى عقيدته وحزبه السواد الأكبر من الموظفين وكثيراً من الأعيان والمثقفين وجميع الطلاب والعمال . . . كان مترفعاً عن الدنيا ولم يتاجر فى السياسة ، كان بسيطاً ومستقيماً ، وكان يخفى فى مظهره الساكن ، روحاً تواقه إلى جلائل الأعمال ، وقلباً مليئاً بمختلف مشاعر الدعة والطيبة ، لقد وهبه الله ميزة المنطق والجدال . كان فصيح اللسان ، وكانت جملة سلسلة قوية ، وكان يتفنن فى الإقناع فى جاذبية سحرية ، كان حبه لوطنه ينبعث من حماس شديد ، دون أن يجعله يفقد اتزان العقل . ونظراً لأنه عاش فى أوروبا وتلقى دروسه فيها ، فكان يعلم أن البلد الذى يريد الازدهار ، يجب عليه أن يحسن علاقاته مع البلاد الأخرى كان يهيمه بصفة خاصة التعبير عن هذا رأى وتأكيده بحماس ، وكأى صوته فى هذا المجال يدوى إلى ما وراء النيل ، لقد عقد صداقات متينة فى أوروبا ولا سيما فى فرنسا وابتدأ صوته يسمع فى إنجلترا فى أواخر حياته . وكان رجلاً نافعاً حقاً لوطنه . . . كانت جنازته فخمة إذ شيعتها مصر بأجمعها ، وجاء من القرى النائية آلاف مؤلفة من أنصاره ليشعوه إلى مقره الأخير . . . كانت روحه مصدر إلهاء للشعب الذى ورث مثله العليا . . . »

## ثانياً - مصطفى كامل وتركيا

إن الذين اتخذوا من التغنى بأفضال الاحتلال البريطانى على مصر ، والإشادة بخبراته على شعبها ، والذين زينوا للناس الإخلاء إلى هذا الاحتلال ، والثقة به باعتباره أحسن أنواع الحكم الأجنبي كانوا يرون أن الذين

يتحدثون عن الكرامة الوطنية ، والشرف القومى لتبرير الهجوم على هذا الاحتلال كانوا يهرفون بما لا يعرفون . هؤلاء عكروا عليهم ضفوف حياتهم مصطفى كامل ، لأن وجوده وميلاده حركته دمعهم بأنهم خائنون ، ودمغت عملهم بأنه خيانة ، ولذلك كان يجب عليهم أن يردوا عليه التحية بأحسن منها ، فقالوا إن مصطفى كامل كان يدعو إلى الولاء لتركيا ، وكان يريد مصر ولاية عثمانية . . وإن هذه هي الخيانة حقاً . ولقد وجد هؤلاء صعوبة في ترويح هذه الفكرة في أثناء حياة مصطفى كامل ، لأن أغانيه وأناشيده في حب مصر والزهو بها ، والمباهاة بتاريخها أخرس أصواتهم فضاعت ولم يسمعها أحد ؛ فلما مات مصطفى كامل ، ثم هاجر محمد فريد ، خلا لهم الجو ، وأصبح في مقدورهم أن يظهروا على مسرح السياسة ويلعبوا عليه أدواراً ذكر الناس ارتباطهم القديم بالاحتلال وتعاونهم معه ودفاعهم عنه ، فعرفوا أن مصدر هذا كله هو تاريخ مصطفى ومبادئه وأفكاره وتلاميذه ، فجددوا اتهامهم القديم له ، وكانوا في هذه المرة مطمئنين ، لأن مصطفى كامل مات ، ولأن فكرة مقاومة الاحتلال كانت قد ضعفت لفترة وحلت محلها فكرة أخذ ما يمكن أخذه من الإنجليز ، وترك الزمن وتطوره يفتح الطريق للحركة الوطنية بلا تهور ولا تسرع . . ولكي ندرك بوضوح وجلاء أن الولاء لتركيا ، الذى كان مصطفى كامل يعلنه ، أو قل يشهره في وجه الاحتلال البريطانى وسياسة بريطانيا الاستعمارية ، كان ورقة من أكثر أوراق العمل السياسى فاعلية وتأثيراً ، ومن أشدها إحراجاً لبريطانيا وإرباكاً لسياستها الدولية ، وسياستها في مصر ، يجب أن نذكر أنه بعد أن وقفت بريطانيا في وجه دولة محمد على التى اتسعت فشملت السودان وسوريا وفلسطين وجزراً في البحر الأبيض ، منها كريت ، في فرض معاهدة لندن التى أبرمت في لندن سنة ١٨٤٠ على محمد على وتركيا في آن واحد ، وكان أهم شروط هذه المعاهدة استقلال مصر مع الإبقاء على تبعيتها للقانونية أو الرسمية لتركيا . : وكان الاعتراف باستقلال مصر

اعترافاً بحقيقة مادية لا سبيل لنكرانها ، وكان الإبقاء على صلة التبعية الرسمية بين مصر وتركيا إرضاء لسلطان تركيا ، ولكن هذه التبعية لم يكن لها مظهر أدبي ولا قانوني ، فقد اقتصرت هذه التبعية على دفع مبلغ سنوي من المال لتركيا باسم الجزية ، وقد رهنّت تركيا هذا المبلغ لبعض البيوت المالية الأوربية التي كانت تدين حكومة تركيا . فمعاهدة سنة ١٨٤٠ كانت الأساس الذي يقوم عليه تجديد العلاقة بين مصر والدول المختلفة وفي مقدمتها جميعاً بريطانيا التي سعت لإبرام هذه المعاهدة والتي أمضيت المعاهدة في عاصمتها فبقيت تعرف باسم هذه العاصمة « معاهدة لندن » .

ثم تطورت الحوادث الدولية ، فزادت تركيا ضعفاً ، وزادت أطماع كل من روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا والمجر وفرنسا ثم ألمانيا في أن تحصل كل منها على جزء من إمبراطورية تركيا بعد أن يجهز عليها وتزول من الوجود وتصبح دولة صغيرة تقتصر حدودها على آسيا الصغرى في قارة آسيا وتفقد أملاكها في أوروبا .

ولم تكن بريطانيا تحب تركيا ، ولا كانت حريصة على الإبقاء على أملاكها في أوروبا كبلغاريا وألبانيا ، إنما كانت تخشى أن تتفكك تركيا نهائياً فيهرع ذئاب الاستعمار من كل جانب لينهشوا أشلاءها ويأخذوا نصيبهم من أجزائها ، وكان أخوف ما تخافه أن ينحدر النفوذ السلافي ، نفوذ روسيا ، إلى مضائق الدردنيل ، فيصل إلى البحار الداخلة ، أي إلى البحر المتوسط ، فيجاور بريطانيا في منطقة نفوذها الحساسة . منافس قوى جائع إلى السلطة ومحروم لأمد طويل من المستعمرات والممتلكات . لذلك كانت سياسة بريطانيا هي الإبقاء على تركيا شبحاً قائماً تسنده ، هي بقوائم من الخشب ، وتضفي عليه صفة السيادة ، وتهدد كل من يفكر في المساس بحقوقه . ولما مات محمد علي وجاء بعده خلفاء ليسوا في مثل قوته ولا شدة بأسه ولا حسن سياسته رأت بريطانيا أن حلمها القديم في الاستيلاء على مصر أصبح ممكناً تحقيقه ، ففعلت كل ما تستطيع لتحقيق هذا



الحلم الرائع ، فأعانت على إقراض الخديو إسماعيل بما يشتهيه من الأموال من البيوت المالية الأوربية وفي مقدمتها بيوت بريطانيا كبيت « جوشن » وبيت « روتشيلد » ، ونهبت من هذه القروض ما استطاعت من قيمتها باسم السمسرة والعمولة وخدمة القرض ، وأرسلت مندوبيها السياسيين في ثوب أصدقاء لمصر ، وشجعت وفود متطرفين ومهيجين ودعاة حرية ، ليستكمل إعداد الطبخة ، ثم عقدت مشكلات مصر الداخلية حتى وقعت ثورة عرابي فلبست ثوب الحمل ، وأصبحت صديقة للخديو ، وادعت أنها تحمي حقوقه ، ودخلت جيوشها مصر في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وواجهت بذلك مأزقاً من أعقد مآزقها الدولية استمر اثنين وثلاثين عاماً حتى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ . فسياسة بريطانيا التقليدية ، وهي السياسة التي وازبت عليها وحافظت على تنفيذها سنين طويلة ، هي ادعاء الصداقة لسلطان تركيا والمحافظة على حقوقه وممتلكاته . ولكنها لا تستطيع أن تدع فرصة ذهبية ، كالفرصة التي أتت لها في آخريات حكم الخديو إسماعيل الذي عزلته في يونيو سنة ١٨٧٩ ، والتي مكنتها من احتلال مصر وبسط نفوذها عليها .

ومصر بحكم معاهدة لندن المبرمة في لندن سنة ١٨٤٠ ، هي ولاية مستقلة ذات تبعية قانونية لتركيا ، فالاستيلاء عليها إخلال بمعاهدة سنة ١٨٤٠ ، وخروج على سياسة مخالفة لسلطان تركيا ، والدفاع عن حقوقه . فإذا يكون الحل ؟ الحل أن تعلن أنها لا تبغى البقاء في مصر ولا تنكر حقوق السلطان على مصر ، ولا تقطع صلة التبعية بين مصر وتركيا ، بل هي تحافظ على كل مظهر من مظاهر هذه التبعية ، فالخديو عباس ينصب بعد وفاة والده توفيق في ٧ من يناير سنة ١٨٩٢ بفرمان ، أي مرسوم من سلطان تركيا ، ولتركيا في مصر ، مع وجود الاحتلال البريطاني ، مندوب سام يتقدم السفراء ، ويقوم في قصر باذخ ، تحيط به أبهة

كاملة ، في الأرض التي أقيم عليها فيما بعد مجمع التحرير . والحديد يزور سلطان تركيا ، ويقدم له فروض الولاء على مسمع من معتمد بريطانيا في مصر ومن سفيرها في تركيا . . . ومصر تدفع الجزية لتركيا .

فإذا جاء وطني مصري ، وكانت غايته أن يخرج الاحتلال البريطاني ، وأن يخرج من مصر ، ويظهر أرضها منه ، أفلا يكون مفرطاً في حق بلده ، وجاهلاً عناصر التضحية التي أقام نفسه محامياً لها إذا هو لم يستغل هذا الضعف القانوني الذي يعاني منه الاحتلال البريطاني ، والذي يشكو منه مركز بريطانيا دولياً . إن بريطانيا وعدت الدول ، وجددت وعودها كل بضعة أشهر بأن الجلاء عن مصر قارب مواعده وأنها لن تطيل وجودها في مصر أكثر من الوقت الذي مضى ، وهكذا حتى بلغت وعودها تسعاً وتسعين وعداً ، ونحن نذكر أن المستر جلادستون تلقى رسالة في يناير سنة ١٨٩٦ من مصطفى كامل ، ولم يكن سوى صبي قارب سن الشباب ، لا يسنده مركز رسمي ، ولا تؤيده صفة ما تجعله المتحدث باسم مصر ، فأسرع جلادستون يقول لمصطفى إنه يعتقد أن زمن الجلاء قد وافي منذ سنين . ذلك لأن احتلال مصر تم في عهد حزب الأحرار البريطاني ، وجلادستون هو زعيم حزب الأحرار وسياسة حزبه أن الاحتلال إجراء مؤقت ، ولذلك لم يكن يدع فرصة دون أن يعلن فيها أن الجلاء إجراء مؤقت وأنه زائل عاجلاً لا آجلاً

ولو راجع القارئ تاريخ الاستعمار الأوربي في آسيا وإفريقيا وأمريكا أيضاً لما وجد لبريطانيا التي اتسعت إمبراطوريتها فلم تعد تغرب عنها الشمس ، وعوداً بالجلاء مثل ما كان لها في مصر . لا لأن مصر استعصت على الاحتلال البريطاني أكثر مما استعصت الهند وسيلان وأستراليا ونيوزلندا وكندا وجنوب إفريقيا ، بل لأن مركز مصر الدولي وظروف الاحتلال البريطاني التي أشرنا إليها هي وحدها التي أرغمت بريطانيا على تلك الوعود .

فالولاء لتركيا لم يكن إذن إقراراً بتبعية مصر لتركيا ، ولا نزولاً عن استقلالها لسلطان بنى عثمان ، ولا تفريطاً في حق من حقوق مصر أو حتى قلامة ظفر من هذا الحق ، بل إنه كان فهماً جيداً وحسناً وموفقاً للظروف الدولية التي تحيط بمركز مصر الدولي ومركز الاحتلال البريطاني في مصر ، وبعبارة أخرى كان فرط حرص على الاستقلال المصري ، كان سلوكاً لطريق أقصر وأنفع ، نحو أهداف مصر وغاياتها التي عاش مصطفى كامل ومات من أجلها .

ولكى نزداد تفهماً لهذه البراعة التي اتسم بها دفاع مصطفى كامل ، أنقل إليك من كتاب استعماري كبير المقام ، هو اللورد جورج لويدي ، الذي كان مندوباً سامياً في مصر لبريطانيا والذي ألف كتاباً اسمه « مصر منذ عهد كرومر » ، قال في هذا الكتاب في صفحة ١٩٢ منه ، عما واجه ممثلي بريطانيا عشية إعلان الحرب العالمية الأولى التي نشبت في صيف سنة ١٩١٤ قال :

« كان يجب مواجهة أخطر وأصعب مشكلة في وقت قريب ، تلك هي مشكلة تحديد مركز مصر حينما تعلن الحرب ضد تركيا » .

« وقد يكون من المفيد أن نذكر باختصار الحقائق العامة الرئيسية فيما يتعلق بمركزنا في مصر ، كما كان فعلاً في تلك الآونة ، لقد كان مركزنا غاية في القوة من الناحية العملية ، وغاية في الضعف من الناحية الشرعية » .  
« فن الناحية العملية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش البريطاني ، وهذا الجيش تعزز في فترة الحرب بالقوات الإمبراطورية المختلفة التي كانت لازمة لمواجهة خطر غزو مصر من الخارج » .

« وفي فترة الحرب زاد نفوذنا الفعلي زياد هائلة بسيطرتنا على البحار التي كانت تعين على عزل مصر عن الخارج تماماً إذا أردنا ذلك . هذه الحقائق جعلت من حقنا أن نسمع رأينا في توجيه الأمور في مصر ، فقد استمد موظفونا وممثلونا من وجود الاحتلال البريطاني سيادة كافية :



ولقد كان مركزنا من الناحية الشرعية مناقضاً تماماً لهذا المركز العملي الشفوى . فمن الناحية الدستورية كان الحاكم لمصر هو الخديو ، وكان مجلس الوزراء هو ناصحه ومستشاره ، ولم يكن لقنصل بريطانيا وجود دستوري أو حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين البلدين : مصر وإنجلترا . ولم يكن الموظفون البريطانيون بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرعوسين وتوابع للخديو ، ولم يكن من قيد شرعى على سلطة الخديو سوى قيد واحد معترف به دولياً ، ذلك هو السيادة العليا لسلطان تركيا لمصر من الناحية القانونية ، فقد كانت ولاية عثمانية ، وكان الخديو يتلقى الملك « بأمر من السلطان الذى يعترف هو بعظمته بالتبعية » . انتهى كلام اللورد لويد .

فأى أبله يرى هذا الحرج الذى تعانى منه بريطانيا وجيوشها وأساطيلها وطائراتها تملأ الأرض والبحر والجو ، وتسد المنافذ على مصر من كل جانب وتخضعها لإرادتها . - أى أبله يرى هذا ويهمله ولا ينتفع به ؟ ومع ذلك فمصطفى كامل لا يمكن أن يكون هذا الأبله ، ولقد واصل الانتفاع بهذا الحرج ببراعة وحذق ، وسبب الكثير من الضيق لها .

كان مصطفى كامل هو أعلى الأصوات هجوماً على الاحتلال البريطانى ، وكان أعظم المصريين جهداً ومثابرة وعملاً فى التصديق على هذا الاحتلال ، وإثارة الكره له ، وتقوية الأمل فى قلوب المصريين فى تحقيق الجلاء والاستقلال ، ونزع اليأس من هذا النجاح ومطاردة هذا اليأس . لقد عاش حياته يذكر اسم مصر ويتغنى به ويكرره ويردده ، فاتهمه بالتفريط فى حق بلاده هو من قبيل الافتراء الممجوج ، فمن هم الذين كانوا يأخذون على مصطفى كامل سياسة الولاء لتركيا ؟ الذين كانوا يأخذون على مصطفى كامل موقفه من تركيا ، كان على

رأسهم « حزب الأمة » . فما رأى الإنجليز في هذا الحزب ؟ وما مدى صلتهم به ؟ وما رأى زعماء هذا الحزب أنفسهم ورأى أصدقائهم وتلاميذهم في مواقفهم السياسية ؟

يقول اللورد جورج لويدي في الكتاب نفسه :

« وبفضل مجهود اللورد كرومر تأسس في أكتوبر سنة ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب الأمة وصحيفة الجريدة ، وقد كان أكثر أعضاء هذا الحزب بعثاً للأمل رجلاً ، أصبح اسمه فيما بعد من أهم الأسماء في تاريخ مصر الحديثة ، ذلك هو سعد زغلول الذي انحدر من أصل مصري قح ، فهو فلاح ابن فلاح ، ولعل هذا هو أهم ما أحاط بحياته العملية من ملاسبات . ولما كان سعد قد اختار لنفسه مهنة المحاماة فقد وقع عليه اختيار الأميرة نازلي فاضل ليكون محامياً ووكيل قضاياها ، وكانت هذه الأميرة العظيمة هي التي أوحى إليه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، التي لم يكن في مقدوره بدونها أن يخوض بحر السياسة . وقد كانت الخطوة التالية من خطواته اقترانه بابنة مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء الذي كان صديقاً دعوباً مثابراً على ولائه لبريطانيا . وقد كان سعد زغلول في هذه الفترة من حياته قد ظهر بعلاقات سياسية من طبقة عالية ، وكان قد أظهر صفات عظيمة منها الاعتدال في الرأي والشجاعة ، فقد كان مصرياً صميمياً ، ومؤمناً بالصدقة البريطانية ، وكان خصماً شديداً وقوياً لسياسة الخديو ونشاطه السياسي . ولذلك كان لا مناص لكرومر إذا أراد أن يشجع الرأي المصري السياسي الموالي لبريطانيا ، وإذا أراد في الوقت نفسه أن يقدم عربوناً للود لصديقه مصطفى فهمي من أن يختار سعد زغلول وزيراً للمعارف المنشأة حديثاً » .

فحزب الأمة الذي كان يصرخ - من فرط حرصه على استقلال مصر - من كل حرف يقوله مصطفى كامل فيه عبارة حب أو ود لتركيا الآفلة التي يتناقص نفوذها في العالم لا في مصر وحدها ، هو حزب

من صنع يد كرومر ، ولد على عينه ، وحبا في رحابه ، وهش عليه بعصاه .

وقد مر بنا فيما سلف أن لطفى السيد الناطق باسم هذا الحزب والمعروف بعد ذلك بأستاذ الجليل ، قد وضع سياسته في الاحتفال بتوديع كرومر في ٤ من مايو سنة ١٩٠٧ بعد سحبه من مصر إثر حادثة دنشواي بقوله إنها تقوم على المجاملة والمحاسنة لبريطانيا وللخديو معا ، ليتيسر أن نقوم بالمحاسنة . والمحاسنة للمحاسبة هي سياسة هذا الحزب الذي نصب نفسه قيماً على استقلال مصر ، والذي كان شعوره الوطنى الدقيق يتأذى من ولاء مصطفى لتركيا ، ولا يتأذى من ولاء مصر لبريطانيا الحاكمة الفعلية لمصر .

ولقد شرح هذه السياسة بعد ذلك بسنوات المرحوم على باشا عبدالرازق ، في مقدمة كتاب « آثار مصطفى عبدالرازق » قال رحمه الله (١) :  
« وحزب الأمة هذا حزب سياسى ، أنشئ ليقف بالأمة موقفاً وسطاً ، لا يميل بهم ذات اليمين وذات الشمال ، وكان يتجاذب الأمة يومئذ سلطان الإنجليز المحتلين للبلاد من جانب وبيدهم القوة بالفعل ، ومصاير الأمور . وسلطان الخديو عباس من جانب آخر مستظلاً باسم السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، وباسم الدين الإسلامى ، ونفوس المصريين حيرى بين هؤلاء وهؤلاء ، وشئونهم مضطربة كذلك ، وأهواؤهم موزعة وآراؤهم مختلفة . وقلوبهم شتى . والحق الذى لا مرية فيه أن كلاً من الإنجليز والخديو كان شراً على مصر والمصريين ، وأن كليهما لا يبغي من الحكم إلا توطئة سلطانه ، وكانت المصلحة الحقيقية للوطن يومئذ فى أن يتخلص من الإنجليز والخديو معاً ، ولم يكن أمام المصريين سبيل إلى ذلك اللهم إلا إن كانت الثورة ، ولكن للثورة ظروفاً وأسباباً لم يكن شئ منها يومئذ موافقاً في مصر . »

( ١ ) من آثار مصطفى عبد الرزاق ص ١٣ طبعة أولى . دار المعارف .



وانتهى بعد هذا الكلام الطويل إلى النتيجة المتناقضة لهذه المقدمة وهي : « ولكن الواقع أن الإنجليز كانوا أرحم بالبلد وأدنى إلى رعاية مصالحه من الخديو » . وهنا مربوط الفرس ، وهنا يبدو شخص اللورد كرومر من بعيد ، ونسمع صوته ولحنه في أنشودة حزب الأمة .

الإنجليز شر والخديو شر . ولكن الإنجليز بيدهم الأمر كله ، والقوة بالفعل ومصاير الأمور . فالاحتلال إذن أولى بالمقاومة لأنه يستطيع أن يفعل ما يريد ، يملك التوجيه والتأثير على مصاير الأمور ، هو الذي يجب على الأمة التصدي له ، والوقوف في وجهه ما دام شرًّا . أما المقارنة بينه وبين شر آخر أضعف منه ، بحكم أن مرتكبه لا يملك القوة ولا مصاير الأمور فلا محل لها ، لأننا لسنا في صدد توزيع درجات في حسن السير والسلوك ، وإنما نحن بصدد مقاومة شر نازل بالأمة ، وواجب يقضى به الشرف ، ويحتمه العقل ، ويفرضه الدين ، والشيخ على عبدالرازق من رجال الدين الإسلامي ويعرف كيف أن رد العادي الغاصب فريضة من فرائض الدين ، وأن التفريط فيه والسكوت عليه مهلك للأمة لأنه مفض إلى الشرك . ولكن حزب الأمة يعقد المقارنة ليصل إلى مهادنة الإنجليز وإحسان الشهادة فيهم ، وهم أصل البلاء ، ويتوثب على الخديو ، وهو ظل الإنجليز إن زالوا زال ، لأنه لا سند له بعد تطور الأحوال عقب الثورة العربية والاحتلال البريطاني إلا حراييمهم :

ولقد حدثنا الدكتور محمد حسين هيكل عن موقف لزعيم حزب الأمة أحمد لطفي السيد إبان الحرب العالمية الأولى ، فقد كان يروج لاتفاقية مع الإنجليز ، تؤدي إلى إسقاط التبعية العثمانية والمناذاة بالخديو ملكاً على مصر ، ومنحها استقلالاً ذاتياً ، في ظل التبعية البريطانية ، فإذا لم تنجح هذه المعاهدة ، حالفت مصر الإنجليز ورضيت بهم حكاماً باعتبار أنهم خير الحاكمين . وقد ثار هيكل على هذه الدعوة ، وقال للطفي السيد

غاضباً : إن هذه دعوة لا معنى لها إلا أن بلدى عبد رقيق ، أو بغى لا شرف لها .

ولقد ألخص الدكتور محمد شفيق غربال سياسة مصطفى كامل فقال إنها تقوم على : قاعدة خالية من كل تعقيد ، أو من كل شطارة : لمصر عدو واحد هو الاحتلال ، ولمصر مقصد واحد هو الجلاء ، وما عدا ذلك تفصيل له وقته ، الإصلاح الحكومى وغير الحكومى ، الحكومة النيابية ، تسوية الأمر ، الامتيازات ، السيادة العثمانية ، كلها حقاً أشياء مهمة ، وأشياء ينبغى ألا تهمل ، ولكنها لا ينبغى مطلقاً أن تطغى على المقصد الأساسى . الجلاء ، أو تضعف من مقاومة العدو الأصلى : الإنجليز . ومصدر العقيدة بسيط كل البساطة هو حب الوطن حباً خالصاً ، لا يشوبه التفكير فى انتفاع أو مصلحة ؛ فكانت حملة مصطفى كامل إذن تستخدم ثلاث وسائل : الوسيلة الأولى ألا يأس مطلقاً ، لا تصدقوا أيها المصريون كلام الإنجليز ، وكلام مأجوريهم بأن مركزهم فى مصر لا يتزعزع ولن يتزعزع ؛ والوسيلة الثانية : ألا تثقوا مطلقاً بوعودهم ، وألا تركزوا إلى محاولة تبسيط مركز مصر الدولى ، بل تدرعوا بتلك العناصر الدولية والعثمانية التى يكرهها الإنجليز ، ويكرههم لها لتمسككم بها . والوسيلة الثالثة : ألا تصدقوا أن الاحتلال يمكن أن يبطن خيراً لكم أو لبعضكم . هو يفعل ذلك ليفرق كلمتكم ، ويجعل من بعضكم أعداء لبعض .

هذا هو رأى الإنجليز فى خصوم سياسة مصطفى كامل إزاء تركيا ، وهذا هو رأيهم فى أنفسهم ، وهذا هو رأى الواقع الثابت فيهم ، وهذا هو أخيراً رأى العلم الصحيح بالتاريخ فى سياسة مصطفى كامل .

لم يبق إلا أن نضع تحت النظر نصوصاً مما جاء فى خطب ومقالات وتصريحات ورسائل مصطفى كامل بصدد علاقته بتركيا .

كتب لمدام جوليت آدم رسالة خاصة يفضى فيها إليها بسياسته نحو

تركيا ، وهى رسالة غير معدة بطبيعة الحال للنشر ، قال :  
 « إنك تعلمين خطتى مع تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أوضحت  
 ذلك فى خطبتى ، وقد اعترف كثير من أصدقاءنا اليونانيين بأنه من حسن  
 السياسة الوطنية لمصر أن تكون مع تركيا على صداقة بما أن الإنجليز يحتلون  
 وطننا العزيز . وإنه إن كان المصرى لا يعرف إلا وطناً واحداً هو مصر  
 فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ، ويظهروا  
 بذلك امتنانهم لها ، لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز » .

وقال فى خطبة له فى ٨ من يونيه سنة ١٨٩٧ :

« إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد  
 الاحتلال الإنجليزي ، واشتراك الأمة على اختلافهم فى الاكتاب للجيش  
 العثمانى هو اقتراح عام ضد الإنجليز فى مصر » .

وفى خطبة الوداع التى ألقاها فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ :

« رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطىها لتركيا  
 كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين ولا نطلب الاستقلال والحكم  
 الذاتى ، هذه التهمة قضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ  
 غيرها من الشعوب ، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير  
 محل نير واستبدال استعباد باستعباد آخر فكيف يطمع طامع فى تقديمها  
 وارتقاؤها ووجود خير وطنى لها .

« وليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى  
 مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة ، فإننا  
 نعمل كغيرنا نتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم  
 يجتمعون ويتناصرون » .

وقال فى مقال فى جريدته الصادرة فى ٨ من سبتمبر سنة ١٩٠٦ :

« لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا



واتفاقها مع إنجلترا ، ويعتبرون من الجنابات ومخالفة الوطنية الحقبة اتفاننا  
مع تركيا ؟ » .

وقال في خطبة في ٢٧ من يناير سنة ١٩٠٧ :

« يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكاً أجنبيا عنا ، فتحن لا نود  
إلا أن نكون قوة مخالفة للدولة العلية ، ننصرها وتنصرنا ونعتر بها وتعتر بنا » .  
فالأمثلة العديدة التي ضربها مصطفى للعلاقة بين مصر وتركيا هي  
أمثلة دالة على أن العلاقة بينهما قائمة أولا على وحدة المصالح ، وثانياً علاقة  
امتنان من جانب مصر لتركيا ، لأنها لم تسلم بريطانيا لمصر ، ولم تنزل  
عن حقوقها في مصر ، مما أخرج طويلا إلحاق مصر بالإمبراطورية  
البريطانية ، أو إعلان الحماية البريطانية الذي فكر فيه المسؤولون  
البريطانيون في مصر وفي لندن ، عندما دخلت تركيا الحرب ضد بريطانيا  
في خريف سنة ١٩١٤ ، وأصبح لا معنى للمحافظة على حقوق تركيا .  
فقد أخبرنا لورد لويد في كتابه « مصر منذ عهد كرومر » بأن اقتراحات  
هؤلاء المسؤولين في وزارة الخارجية ووزارة الحرب والمستعمرات تراوحت  
بين اعتبار مصر ضمن الممتلكات البريطانية ، واعتبارها مستعمرة أو  
فرض الحماية عليها . وكان يمكن أن تنفذ بريطانيا شيئاً من هذه المقترحات  
البريطانية ، واعتبارها مستعمرة أو فرض الحماية عليها . وكان يمكن أن  
تنفذ بريطانيا شيئاً من هذه المقترحات منذ وضعت جيوشها أقدامها في  
القاهرة في ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكان تاريخ مصر قد تغير تماماً  
من كل ناحية .

ثالثاً : كان إظهار الولاء لتركيا والحرص على حسن العلاقة بينها وبين  
مصر مظهراً ضد الاحتلال البريطاني تعلن لبريطانيا وللعالم أن مصر  
ترفض اعتبار هذا الاحتلال إجراء نهائياً . وقد كانت هذه المظاهرات  
تغيب الإنجليز ، وقد أثبت أحمد لطفي السيد في قصة حياته أن القائم  
بأعمال المعتمد البريطاني في صيف سنة ١٩١٤ قبل أو بعد إعلان الحرب

العالمية الأولى قال : « إن المصريين ما يكادون يلمحون طربوشاً أحمر من بعيد حتى يجروا نحوه ويتركوا » . والطربوش الأحمر كان رمزاً لتركيا ، فقد كان لباس رأس الأتراك هو الطربوش الأحمر .

رابعاً — كانت المودة وحسن العلاقة بين الدولتين ثمرة ارتباط روحى لا شأن له بالسياسة ، فقد كانت تركيا هى دولة الخلافة ، وقد كانت الخلافة رمزاً على مجد إسلامى مندهثر ، وتاريخ عظيم منته ، صحيح أن كل عناصر الخلافة بين سلطة وعدل ، وتقدم وعلم ، قد ضاع من الخلافة الإسلامية سواء كانت عربية أو عثمانية بعد القرنين الأولين ، ولكن بقي الأمل الذى يساور المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى عودة الخلافة ، حتى أسقطها مصطفى كمال ، فبكى عليها المسلمون ، وبكاهها معهم وبلسانهم شاعرهم أحمد شوقى بقصيدته التى يقول فى مطلعها :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه	ودفنت عند تبلج الإصباح
ضجعت عليك مآذن ومنابر	وبكت عليك بما لك ونواح
الهند والهة ومصر حزينه	تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس	أحما من الأرض الخلافة ماح ؟

وقد أخبرنا المهاتما غاندى أن الحركة الوطنية الهندية لم يشتد عودها إلا حينما ثار مسلمو الهند بقيادة شوكت على ومحمد على ضد بريطانيا ، احتجاجاً على نكول الحكومة البريطانية بما منحته لمسلمى الهند من العهد بأنها لن تمس ممتلكات الخليفة العثمانى .

ولقد رأينا أمريكا تنحوض الحرب مرتين فى أقل من ربع قرن دفاعاً عن بريطانيا التى تفصلها عنها ثلاثة آلاف كيلو متر والتى تقع فى قارة أخرى غير قارتها لمجرد رابطة اللغة ، مع أن الولايات المتحدة ثارت على بريطانيا ، وحاربتها وتحجرت من حكمها ، فالمليل بين الأمم التى يجمعها جامع من تاريخ أو لغة أو دين أو صلة قديمة ، أمر مشاهد فى كل حقبة من حقب التاريخ دون أن يثير اعتراضاً ، أو احتجاجاً :

### ثالثاً - مصطفى كامل وفرنسا

لم يكتف خصوم مصطفى كامل باتهامه بالعمالة للخديو ثم بالعمالة لتركيا ، فرموه بالعمالة لفرنسا ، فهو عميل بلجهة ما ، ولا يهم أن يقوم الدليل بل أن تتضافر الأدلة ضد التهمة تلو التهمة ، فحسبهم أن يرموه بمنقصة وأن يلوثوا صفحته ما استطاعوا لتهدأ نفوسهم ويفرجوا عن ضيقهم به . وقد اكتفى فريق من خصومه فرموه بقصر النظر ، إذ عقد آماله كلها على فرنسا ، وقصر عليها نشاطه ، واتخذها وحدها ميدان دعائيه ومجال اتصالاته . .

وكل هذا باطل . .

أما الدليل على بطلان تهمة العمالة لفرنسا فقد ظهر جليا بأكثر من برهان ، فمصطفى كامل لم ينقد سياسة ، ولم يتهم على منهج وأسلوب عمل ، كما نقد سياسة فرنسا علناً وعابها ، ولم يبد سخطة ونقمة على منهج وأسلوب عمل كما أبدى سخطة ونقمة على تخطيط وزارة الخارجية الفرنسية ، وقد عبر عن خيبة أمله في فرنسا ، وفي طريقة فهمها للأمور ، وإضاعة الفرص عليها وعلى الوطنيين في مصر ، علنا في مقالاته وسراً في رسائله ، وقد أطلع أصدقاءه الفرنسيين على مأخذه لسياسة فرنسا ، وأقروه عليها وشاركوه فيها . والعميل شخص لا يعرف مبادئ ، ولا يتقيد بأهداف ، لأن غايته الوحيدة وهدفه في كل حركة وسكنة أن يقبض المال وأن يستزيد منه ، وأن يتلون بلون أسياده ويذهب معهم في كل اتجاه ، وأن يبرر أخطاءهم ويكرر دفاعهم .

أما الدليل الثاني فهو أن مصطفى كامل بعد أن خانت فرنسا الوطنية المصرية في فاشودة سنة ١٨٩٨ وفي عقدها للإبرام الودي سنة ١٩٠٤ على وجه خاص ، وبعد أن ندد مصطفى كامل بأخطائها علناً وعلى رعوس



الأشهاد ، مضى في طريقه أكثر صبراً وأشدّ مضاءً وعزماً وأعظم نشاطاً وجهداً :

فبعد حادثة فاشودة في سنة ١٨٩٨ ، وبعد اتفاقية السودان التي ترتبت على هذه الحادثة والتي أصبحت بريطانيا بمقتضاها شريكة لمصر في السودان ، ورفعت علمها إلى جانب العلم المصري لأول مرة ، أصدر مصطفى كامل جريدة اللواء اليومية التي كانت مبدأً وزاداً للحركة الوطنية ، والتي كانت في ذاتها جهاداً قائماً بذاته ، لأنها كانت تتعقب حوادث مصر في الداخل وتطورات السياسة الدولية في الخارج ، بالتعليق والشرح ، حتى اجتمع لدى المصريين مرجع وطني كامل في السياسة في مختلف ميادينها ، كما اتسع لكتابهم الناشئين وشعراهم الشادين ، ولطلاب معاهدهم العليا مجال يجربون فيه أقلامهم ، ومنبر يعلنون منه آراءهم ، فاتضحت معالم المدرسة الوطنية ، وبنيت إلى جانبها المدارس الأخرى الاحتلالية ، والداعية إلى الاعتدال وانزوت ونخفت صوته .

وبعد حادثة فاشودة واتفاق سنة ١٩٠٤ خاض مصطفى كامل معركته الكبرى في حادثة دنشواي ، وزلزل بها قلعة الاستعمار الأولى ، وقاعدته الحصينة ، ونعنى بها سياسة اللورد كرومر ملك وادي النيل غير المتوج ، فقد سحب اللورد كرومر من مصر ، وكان ظن أنصار الاحتلال وأتباعهم أنه خالد ، وقد شيعه الوطنيون باللعنات فهاج غضبه وصرخ من شدة الألم في حفلة تكريمه التي أقامها له بعض الجارين في ركاب الاحتلال أمثال مصطفى فهمي وأشباؤه : الاحتلال البريطاني باق ، وإذا كانت أفضاله على مصر منكورة اليوم ، فسيذكرها المصريون غداً ، لأنه من حسن الحظ أن أولاد العمى يولدون مبصرين . فأضحكت اللواء عليه الدنيا ، وأخرجت الذين احتفلوا به قائلة : هذه آخر وأحسن تحية رأى كرومر أن يجي بها المصريين ، وهو يترك مصر : الاحتلال خالد ! ، أي أن الحمود

كتب على مصر ، والمحتفلون به عميان لا يبصرون . ولكنه هو الذى اختفى ولم يعد له صوت يسمع .

وبعد ذلك ذهب مصطفى كامل إلى لندن وهاجم فيها سياسة بريطانيا ، وقابله رئيس الوزراء البريطانى فأطلعه بغير مواربة على فساد سياسته ، وأضاف فى سنة ١٩٠٧ إلى أسلحة الحزب الوطنى إنشاء الحزب الوطنى نفسه ، وأخرج جريدتين يوميتين واحدة بالفرنسية وأخرى بالإنجليزية ، وكان ظن خصومه أن اتفاق بريطانيا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ سيؤدى إلى ذبوله ثم اختفائه .

وحرمت الإدارة الفرنسية فى تونس دخول « اللواء » جريدة مصطفى كامل إلى تونس ، فكتب إلى مدام جوليت فى ١٣ من أبريل سنة ١٩٠٦ : « أليس غريباً فى بابيه أن يتركى الإنجليز حراً طليقاً ويشتركون فى جريدتى وينزلونها المنزلة الأولى فى جميع الأعياد والاحتفالات الرسمية ، فى حين أن فرنسا تحاربها ، لأن سياستها تناهض سياسة إنجلترا . . . إني أود ألا أخفى عليك حقيقة شعورى نحو فرنسا ، فإنى ثائر على السياسة المشؤمة التى تنتهجها فرنسا ، لأنها تمنعنا من أن نكون لها نافعين » .

وكتب إلى مدام جوليت آدم فى فبراير سنة ١٩٠٤ :  
 فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ، لقد قلت فى رسائل قبل أن غير واحد من فرنسا قد أفهم الحديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة « مارشا » هى الحاملة راية الاستقلال ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .  
 وقد كتب إلى مدام جوليت أيضاً فى ٢ من يونيو سنة ١٩٠٠ :  
 « أبعث إليك بمقالة تفصيح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الحديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلتنا ، وما ذلك وأأسفاه إلا نتيجة لحادث فاشودة » .

ولقد هزت حادثة فاشودة مصطفى ، ولكنها لم تقض على عزمه ولا على  
أمله ، فقد كتب إلى محمد فريد صفيه وخليفته في ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨  
بعد حادثة فاشودة<sup>(١)</sup> ما نصه :

« وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء . وما علينا إلا  
العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا . فما ضاع حق لمطالب ، وإني  
كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا ، وأنه لو اتحد  
مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم . فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة  
المصرية كلها . وإني لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودى فى هذه  
البلاد وحدى وتعود القوم هنا على مقابلتى دون غيرى ، فعسى الله أن  
يمدنى بمساعد ، وأجد من بنى الوطن أنصاراً يجاهرون معى علناً بأفكارى  
وآمالهم وما ذلك على الله بعزيز » .

وقد كانت هناك رغبة من الخديو والأجانب المحيطين به على فرض  
نائب فرنسى هو ديلونكل على مصطفى كامل ، وإلزامه بقبول العمل  
معه ، والإذعان لتوجيهاته . ولكن روح مصطفى كامل الاستقلالية أبت  
عليه أن يعمل فى الدعاية لوطنه تحت إمرة فرنسى ، فكتب إلى الأستاذ  
عبد الرحيم أحمد وكيل القلم العربى بالديوان الخديوى ( المعية ) - يصف  
ديلونكل وصفاً ممتعاً قال :

« وأصرح لكم بكل إخلاص أن المسيو ديلونكل له بين إخوانه  
متزلة ، ويشهدون له بالنباهة والاستعداد وقوة الكتابة والخطابة ، ولكن  
للرجل عيوباً كما له فضائل ، فمن عيوبه أنه خفيف « جداً جداً » ،  
وأخاف أن نخفته تضر بنا ، ومثال هذه الخفة أنه يذكر سمو العزيز  
( الخديو ) بعض الأحيان وسط جمع من أصحابه ويقول : قال لى ،

( ١ ) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية - الطبعة الثانية ص ١٠٢ -  
عبد الرحمن الرافعى .



قلت له . وكان يخطب مرة في الجمعية الجغرافية ( بياريس ) فتكلم عن الطلب المقدم من بعض المصريين لمجلس النواب بشأن المحاكم المختلطة قبل أن يقدمه للمجلس وقبل أن يعرفه إنسان . مما دل الناس على أنه هو الذي حضره ووضعه . وأيضاً في مسألة « اللاوحة » أظهر لي من الحقة ما لم أكن أنتظره من قبل ، فقد استمر كل هذه المدة يقول لي يومياً : قدمها لرئيس الجمهورية ، ويوماً آخر : « إن رئيس الجمهورية لا يقبل هدايا إلا من الملوك » ، ومرة أخرى قدمها لمجلس النواب ، وفي الختام وبعد التروى الطويل قال لي قدمها للجمعية الاستعمارية . تعجبت أشد العجب وقلت له : هل الجمعية الاستعمارية تمثل فرنسا ، فقال لي : قدمها إذن لمن تشاء (١) .

وقد مر بنا كيف رفض مصطفى كامل أن يتولى فرنسي أياً كان ، عرض القضية المصرية على الرأي العام الفرنسي ، فقال للخديو في تقرير : مطالبتي بحقوق مصر بصفتي من أبنائها يحدث تأثيراً أكبر كثيراً من التأثير الذي يحدثه أبلغ الفرنسيين وأكثبهم . ومهما كان الفرنسي صادقاً فلا يتصور العقل أنه يكون كمصري يتألم بالآلام أمته ويحزن لحزنها ويفرح لفرحها » .

أما أن مصطفى كامل قد استعان بفرنسا في حملاته ضد الاحتلال البريطاني فهذا أمر تستوجبه البديهة كما قضت به الظروف السيولة ، ففرنسا كانت دائماً المنافس الأول لبريطانيا في كل بقاع الأرض فقد تنافستا على أمريكا ، وتنافستا في الهند ، وتنافستا في مصر ، وتنافستا على البحر المتوسط والسيادة على العالم ؛ وفي عهد نابليون دخلتا في حرب بحرية وبرية طوال خمسة عشر عاماً . ولقد أزعج بريطانيا احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨ ، كما أزعج الفرنسيين احتلال الإنجليز لها سنة ١٨٨٢ ، وهذه الكراهية الطبيعية ، وهذا التنافس القائم ، أتاح لمصطفى كامل للتعبير

لم يكن ليجد لها ولو أنفق ألوف الجنيهات ، ولولا هذه البغضاء المتقدمة لما وضعت فرنسا صحفها ومجلاتا وجمعياتها تحت إمرة مصطفى كامل ، ولما أحسنت استقباله مدام جوليت آدم ، ولما عرفت وقدمته إلى الساسة خارج فرنسا . فهذا الذي فعله أمر يشكر عليه ولا يؤخذ عليه ويعاتب .

ولكن هل صحيح أن مصطفى كامل اعتمد على فرنسا وحدها ؟ هذا أيضاً غير صحيح إطلاقاً ، ونظرة واحدة إلى نشاط مصطفى كامل في سنة من سنوات عمله كسنة ١٨٩٦ أو ١٨٩٧ مثلاً تكفي لبيان أن فرنسا لم تكن سوى ميدان من ميادين نشاطه ، فقد افتتح سنة ١٨٩٦ برسالته المشهورة إلى جلادستون التي تلقى عنها الرد في ١٤ من يناير من تلك السنة ، فأحدث دويًا على الوجه الذي شرحناه . ثم كتب رسالته الثانية والثالثة إلى جلادستون حتى تلقى رداً ثانياً ، ثم خطب في الإسكندرية في ٣ من مارس ، ثم عاد فخطب فيها بالفرنسية في ١٣ من أبريل ، ثم أصدر مجموعته « مصر والاحتلال البريطاني » ، ثم سافر أول أغسطس قاصداً فرنسا ، فتحدث إلى لير بارول والإكلير ، ثم سافر في أكتوبر إلى ألمانيا ، وفي الشهر نفسه وصل إلى فيينا ، وفي الشهر نفسه أيضاً ذهب إلى تركيا ، وفي نوفمبر عاد إلى مصر .

وبدأ سنة ١٨٩٧ ببناء وجهه إلى ألمانيا بمناسبة عيد ميلاد إمبراطورها ثم سافر في مارس إلى تريستا ، بعد أن أفضى بحديث إلى أمريكى ، ثم سافر إلى النمسا ، وأقام وليمة في ٤ ، ٥ من مارس في فيينا ، وفي ٢٦ من مارس كان في بودابست ، ثم سافر منها إلى برلين ، فكان في الخامس من أبريل بها . وفي ١٢ من مايو عاد إلى مصر ، وفي ٨ من يونيو ألقى خطبة في الإسكندرية ، وفي يونيو سافر مرة أخرى إلى الآستانة وفيها أفضى بحديث إلى جريدة ألمانية ، ثم قصد فيينا ، ومنها إلى باريس ، ثم سافر ثانية إلى برلين ، ثم عاد إلى باريس وعاد إلى مصر في أكتوبر مريضاً . . .

فتردد مصطفى على فيينا وبرلين وبودابست كان كترده على فرنسا

أو أكثر ، ولما قدم تقريره السياسى إلى الحديو الذى رسم به خطة الدعاية وشرحها اقترح أن يستيخدم جريدتين فرنسيتين ومثلهما فى روسيا ، وثلاثاً على الأقل فى ألمانيا ، كما اقترح استخدام ( كل الأجناس ) وأكد كثيراً وجوب التحبيب لألمانيا والتقرب إليها بكل وسيلة .

فسياسة مصطفى كامل فى الواقع ، هى سياسة فسيحة مترامية الآفاق لا تعتمد على أحد ولا على دولة ، ولا على أسلوب واحد . إنها تبحث عن الفرص والميادين والأشخاص ما دام فى أى من هؤلاء النفع لمصر ، أو لحجود الأمل فى إمكان خدمتها ، أو للإساءة إلى أعدائها .

فكما ترى كم تجنى خصوم مصطفى كامل عليه ، ، وكم شوهوا لتاريخ وقلوب الأمور . . أين هم أعداء مصطفى كامل ؟ ومن هم ؟ إن مصطفى كامل لا يزال مصدراً لكفاح المواطنين فى أمته . .

وهذا هو حكم التاريخ دائماً . .

وقد قال ليقوى الأمل فى نفوس المصريين ، ولينفى عنهم طائف اليأس الذى بدأ يلم بهم لحيانة فرنسا فقال :

« إننا لم نياس ولن نياس أبداً من مستقبل الوطن العزيز ، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأثم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا سيكون فيها كحظ الدول المعتدية عليها . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا يائسون كل اليأس من أى تعصيد يأتينا من أوروبا ، وأصبحنا نوجه هممتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربية أبنائها بإنشاء المدارس فى أنحائها ، حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة ، ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة الفتحة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم فى الأيام الآتية مستقبلاً باهراً . »

وقد أرسل فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ إلى مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية يهجو مسيو ديلكاسيه وزير خارجية فرنسا ويهاجم سياسة الاتفاق الفرنسية البريطانية قائلاً : « الآراء متحدة هنا على أن إنجلترا ساقط



فرنسا إلى الهاوية ، وقد قدم ديلاكاسيه ( وزير الخارجية ) بذلك لبلاده  
أظرف هدية ، ولكن مما يؤلم النفس أن الجبن والمنفعة الخاصة هما اللذان  
يحكمان فرنسا الآن ، ولا أدري كيف تتحمل أمة كأمتكم نير الحكومة  
الحاضرة . ويلوح لي أنه ليس في مصر وحدها قد يهوى الرجال إلى أسفل  
سافلين .

وقد انضمت مدام جوليت آدم نفسها إلى مصطفى كامل في حملته  
على السياسة الفرنسية في المقدمة التي كتبها لكتاب « مصريون وإنجليز »  
الذي ضم مقالات وخطب ورسائل مصطفى كامل في عشر سنوات  
فقلت :

« إن آلام المصريين كبيرة ، بل إن مرارة هذه الآلام تزداد في نفوسهم  
لأنها تأتيهم عن طريق فرنسا التي هدمت بواسطة ديلاكاسيه ما بنته في  
قرون ، وإن هذا الهدم له نتائج الوخيمة على مصالح فرنسا ومصالح  
مصر ، يخيل إلى أن حكامنا منذ سنة ١٨٨٢ وجهوا همهم إلى مساعدة  
الإنجليز لتثبيت أقدامهم في مصر ، كما أن التعليمات التي يتلقاها وزراؤنا  
سنة بعد سنة تسيء إلى مصالحنا بقدر ما تسيء إلى مصالح مصر » .

### رابعاً - مصطفى كامل والتعصب الديني

كان مصطفى كامل جديراً بأن يكون هو وحزبه آخر من يرى  
بنقيصة التعصب الديني والعمل على التفرقة بين المصريين بسبب  
مذهبهم أو طائفتهم أو مركزهم الاجتماعي ، ذلك لأن مذهب مصطفى كامل  
هو حب مصر ، والتغنى بها ، وإثارة حبها في القلوب . ومصر التي ظالما  
وصفها بأنها « الأم » ، والتي تحدث عنها كما يتحدث الابن عن أمه  
هي ككل الأمهات لا تفرق بين أولادها ، فهي أم القبطي والمسلم ،

وأم المصري والمتمصر ، والفقير والغنى ، وأم الضعيف والقوى .  
فالوطنية مذهب ، هو أشمل المذاهب من وجهة نظر الوطن الواحد ،  
وفيه لا يتفاضل الناس إلا بمقدار ما يخدمون أمتهم ويضحون في سبيلها .  
على أن لمصطفى كامل خاصية أخرى تميزه من جميع الزعماء  
الذين عاصروه والذين جاءوا بعده ، فقد كان يؤمن بدولية القضية المصرية ،  
يعنى أن النزاع المصري مع الاستعمار البريطانى ليس نزاعا ثنائيا يقتصر  
على طرفيه : مصر التى أصيبت بالاحتلال ، وبريطانيا التى اعتدت  
على مصر بالغزو والسلب والنهب ، بل إنه بطبيعته دولى ، يهم مجتمع  
الدول كلها ، لأنه يؤثر على مصالحها إن آجلا وإن عاجلا ، بصفة  
مباشرة أو غير مباشرة ، فهو بؤرة للصراع بين الأقوياء الذى قد يفضى  
بذاته إلى حرب دولية ، تجر إليها من كان فى أقصى المغرب ومن كان  
فى أقصى الشرق .

ودولية النزاع المصرى البريطانى اقتضت مصطفى كامل أن يقضى  
نصف عمره بين الساسة والكتاب والنواب والشيوخ والوزراء وأصحاب الرأى  
فى أوربا ، وهؤلاء جميعا مسيحيون ، بل إن بعضهم غارق حتى أذنيه  
فى مشاكل تهمة المسيحية ، والمسيحيين والأرمن فى تركيا .  
وقد مضى تاريخ مصر منذ بدأ هذا التاريخ إلى اليوم دون أن تشويه  
أو تشوّهه انفجارات التعصب الطائفى التى تقع بسببها فى مختلف  
أنحاء العالم : شرقه وغربه مذابح ، آخرها مايجرى فى أيرلندا بين  
طائفتين مسيحيتين .

والحق أن التعصب جزء من الطبيعة الإنسانية ، والإنسان مفطور  
على البحث عن أسبابه ودواعيه ، وربما كان مرد هذا إلى أن التعصب  
يحرك النفس الإنسانية ، ويستنفد طاقاتها المتعطلة ، فالناس يحبون  
أن يتعصبوا لوطنهم أو لبلدتهم أو لمدرستهم أو لناديتهم أو لحزبهم ضد  
وطن أو بلد أو نادى الآخرين ، وقد تقع من وراء هذا التعصب الدينى

الذى هو أكبر صور التعصب ، باعتبار أن الدين أكثر اتصالا بماضى النفس الإنسانية وتراث الآباء والأجداد ، وأنه يثير الصراع الدينى الذى صاحب نشأة الدين وانتشاره واضطهاده . . . . وكلنا يعرف كيف أدى التعصب لناديين رياضيين فى مصر إلى دماء تسفك وأرواح تزهد ، بل إننا نذكر أن حرباً أعلنت بين دولتين من دول أمريكا اللاتينية بسبب مباراة كرة بينهما ، كما أذيع أن مظاهرات قامت فى إيطاليا بسبب هزيمة فريقها القومى فى المباراة على كأس العالم سنة ١٩٧٤ وأن بعضهم انتحر من فرط حزنه بسبب هذه الهزيمة .

ولكن رى مصطفى كامل بتهمة التعصب كانت — ككل مارى به من تهم لا تقوم على أساس ، وكان لا يطبق السكوت عليها ، فكلما رماه بها رام انتفض انتفاضة الغاضب المتجنى عليه ظالما ، ونفاها بشدة من ينفى عن نفسه عاراً لا يقبله ولا يطيقه .

قال فى خطبته بالإسكندرية فى ٨ من يونية سنة ١٨٩٧ : «إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد» . .

وقال بعد ذلك بثلاث سنوات ، وفى الإسكندرية أيضا : «كيف يستطيع رجل أن يدعو للشقاق والبغضاء ؟ هذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط إخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنا معهم القرون الطوال ، على أتم وفاق ، وأكمل اتفاق» .

وقد أحسنت جريدة إيطالية بعد وفاته حينما نفت هذه التهمة ، وهى جريدة «امبارتسيالى» : إن أظلم اتهام وجهه إليه أعداؤه وخصومه من ذوى النية الفاسدة هى التعصب الدينى ، إنها ضربة خطيرة كانت مبعث سخط مؤلم للرئيس الشاب للحزب الوطنى ، إن المثل الأعلى الذى أصر عليه الرائد الذى ارتحل فى ريعان الشباب هو نشر التعليم بين أفراد الشعب المصرى . كان متمسكا بهذا التعليم الإلزامى الذى



عرفت قيمته الأمم المتقدمة ، فأنشأ المدارس وشجع الثقافة الشعبية ،  
وتبنى إنشاء الجامعة المصرية .

كما أنصفته جريدة « الطان » الفرنسية في نوفمبر سنة ١٩٠٧ ،  
أى قبيل وفاته بأشهر قليلة : إنه لمن دواعى الأسى لنا أن مسلما  
مسموع الكلمة يصرح عاليا بأنه لا إسلام دون عدالة ومدنية وإنسانية ،  
وأنه يعاقب على كل إجرام يرتكب ضد الأوربيين ، وأنه العدو اللدود  
للرذائل والموبقات .

ولما خطب مصطفى كامل فى ٨ من يونية سنة ١٨٩٨ وصفت جريدة  
« الوطن » التى كان يصدرها المرحوم ميخائيل عبد السيد ، والتى كانت  
تتابع شئون الأقباط بادتمام خاص ، خطبة مصطفى ولخصتها ،  
وأثنت على الخطيب بقولها : فقد انشرح كل من سمع حضرة الوطنى  
الماهر مصطفى كامل ، لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على  
الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على  
مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالة .. ونقل قول مصطفى :  
« إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات  
والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » .

وقالت جريدة المؤيد تعليقا على تقرير الوطن : « قد نشرنا أيضا  
ما كتبه جريدة الوطن الغراء فى هذا الصدد ، وهو ليس من قبيل تقرير  
الخطيب ، بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك  
الخطبة الوطنية » .

على أن الشهادة الكاملة فى حق مصطفى كامل ، الذى أبرأه الله منها ،  
ونزله عن وجهة التعصب ، جاءته من مصرى قبطى عظيم ، هو الأستاذ  
مرفس حنا الذى زامل مصطفى كامل فى العمل الوطنى ، والذى انتخب  
فيما بعد نقيبا للمحاميين ، ووزيرا للأشغال ، ومنح رتبة الباشوية ،  
فقد أبى مصطفى بعد وفاته بخطبة حارة قال فيها :

ليس الأبطال قائدى الجيوش ، والتقابضين على دقة الأساطيل ،  
 إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدافه الدائبون على السير  
 فى سبيله ، حتى ارتفعوا إلى أوج الرقى والعلا . سار الفقيد فى سبيله  
 هذا ثابت الجأش شديد المراس ، لا يلاوى على أحد ، ولا يقف به  
 أمر ، حتى فاز كما نرى ، وأراد أن تكون الوحدة الوطنية وأرانا طريق  
 الإخاء والحرية ، وهدانا إلى السعادة الحقيقية ، ورسم لنا طريق الوفاء  
 والتآلف . . هذا بناء مصطفى كامل ، هذا عمل مصطفى كامل ،  
 وقد بدأنا نجنى ثمره من الآن ، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول  
 إلى الحرية والاستقلال .

وقد شهد بمثل ذلك صحفى أجنبى كبير هو « لوى برتران »  
 إذ قال :

« كل عمله ينحصر فى تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه ،  
 والمقاومة السلمية ، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقى المادى دون العناية  
 بتحرير النفس أدبيا . فما كان أجل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى  
 نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لاسلاح له إلا قلبه  
 ولسانه . . »

والواقع أن خصوم مصطفى كامل وخصوم الحزب الوطنى من بعده  
 استغوا نزاع الأرمن فى تركيا ، ومشكلة المستعمرات فى أواسط  
 وشرقى وغرب إفريقيا التى فتحت أبوابها لبعثات التبشير المسيحى فضلا  
 عن احتكاك الحاكم الأوروبى المسيحى بالمسلم فى بلاد خضعت للفتح  
 العربى كبلاد العرب فى شمال إفريقيا وبلاد المسلمين فى الشرق الأقصى . .  
 والتعامل مع هؤلاء ، والسعى لاستجلاب عطفهم ، والظفر بحسن ثقتهم ،  
 تجعله حريصا على ألا يبدو منه قول أو فعل ما يشككهم فى نواياه  
 نحو المسيحيين فى كل مكان . وقد شملته مدام جوليت آدم بعطفها ،  
 ومنحته حبها بإخلاص وسخاء ، وأثنت عليه واعتبرته ابنا ، وعرف

بنفضلها أمثال بييرلوتي ومارشا ، وغيرهما من ذكر أسماءهم من قبل ،  
ومدام جوليت ، مشغلة بالسياسة الفرنسية والدولية ولها أطماع  
قومية .

وقد نشأ وترى تربيته السياسية في مدرسة الحقوق الفرنسية  
في مصر وفي كليتي الحقوق بباريز وطولوز . واحتكاك الناس بعضهم  
ببعض ينشأ أسباب النفور بينهم ويزيدهم تقارباً . على أن مصطفى كامل  
قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، مسلم صحيح الإسلام ، متدين  
عارف بأصول دينه ، والإسلام يكره التعصب ويمقتة ، وينهى عنه ،  
فلقد ألح رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام في وجوب رعاية المسلمين  
أهل الكتاب وأعلن أنه خصم في يوم القيامة لمن كان خصيماً للكتابيين  
( أى اليهود والمسيحيين ) في الدنيا .

ولم يدع مصطفى كامل فرصة لإثبات أن العلاقة بين مصر وتركيا ،  
ولو كانت تركيا هي دولة الخلافة الإسلامية ، هي علاقة سياسية ،  
أثرها الأساسي في مجال العلاقات الدولية ، وفي حشد أكبر قوى تمكنه  
ضد الاحتلال البريطاني ؛ فليست علاقة قائمة على تكوين تحالف  
إسلامي ، ضد العالم المسيحي ، لأن مصر تستعين بفرنسا وألمانيا والنمسا  
وروسيا ، وكل هذه دول مسيحية ، بل إن كلا منها يعتبر نفسه حامياً  
جانب كبير من العالم المسيحي ، فرنسا هي رأس الكاثوليكية ،  
وروسيا هي حامية الأرثوذكسية ، والنمسا تعمل على حماية شرقي أوروبا  
الذي كان خاضعاً للحكم التركي .

وليس في الوسع نقل ماقاله مصطفى كامل ، في توضيح هذا الجانب  
( الواضح ) فعلاً من سياسته ، ولكن خصومه يتظاهرون بأنه غامض ،  
ولكننا سنكتفي بالقليل من أقواله وتصريحاته في هذا الصدد .

في سنة ١٩٠٧ أصدر اللورد « كرومر » تقريره السنوي عن الشؤون  
في مصر ، فأشار إلى الاتحاد الإسلامي ، مظهراً خوفاً من فكرة هذا الاتحاد ،



فانبرى مصطفى كامل يرد عليه بمقالين في السابع والثامن من أبريل سنة ١٩٠٧ تناول فيهما الفرق بين الاتحاد الإسلامي والوطنية اللذين خلط بينهما اللورد كرومر (١) ، فقال إن في مصر شعورين منفصلين واضحين ، فالشعور الوطني يشترك فيه المسلمون والأقباط ويضمهم إلى العمل معا جنبا إلى جنب لرفعة الوطن والمطالبة بالحرية والاستقلال ، والشعور الديني عند المسلمين والأقباط يلعب دوراً كبيراً ولا ينكره أحد ، فإذا خلطنا بين هذين الشعورين ، فالأولى أن نخلط بين البروتستانتية ومذهب المحافظين بدعوى أن معظم الإنجليز بروتستانت . إن المصريين اليوم يهتدون في سيرهم بنور العلم والمعرفة .

وفي خطبته التي ألقاها في الثالث عشر من أبريل سنة ١٨٩٦ على جمع غفير من الأجانب المقيمين في مصر قال :

أجل ، لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالي الذي يقول أعداؤنا إنه في نفوسنا . إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا في صورة قوم متوحشين مستعدين لإخفاء كل أوربي في بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا . ولقد تطرفوا في هذا الادعاء فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ، ويسخروا من سلامة نيتكم . . . أنتم يا أوفى أصدقاء مصر ، وأعز ضيوفها . . . الأمة المصرية متعصبة ؟ ! وامصيبتاه ! أما ترون أنفسكم أيها السادة ؟ إذا كانت في العالم أمة صفتها اللطف والوداعة فإنما هي ولا شك الأمة المصرية ، فإن الكثيرين من الأوربيين يعيشون بأعظم سكينة في القرى ، مختلطين اختلاطا دائما مع الفلاحين .

« هل احتجاجكم مرة إلى عون عسكري إنجليزي ضد مصرى ما ؟ !

« ليفتش أولئك الذين يتهمونا بالتعصب في كل تاريخنا ،

(١) مصطفى كامل : حياته وجهاد - أحمد رشاد . ص ٢٣٩ .

وليبحثوا في تاريخنا إذا كان الأوربي في زمن من الأزمان أسيت معاملته .

« ولماذا انذهب للبحث في التاريخ برهانا على تسامحنا الديني ؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الديني الحميل ؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة كانت تسمح لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالإسلام ؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون في الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال ؟ كيف تكون الأمة في آن واحد متعصبة للدين ومحبة للإنجليز . ( تصفيق حاد ومتصل ) .

« إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين : إهانة غضب الأمة وإلقاء بذور الشقاق بين الأوربيين والمصريين . ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الديني » .

وفي ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٠٦ أرسل رسالة إلى مدير جريدة « الطان » يقول فيها :

« إننا كمسلمين نميل إلى إيجاد تفاهم بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي ، إن اليوم الذي يتحقق فيه هذا التفاهم على أسس عادلة ستشعر فيه الإنسانية بالسعادة والهناء ، ويبقى على الأمم الأوربية التي ترغب في احتضان هذا المبدأ وإخراجه إلى حيز الحقيقة أن تبرهن على ذلك بالأفعال » .

وقد يحسن أن نسجل هنا أن أول لجنة إدارية للحزب الوطني ، والتي انتخبته الجمعية العمومية الأولى للحزب المنعقدة في ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ قد انتخبت الأستاذ ويصا واصف المحامي عضواً ، وقد جاء عدد ما حصل عليه من الأصوات في المرتبة التاسعة ، بين ثلاثين عضواً ، فجاء بعده على فهمي كامل شقيق رئيس الحزب ، وحافظ رمضان

الذى كان الرئيس الثالث للحزب ، وقد كانت مشاركة ويصا واصف فى مجلس إدارة الحزب الوطنى هى أول مشاركة للأقباط بعد الاحتلال فى أى نشاط حزبى ، مما يقطع بأنهم أحسوا وأدركوا عن الحزب الوطنى أنه حزب المصريين ، وأن ما عمل ضد هذا الإدراك السليم ، وهذا الإحساس الصحيح ، لم يكن يقصد به محاربة الحزب الوطنى فحسب بل محاربة الوطنية التى كان ساعدها قد اشتد .

والدليل على ذلك أنه لم يكذ « كرومر » يذهب ، ويحل محله دون جورست ، وتحل محل سياسة الشدة والقمع التى اتبعها « كرومر » سياسة « اليد الناعمة » و « القفاز الحريرى » الذى يخفى قبضة من حديد ، حتى سعى الساعون لإحداث فتنة بين أبناء الأمة الواحدة ونبتت ثمرة المؤتمر القبطى فى أسىوط ، والمؤتمر المصرى فى مصر الجديدة .

وفى هذه الفترة التى لم يطل عمرها لحسن الحظ والتى لم تترك أثراً يذكر فى وحدة الأمة وصلابتها ، وتساميتها عن صغار التعصب ، كتب كاتب يدعى فريد كامل ، مقالات تناول فيها المسلمين ، فسكت عنها « اللواء » ولم يرد عليها ، ثم انتهى إلى الهجوم على الإسلام نفسه ومبادئه ، وهنا تناول رئيس تحرير اللواء ، الشيخ عبد العزيز جاويش ، قلمه ورد على فؤاد كامل رداً قال فيه : أينجح جورست فيما فشل فيه أستاذه كرومر ؟ وتحدث عن قوة الصلة بين القبطى والمسلم وعن حسن العلاقة بين الأكثرية والأقلية فى مصر ، وقارن حالة الأقلية فيها بما تناله الأقليات فى بلاد يحكمها الأوربيون ، وقال هاهو ذا السير جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره إلى لوندون ما يثبت كفاءته ، حتى إذا خلا إلى أولى الأمر فيها : قال ، هأنذا قد فعلت ما لم يفعل سلفى ، ونجحت فيما فشل فيه أستاذى ، إذ حاول اللورد كرومر مراراً التفريق بين عنصرى الأمة ، وطعن المسلمين بالأقباط ، والأقباط بالمسلمين ، فلم ينجح ولم يفاج ، ولكنى تمكنت



بإشارة صغيرة منى إلى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التي كان اللورد يجد وراءها ولا يصل<sup>(١)</sup> .

وقال إن الأقلية القبطية عاشت مع الأكثرية المسلمة دهوراً دون أن تتسرب بينهما كراهية ، ولا أن تقع قطيعة ، ولم يفخر مسلم بالاستعلاء على قبطى ، ولم يشك قبطى من استغلال مسلم .

ولما مات محمد فريد ، وكان الشيخ جاويش فى ألمانيا ، حيث لقي الرئيس الثانى للحزب الوطنى ، نهاية الأجل ، وقف يؤبنه وقال :

أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الذى يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة ، وغاية كل مجاهد من رجالها . أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب ، وكيف نافس فى سبيل الوطن أطفال الأمة الشيوخ ، ونساءها الرجال ، ومسيحيوها المسلمين ، وكيف تعانق الهلال والصليب ، والقرآن والإنجيل وتعانق الشيخ والقسيس .

ولما أعلن الدستور المصرى فى سنة ١٩٢٣ وجرت أول انتخابات عامة فى سنة ١٩٢٤ ، ورشح الشيخ عبد العزيز جاويش نفسه عن دائرة كرموز بالإسكندرية ، كتب الأستاذ جندى إبراهيم صاحب جريدة « الوطن » التى نشرت مقالات فريد كامل ، مؤيداً للشيخ عبد العزيز جاويش ، ضد محمد سعيد باشا رئيس الوزراء بمقال طويل نشر فى عددها الصادر فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

وهكذا ظهرت صحيفة الحزب الوطنى بريئة من كل شائبة تشوبها ، وبقي تراث مصطفى كامل تراثاً وطنياً ، يفخر به القبطى والمسلم ، ويرون فيه صورة رائعة من صور الجهاد من أجل الحرية والرخاء والمساواة .

( ١ ) كتاب : مشهورون منسيون - بقلم المؤلف ص ٤٣ .

## موت أم ميلاد

عاش مصطفى كامل عمراً قصيراً ، ولكن كانت حياته طويلة . لم تكن طويلة — كما يقول الشعراء والأدباء عادة — بحساب الأعمال الباقية ، والآثار الباقية ، والأفكار التي ستستمر مصدراً للإلهام ، والسلوك الذي سيؤخذ نموذجا للمحاكاة . بل كانت حياة مصطفى كامل طويلة بحساب الأيام والسنين . فقد بدأ حياته العامة مبكراً غاية التبكير ، فأتيح له أن يمنح المثل الأعلى الذي وهبه كل قواه ومواهبه ، وكل تفكيره وإحساسه ، ست عشرة سنة كاملة ، بقي فيها على المسرح العام ، يقول أفكاره الثابتة ، ويدعو إلى مبادئه التي لا يبدل فيها ولا يغير . يقولها خطابة ، ويقولها كتابة ، ويقولها حديثا ، ويقولها بالعربية ، ويقولها بالفرنسية ويقولها في رواية ، ويقولها في كتاب ، ويتحدث بها نفسه . . ستة عشر عاما من العمل العام لم ينحرف عنه إلى وظيفة ، ولا إلى وزارة ، ولا إلى عطلة يوم ، أو راحة مرض ، ولم يضع ساعة مجاملة لصديق ، أو فترة ترويح لنفس مكدودة ، أو جسم عليل . .

ولو حسبت السنين التي قضاهما زعماء مصر ، الذين جاءوا بعده ، على المسرح العام ، بعيداً عن الوزارة والوظيفة الصغيرة والكبيرة ، لما وجدت منهم واحداً قضى من أجل هذا العمل وفي سبيله مثلما قضى مصطفى كامل من السنين مع المثابرة والانقطاع والمواصلة والتركيز .

فهى إذن حياة طويلة . .

ثم هى حياة ناجحة ، بل إنها بلغت من النجاح ما لم يبلغه أحد

من أصحاب الدعوات الوطنية أو الفكرية في القديم والحديث  
في الشرق والغرب . .

فقد بدأ حياته والاحتلال البريطاني مستقر ناعم البال ، مطمئن  
إلى بقائه واستمراره ، ورضاء الناس به ، وثقتهم فيه ، ومات وكل الذين  
أبدوا الاحتلال في الماضي غيروا مواقفهم ، إما بالدفاع عن أنفسهم ،  
وإما بالتخفيف من صراحة ولائهم . . بل منهم من انتقل من معسكر  
المؤيدين إلى معسكر المقاومين . بدأ مصطفى حياته . وليس في يده إلا قلمه  
يكتب به ضيفا على جريدتي الأهرام والمؤيد ، ومات وفي خدمته صحيفة  
يومية هي أكثر الصحف المصرية رواجاً وأعلامها مقاما ، وأعذبها صوتاً ،  
وأحبها إلى القلوب منهجا ، ومعها جريدة يومية إنجليزية وجريدة يومية  
فرنسية وجريدة أسبوعية إنجليزية — ومجلة أسبوعية وأخرى شهرية  
بالعربية وعدد لا يحصى من الصحف في فرنسا وألمانيا والنمسا ،  
تضم له الود ، وتعلن الإعجاب ، وتفسح صفحاتها لما يقول  
ولما يكتب .

بدأ حياته والاشتغال بالعمل العام . مجازفة يتحاشاها ويحسب حساب  
عواقبها كل الناس : الموظفون لأن الحكومة تمنعهم من العمل بالسياسة ،  
والطلاب لأن مدارسهم تعاقبهم على الاشتغال بها ، والتجار لأنهم  
يجدون أن من إضاعة الوقت . . وتعريض المال للخسارة الاشتغال  
بالأمور العامة ، والمزارعون لأنهم لا يفهمون ماذا تكون السياسة .  
ومات والسياسة هي شغل الناس الشاغل ، يقرأون مقالات الصحف  
في المدن وفي الريف ، ويسمعون شعر الشعراء ويتداولونه ، والزجل  
ويروجهونه ، ويرون فيه المتعة والنقد . . والفكاهة ؛ والإشاعة  
تنقل مالا تنطق به الصحف ومالا يقوله الشعر .

بدأ حياته وهو تلميذ صغير ، ثم طالب مبتدئ ليس له من  
الأعوان إلا عدد ضئيل ، ثم أصبح صديق العظماء والأدباء والشعراء



والسادة والحكام والوزراء . كان من أصدقائه على باشا مبارك ، ولطيف باشا سليم ، ومحمود باشا شكرى ، وحسن باشا عاصم ، وسعد باشا زغلول ، وفتحى باشا زغلول ، وأمين باشا فكرى ، ومن الأمراء حيدر فاضل ، ومحمد إبراهيم ، ومن الشمرء الشيخ على الليثى ، وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، ومن زعماء الثورة العربية عبد الله النديم ، ومن الصحفيين بشارة باشا تقلا ، والشيخ على يوسف . .

وألوف من شباب الجيل الجديد الذين كانوا طليعة مصر فى جميع الميادين : المحاماة والطب والاجتماع والصحافة والتعليم والاقتصاد ، نذكر منهم الشيخ عبد العزيز جاويش الكاتب والمجاهد والفقيه والمترجم والمربي ، وعمر لطفى رائد التعاون والاقتصاد القومى ، وأمين الرافعى الصحفى العظيم ، وعبد الرحمن الرافعى المؤرخ الفذ ، ومحمد فريد وجدى الكاتب والمفسر للقرآن والشارح للدين ، والحكيم صاحب الموسوعة ، وأحمد لطفى نقيب المحامين القانونى الذى لا يشق له غبار ، ومصطفى الشوربجى المحامى ثم الوزير ، وحافظ رمضان الخطيب والقانونى والمؤرخ ، وعبد اللطيف الصوفانى النائب والقائد للعمل السرى ، ومصطفى النحاس القاضى الذى شارك فى ثورة سنة ١٩١٩ ممثلاً للحزب الوطنى ، ثم اختير وزيراً فرئيساً لحزب الوفد ، وحافظ عفيفى الذى ذهب مع النحاس ممثلاً ثانياً للحزب الوطنى ، والذى أصبح من الشخصيات المؤثرة فى تاريخ مصر الحزبى حتى ثورة سنة ١٩٥٢ ، فى معسكر الرأسماليين والاقتصاديين . وكان من الصف الثانى أحمد وجدى ، وأحمد وفيق ، وسليمان حافظ ، وأحمد فؤاد ، ويحيى الدرديرى ، وعبد الحميد سعيد ، مؤسس جمعيات الشبان المسلمين ، وحسن كامل الشيشينى الاقتصادى ومحمد زكى على المحامى والمستشار والوزير ورائد التعاون فى البترول ، وفكرى أباطة الصحفى الخطيب والمذيع ، ومحجوب ثابت الطبيب الخطيب والرائد العمالى . . إن كلا منهم فى ميدانه وفى الحياة العامة كان قائداً

أورائداً ومثلاً في الأخلاق .

ومن الأجيال التي نبتت على شجرة مصطفى كامل الباسقة :  
الدكتور مصطفى الوكيل ، الذي استشهد في برلين في سنة ١٩٤٥ ،  
بعد أن قاد الكفاح العربي في أدق مراحل وأشق أدواره في مصر والعراق  
وتركيا ويوغسلافيا وألمانيا ، وكمال الدين صلاح الذي استشهد في  
مقديشيو عاصمة الصومال في ١٦ أبريل سنة ١٩٥٧ بعد أن قاد الكفاح  
الإفريقي في إفريقيا نفسها وفي الأمم المتحدة ، فكان طليعة النضال  
الوطني ضد الاستعمار الجديد . اتصلا بالعمل الوطني منذ كانا طالبين  
في المدرسة الثانوية ببني سويف عن طريق كاتب هذه السطور ،  
وما هو إلا تلميذ من تلاميذ مصطفى كامل ، وما لبثا أن تألقا ولعبا  
دوراً عالمياً ، وقد أطلق اسمهما في مصر وفي الخارج على الميادين  
والشوارع والنوادي والمعاهد وأقيمت لها التماثيل .

وأصبحت الحركة الوطنية بفضل مصطفى كامل في السنوات  
الست عشرة تياراً دافقاً يحرف في وجهه ويكتسح أمامه كل الحواجز  
الواهية التي أقامها الاحتلال وأنصاره ، وكانت تبدو عقبات كأداء  
وسدوداً عالية لا يستطيع الناس لها نقبا ، فإذا هي كألعاب الأطفال ؛  
أبنية من ورق . الخديو أمير البلاد نفسه أصبح نصيراً للحركة الوطنية .  
يستقبل زعيمها ويستضيف ضيوف هذا الزعيم مثل مدام جوليت آدم ،  
ولا يخاف من المستعمر .

وامتلأت الأندية بالشعراء والخطباء ، وكثرت أسماء المحامين  
المجيدين والأطباء البارعين ، وبدأت طلائع التجديد في التفكير الديني ،  
بفضل هذه الوثبة ، في الإصلاح والتحرر ، فيشعر كل جزء في بناء الأمة ،  
وكل فرع من فروع حياتها . بأنه ينتفض . . وعلا قدر مصطفى كامل ؛  
حتى بحساب الألقاب والرتب التي لم تكن على باله ، ارتقى من  
« أفندي » إلى « بليك » « فباشا » . ارتقى في هذا السلك لا لأنه جرى

في ركاب حاكم ، ولا لأنه مرغ جبهته في تراب سلطان ، بل ارتقى  
لأنه واظب على محاربة الأقوياء ومقاومة المعتدين . .

وقد أحسنت التعبير عن هذا كله جريدة أجنبية هي « لوكير »  
التي كانت تصدر بالفرنسية في مصر ، والتي كانت معادية لمصطفى  
وموالية للإنجليز . قالت في نوبة من الصراحة ، يبعث عليها جلال الموت  
الذي يحرر النفوس من العداوة ، ولو إلى حين :

« كانت الفكرة السائدة لدى مصطفى كامل ، العارية من كل الشوائب  
ترى إلى إحياء الشعور الوطني في الشعب ، واعتداده بشخصيته .  
لقد داعبه حلم انتشال شعب قوامه عشرة ملايين من الأنفس  
من خمول القرون ، وأن يغير عنصره ، ويسير به من العبودية إلى الحرية .  
كان حلما ، ولكن ميزة الذين يسبقون عصرهم أن يحلموا ويرفعوا أصواتهم  
بأحلامهم ، ولا يضعون أفكارهم في حيز الوقت . . . لاشك أن أشخاصا  
فكروا في هذه الأمور ، ولكن أحداً منهم لم يستطع التعبير عنها ،  
أو أن يهبها الحياة : إن شباب اليوم - بفضل مصطفى كامل -  
يختلف عن شباب الأمس . إنه يقبل على الدرس بنهم عجيب ،  
إنه يبحث ويجد ، والصحافة تناقش وتبدل آراء ، والسعى وراء الأفكار  
الجديدة ظاهر في كل ميدان . »

وقد قالت جريدة « لينوفل » هذا المعنى بأسلوب آخر :  
« لتكن لدينا الشجاعة ونعترف بأنه لولا مصطفى كامل لتأخرت  
الحياة الفكرية في مصر عدة قرون . لقد أتى بالمعجزة ، معجزة إيقاظ  
همم مواطنيه وجعلهم يشاطرونه وطنيته ، وبعث الحركة الوطنية . .  
ما أجمل المشروع الذي وقف له حياته . لقد قيد حرية المحتل ،  
ولا يستطيع المعتمد البريطاني في هذه الساعة أن يتجاهل المطالب  
القومية المصرية . »

أما « المانشيستر جارديان » البريطانية العتيقة فقد قالت :



« كانت فصاحة ألفاظه وقوة قلمه تكتسح كل شيء أمامها . كان يخلق الشجاعة في قلوب أشد الناس خجلا . كانت فيه كل صفات الرئاسة : سرعة الحاطر ، وسرعة التفكير ، وفهم حقائق الحوادث ساعة حدوثها في حين يظل الآخرون ثائرين مندهشين . كان عجبيا في فهمه للسياسة الأوروبية ، وقيمة مختلف الدول ورجال الحكومات وأفكارهم وميولهم وأخلاقهم . . . كان أفقه السياسي واسعا وآراؤه دقيقة وواضحة وعقله راجحا . . . »

وقالت « الطان » أشهر جرائد فرنسا تصف عمله المتنوع الغني المتجدد : « كان يشرف بنفسه على صحفهِ الثلاث ، ويكتب المقالات ، ويصحح التجارب ، للمطبعة ، ويصدر الأوامر ، ويستقبل الوفود والزوار ، كان يختلس لحظات الراحة التي يتركها له عمله المضني ليحضر خطبه . . »

لقد كانت حياة مصطفى وخطبه ومقالاته زادا لكل حركة في البلاد ، وإن الشعر الذي تغنى به خليل مطران ، وهو يؤبن حافظ إبراهيم سنة ١٩٣٣ ، خير وصف لهذا الأثر :

طرات حالة تيقظ فيها	لدعاة الهدى ضمير السواد (١)
مات « حافظ » وقد بث مافي	نفسه من تبهم واربداد (٢)
وبدا للمنى الجلائل فيها	أفق واسع المدى لارتداد
ما تبلى نبوغه كتجليه	وقد هب « مصطفى » (٣) للجهاد

سنة ١٩٠٧ :

كانت سنة الختام ، ولذلك كان الفارس يعد وفيها بأقصى ما يستطيع ، وكان لحن حياته يتصاعد ويشد ويعلو ، والشعلة تتقد وتتوهج

( ١ ) الشعب

( ٢ ) انقباض واكتئاب .

( ٣ ) مصطفى كامل

قبل أن تنطفيء . . إنها صحوة الموت . إنها نذير النهاية ، ولكن لا أحد يعلم سوى قلب البطل الملهم : يقول لمراسل جريدة اللواء الفرنسية في صيف سنة ١٩٠٧ : « إني أشعر أن المرض قد دب في . ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودي ؟ ليحقق الآخرون نتائج جهادي ، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع » .

وعاد إلى بلاده شاحباً ممتنعاً ينوح من أردانه وأعطافه عطر الحياة التي تقاتل لتبقى ، ورائحة الموت الذي يعمل دائباً ليصل إلى غايته .

عاد إلى بلاده ، فاستقبل كما لم يستقبل من قبل ، حتى ضاقت محطة القاهرة على سعتها . ولما وصل دوت الأصوات بهتافات لم تكن معروفة من قبل : « ليحيى الرئيس ، ليحيى صاحب اللواء . ليحيى الباشا » لا أحد يعرف رئيساً سواه ، وليس هناك باشا غيره ، وهو لا وظيفة له إلا أنه صاحب اللواء ، وهذا حسبه .

وفي البقية الباقية من سنة ١٩٠٧ تمت أكبر الأعمال الختامية . في ٢٢ من أكتوبر ألقى أجمل وأطول خطبة في الإسكندرية : خطبة الوداع . قال فيها أكثر الكلام الذي حفظه الناس وخلدوا وتغنوا به . ألقى الخطبة وهو مريض شاحب ، ولكنه كان ينسى آلامه وأمراضه ، ويستمد من الناس قوة ، فيعلاو صوته ، ويتورد لونه ، ويصبح مهيباً رائعاً . ثم عاد إلى الفراش ، وجاءته أنباء وفاة صديقه وأستاذه في الجهاد : لطيف باشا سليم ، فزادت آلامه ، وزاد وجومه وانقباضه . حينما دعيت الجمعية الأولى للحزب الوطني في ٢٧ من ديسمبر نهض إليها سليماً معافى ، وعاد صوته إلى الرنين الحلو ، والأداء المتمكن ، وبدأ للناس أنه لن يموت . . ولكنه بعد أن عاد إلى الفراش ، أحس أن روحه تتسرب من بين جنبيه ؛ ولكنه لا يكاد يجد ميداناً للقتال حتى ينزل وقد لبس درعه ، ووضع لأمته ، فقد سمع أن وزير خارجية بريطانيا السير « إدوارد جراي » ينكر على المصريين أهليتهم للحياة

الدستورية فأسرع إلى ورقه وقلمه . وبعث يرد عليه ، ويقول له إن مصر أحق بالدستور من دول أوربية كثيرة . .

واستمر المرض في سيره ، ومدام جوليت لم تتقطع عن القول بأن أعداءه دسوا له السم في الطعام بعد رحلة في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ إلى لندن . لم يكتب لمدام جوليت عن الباعث لسفرتة هذه ، ولكنه حينما قابلها بعد هذه الرحلة في باريس أخبرها أن الحديو عباس علم بأن اللورد كرومر قد نجح في إقناع الحكومة البريطانية بخلعه ، فرجا مصطفى أن يبذل مساعيه لإبطال جهود كرومر ، ورأى مصطفى أن نجاح كرومر في مساعيه ، بعد أن عاد عباس إلى صف الوطنيين ، عقب نجاح مصطفى في حملة دنشواي . هزيمة للوطنية المصرية ، ورضى مصطفى أن يقوم بهذا السعى ، وأفهم السير « كامبل باترمان » أن قرار العزل سيعقد الأمور لهم في مصر ، ويزيد الهوة بين مصر وبريطانيا اتساعا . وتقول السيدة جوليت إنه بعد إفصائه لها بهذا الحديث بدت عليه أعراض مرض عجيب ، ولم يخف طبيبه خوفه على حياته ، ولم يكتف مخاوفه من أن يكون السم قد دس له .

أيا كانت العلة فقد انهد هذا الجسم الضعيف الواهن أمام هذا العمل الشاق . وكان مصطفى يندب حظه لأن الله لم يمنحه جسداً في مثل قوة روحه وطموحها وحبها للعمل . وآوى المجاهد المريض إلى فراشه في هذا السرير العالي من النحاس ، وقد تعلقت بأعمدته ( ناموسية ) بيضاء ، قيدت بشريط من حرير ، وإلى جوار السرير سلم صغير من الخشب غطى بقماش جميل . وفي المبنى الذي تشغله الآن مدرسة عابدين ، في مواجهة وزارة العدل ، غير بعيد من ميدان لاطوغلي ، تجمع مصطفى غصص الموت وآلام المرض صابراً ، يعاوده الرجاء حيناً ، ويأباهمه ويدهم الذين يحبونه اليأس أحياناً . .

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨



تم القضاء . . . ونشرت اللواء في اليوم التالي المنشرة التالية :  
توفى إلى رحمة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس  
الحزب الوطني المصري في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس .  
لقد أصيب مديرنا بإغماء في الصباح أقلق بالنا ، وحوالي الظهر لاح لنا  
أنه تحسن قليلا ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعناها ، فأنهيناها .  
ولكن سرعان ما انتكس وخارت قواه تدريجيا ، ولفظ أنفاسه الأخيرة  
عندما كانت تدق الساعة الرابعة .

ومضت أيام قبل أن يستطيع أخوه أن يصف ما حدث بالضبط ،  
ولكن بعد مضي عشرة أيام استطاع أن يقول في رسالة إلى مدام  
جولييت آدم :

«عانقته وقبلته في الساعة التاسعة من مساء يوم الأحد ٩ من فبراير  
بعد أن حادثته ثلاث ساعات ، وكان مليئا بالحيوية والسرور ، ثم  
تركته لأنام ، وفي صبيحة الاثنين دخلت غرفته كعادتي لأطمئن عليه ،  
فوجدته لا يزال نائما ، وبعد أن فضضت البريد ، ووزعت عمل صحف  
اللواء الثلاث ، صعدت لأراه ، فوجدته في صحة جيدة ، وشددت  
على يده ، وأنا أسأله كيف قضى ليلته ، فأجابني جوابا مرضيا ،  
ولكني لاحظت في أثناء الحديث أن لونه أخذ يتغير وعينه تغيبان ،  
فلثت زعجا ، وسألته عما يؤله فأجابني : تشجع واستمر في عملك  
بحكمة .»

تشجع واستمر !

مألق هاتين الكلمتين بالرجل الذي تلخص حياته في أمرين اثنين  
لا ثالث لهما : الأمل المنبعث من الشجاعة ، أو الشجاعة المنبعثة  
من الأمل ، والمواظبة والمثابرة . .

تشجع واستمر . .

لكن في هذه اللحظة لم يكن في مقدور أحد أن يتحلى بالشجاعة ،

فقد شمل الأمة كلها ، وربما أكثر العرب ، وغير قليل من المسلمين وأصدقاء الحرية في العالم حزن بالغ واكتئاب قابض . .

صدق « شارل سوفاج » الكاتب الفرنسي إذ قال :

« اعلموا أنى صدى ضعيف من الأصدقاء المتواليه ، التي ستصلكم من أركان فرنسا التي تستمع إلى قضيتكم . إن فرنسا تعلم اليوم أنها فقدت ابنا من أبنائها ، والدموع الفرنسية تسيل لتختلط بدموعكم في حزن وأسى مشتركين . إن حدادكم هو حداد الأمم بأسرها إنه مس شغاف القلوب في جميع الشعوب التواقه للحرية . . . إنه حداد دولي » .

نعم ، إنه حداد دولي ! لو قلناها نحن لاتهمنا بالمبالغة والمغالة . ولسنا في حاجة إلى نقل مقاله الكتاب والمحرون في الصحف في أنحاء العالم وصفا للجنائز ، وتعبيراً عن الأسى لفقدان هذا البطل المحارب المتجرد ، المتسامي عن الصغار ، حتى عن الطعن الجارح ، في ألد أعدائه ، فقد كان اختفاؤه خسارة إنسانية ، هذه الإنسانية التي تفرح بالأبطال الذين يؤمنون حياة الناس بالأمل في فضيلة أو شجاعة أو بطولة ، ولكن نقل مقالة البروجريه لأنها قالت بصراحة عجيبة :

« إذا كنا حاربناه محاربة مريرة ، محاربة كان يحبها ، فإننا لانكن لخصمنا البطل شيئاً أكثر من العطف . إنه مات من شدة حبه للوطن ، وإنا نبكى فيه نشاطه وشهامته ، ونبكي فيه شخصيته الجديرة ببكاء الناس عليه » . .

وأحق شيء بأن يوصف هو هذا الذي أحست به مصر كلها ، بلا تدبير ولا تنظيم ولا دعوة . كل إنسان أحس بأنه مطالب بأن يترك عمله ، ويلبس الحداد ، ويخرج إلى الشارع . الرجال كالنساء والأطفال ، الأجانب كالمصريين ، وأهل القرى كأهل المدن . . وتدفقت الجموع . ولما أمر « دانلوب » مستشار وزارة المعارف بمنع التلاميذ من ترك المدارس والاشتراك في الجنائز لم يحفلوا بأمره ولم يخافوا سلطانه ، ووثبوا من فوق

الأسوار العالية ، واقتحموا الأبواب المغلقة . .

ولقد حفظ الناس السطور القليلة التي كتبها قاسم أمين في وصف شعور المصريين في حادثتي : دنشواي يوم تنفيذ الحكم : يوم ١٨ من يونية سنة ١٩٠٦ ، ويوم وفاة مصطفى كامل وتشيع الجنازة في ١١ من فبراير سنة ١٩٠٨ . ولم يكن خلود كلام قاسم أمين لأنه قال شيئاً عجيباً ، بل لأنه قال الحقيقة في كلمات بسيطة :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ : يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هو المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي . أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله ، وانفجرت فرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر ، هذا الإحساس الجديد ، هذا المولود الجديد الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي تسيل حرارته إلى قلوبنا الجائعة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يعد ثمة مأتم ، إنما هو سيل متدفق ، يحمل في تلاصق أفرادهِ وتلاحمهم صورة الأمة التي أصبحت شخصاً واحداً ، وقد قالت « ليتندار » :

« وعندما بدأ برفع النعش ، خيم الذهول والوجوم على الناس . كان منظر النعش وهو ملفوف بالعلم المصري يزيد في الآلام ، ويدفع الجموع إلى البكاء والعويل من شدة الأسى . كان من الصعب تنفيذ تنظيم المشيعين ، بيد أن الأكثاف تلاصقت رويداً رويداً ، وتحركت الآلاف بل الملايين في خطاها الوثيدة الحزينة » .

وإذا كان قاسم أمين يحب مصطفى كامل فلا يستغرب منه أن يكتب



هذه السطور ، فإن سعد زغلول - للمنافسات السياسية - كان يصف مصطفى كامل لفرط حماسه لوطنه ، وتطرفه في الدفاع عن مبادئه ، بأنه مجنون ومخادع ونصاب ، فلا ينتظر منه أن يصف أثر وفاة مصطفى كامل بأكثر مما يستحق . وقد قال في مذكراته وهو يتحدث نفسه (١) :

« ما وصلت إلى مصر - من رحلة تنقيش في اليوم - حتى علمت فوق ما قرأت ، وأصبحت الناس لاحديث لما إلا هذه الوفاة . وما أصاب الناس من الفزع الأكبر من هولها ، وأكثر الناس من الإعجاب بالحناسة ، ومن كان منهم لا يعجب بالمتوفى حين حياته اهتم لوفاته اهتماماً كبيراً ، وعد التبناف الناس حوله . وبكاء الكثير منهم علامة على تنبه الشعور الوطني ، ودليلاً على نمو الإحساس في الناس . وذهبوا إلى أنه هو الذي أوجد هذا الشعور الشريف ونماه . وافتتحت الجريدة ( جريدة أحمد لطفي السيد ) وهي من الجرائد المخالفة : والتي كانت بينها وبين جرائده خلافات شديدة ، اكتتاباً لإقامة تمثال له تذكراً لشأنه ، واكتتب الكثير فيه أول مرة بمبلغ يزيد على خمسمائة جنيه . وقد سارت تلاميذ جميع المدارس الثانوية والعالية والخصوصية في الحناسة ، كل مدرسة وراء علم مخصوص مجلل بالسواء مكتوب فيه اسمها ، وساد السكوت كأن على رؤوسهم الطير ، وعلت أصوات الكثير بالبكاء والنحيب ، وكان التلامذة يحملون بالتبادل النعش على الأعناق ، ونظم كثير من الشعراء والكتاب مراثي فيه ، وأقام الكثير من النوادي والجمعيات والمساجد في مصر والأرياف صلوات على روحه ، وتواردت الرسائل البرقية والبريدية على الجرائد المخالفة له والمعادية تنعاه وتصف

(١) الكراسة (٧) صفحات ٣٠٤ - ٣٤٤ من مذكرات سعد - وكتاب الدكتور عبد الخالق لاشين . - طبعة دار المعارف .

حزن الناس عليه ، وكثير من الأفراد أقاموا مآتم في بيوتهم واستقبلوا المعزين فيها ، ولبس بعض السيدات لباس الحداد عليه ، وكذلك حمل التلامذة من كل نوع علامة الحداد عليه ، ولم يقصر عن ذلك تلميذات المدارس الثانوية ، وتوقفت معلمات المدرسة السنية عن مشاهدة الألعاب الحربية في اليوم التالي - في مهرجان وزارة المعارف الرياضي - لتشجيع الجنادة ، لأن الحزن أثر في نفوسهن في مشاهدة الألعاب .

« وبالحملة فإنك لا تجلس في مجلس ، ولا تجتمع مع صاحب ، ولا تأوى إلى بيت ، ولا تطالع جريدة ، ولا تسير في الأسواق ، ولا تركب الترام إلا وتسمع أو تقرأ نبأ عن مصطفى كامل ، ويخيل لك أن كل مآنت فيه شعور بهذا الرجل وحزن عليه . »

وفي موضع آخر من مذكراته كتب سعد بتاريخ ٣ من مارس سنة ١٩٠٨ . « ولقد بدأت بزيارة المدارس لاكتشاف أحوالها والوقوف خصوصاً على آميال الطلبة بعد وفاة مصطفى كامل باشا الذين كانوا يتعبدونه تعبداً . »

وما وصفه سعد زغلول في مذكراته هو بالضبط ماسعينا لذكره من أقوال مختلف الكتاب والصحفيين والأفراد على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، فقد شمل الأمة روح واحد، صغيرها وكبيرها ، الشبان والشابات ، والعامة والخاصة ، والمؤيدين والمعارضين ، حتى كأنه لم يبق عند الناس في كل خطوة وحركة وسكنة إلا الحزن على مصطفى كامل ، وشعور باليتم والحسرة لغيابه .

وهذا هو أعظم ما حققه مصطفى كامل من نجاح .. هذا الشعور الواحد المشترك الذي يجمع الأمة جميعاً ، هو الشعور الذي حاول مصطفى كامل أن يوجده ، وكان يتمنى أن يوجد ، وأن يقوى ، وكان يقول إن « الشعور » هو رأس مال الأمم المحاربة من أجل استقلالها ، وربما أحست مصر بمثل هذا الشعور في مناسبات أخرى ، كيوم اعتقال سعد

وأصحابه الثلاثة ونفسيهم إلى مالطة في مارس سنة ١٩١٩ . ويوم عودته في ٤ فبراير سنة ١٩٢١ ، ويوم وفاته وتشيع جنازته في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، ويوم جنازة محمد فريد في سنة ١٩١٩ ، ولكن هذا الإجماع في الرأي ، وهذا الاتحاد في الشعور ، جاء بعد يوم تشيع جنازة مصطفى كامل ، فهو ثمرة هذا اليوم وصداه ، كنا نقول إن يوم وفاته كان يوماً من أيام انتصاراته وإنه كان البداية لا النهاية والميلاد لا الموت ، كان كلامنا هذا تاريخاً ، لا شعراً ولا خيالاً .

وبذلك يكون مصطفى كامل قد حقق انتصاراً قبل أن يموت ، أو يوم أن مات . . وبقيت روحه تبعث على الثورة ، ويذكر اسمه ومنهجه وأسلوبه كلما أحدثت بمصر المخاطر ، واشتدت حولها المكاييد . . تلقف منه محمد فريد اللواء ، فاتسع نطاق الحركة الوطنية ، وأصبحت أشد رغبة في التصادم مع السلطات المغتصبة لحقوق الشعب ، بالمظاهرة والإضراب ، وأخيراً بالسلاح مما أخاف الحديو والإنجليز منها ، فاشتد اضطهاد هذه السلطات لفريد وأعوانه من الوطنيين ، فتعمق شعور الشعب بالوطنية لاجتاحتها إلى التنظيم والتوسيع ، فنبئت فكرة النقابات العمالية والنقابات الزراعية ، والمطالبة بحقوق الفلاحين ، وإعادة النظر في نظام الضرائب ، والتشديد في مطالبة الحكومة بالدستور . . .

وهكذا أصبحت الحركة الوطنية قوة ضاغطة لا يمكن مداعبتها أو السكوت عليها ، فصدرت قوانين للمطبوعات وللإجراءات الجنائية كلها تهدف إلى التضييق من حرية الصحافة والكتابة والاجتماع وإخافة الصحفيين والكتاب وإلقاء الرعب في قلوبهم ، ولكن بقيت أصواتهم مرتفعة ، ولم يحل السجن دون موالاة المطالبة بحقوق الشعب . فلما وقعت الحرب العالمية الأولى ، في سنة ١٩١٤ ، وكان فريد في منفاه الاختياري في الخارج يتنقل بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، لجأ تلاميذ



فريد ومصطفى إلى العمل السرى ، لأن الأحكام العرفية التى أعلنت عقب نشوب الحرب منعت كل وسيلة من وسائل إعلان الرأى ، كالصحافة والاجتماعات والمنشورات ، ف وقعت محاولتان لقتل السلطان حسين الذى عينه الإنجليز بعد عزل الخديو عباس ، كما شرع فى قتل إبراهيم باشا فتحمى وزير الأوقاف فى محطة مصر فى الرابع من سبتمبر سنة ١٩١٥ : ووصلت هذه الأنباء إلى محمد فريد فكتب فى مذكراته : « هذه الجناية تدل على أن الأفكار الإرهابية تسربت من الشبان إلى من هم أكبر منهم سناً ، وتدل على أن التذمر والفكرة الثورية عمت أو ستعم قريباً جميع الطبقات » ، وهو ما تحقق فعلاً بعد ذلك اليوم بثلاث سنوات . وكان محمد فريد لا ينفك يفكر فى الثورة ويحضر لها ، ويحرض أعوانه فى مصر عليها ، فقد كتب فى مذكراته يوم الاثنين ٣ من مايو سنة ١٩١٤ : « قابلنا مسيو زمينيس سكرتير عام وزارة الخارجية الألمانية ، وتكلمنا كثيراً بخصوص إرسال أسلحة لمصر » . وفى ٤ من يونيو سنة ١٩١٤ كتب فى مذكراته « أنه سئل من اثنين من شبان الحزب الوطنى : ماذا نفعل لو انتصرت بريطانيا ؟ فأجاب فريد : نجهتد حينذاك فى تجهيز الثورة فى مصر » .

ف فكرة الثورة لم تغب عن باله ، فما كادت الحرب تضع أوزارها ، وعاد إلى الأسباع آخر مقال له لمصر مصطفى كامل ومحمد فريد ، حتى كان ذلك وقوداً للثورة ، فانطلقت من عقائدها ، تدهس حتى قاداتها الذى تسلموا زمامها ، فقد حسبوا أن مصر ، وقد أنهكت خلال الحرب من كثرة ما تحملت من ظلم السلطة البريطانية وعسفها ، وإرهاب الناس بالسجن والاعتقال والنفي ونهب الأرزاق وتكليم الأفواه ، مع خروج بريطانيا منتصرة على الأعداء ، واحتشاد الألوف من جنودها على أرضها ومائها ، ستكون أبعد ما تكون عن فكرة الثورة ، وهذا منطق صحيح لولا أن للشعب منطقاً يعاير على الواقع ويتحدى الحقائق :

ويخلق في سماء الأمل ، كل ما يقيده ، مجازفاً بالمال والروح . .  
وبذلك تكون روح مصطفى كامل قد حققت الثورة الثانية ،  
ثورة سنة ١٩١٩ التي كشفت فيها مصر عن روحها العظيمة ، بما بذلت  
وتحملت ، وبما كشفت عن قدراتها المخبوءة في التنظيم والتدبير والمثابرة .

فلما كانت الثورة الثالثة في سنة ١٩٥٢ رفرت روح مصطفى كامل  
في عليائها ، ذكرها الذاكرون ، فكان أول ماعلمته الثورة تقديراً لهذه  
الروح أن محت اسم مصطفى باشا عن ثكنات الاسكندرية العسكرية  
التي كان الإنجليز يحتلونها وأسموها ثكنات مصطفى كامل ، ثم نقلت  
رفاته في ١١ من فبراير سنة ١٩٥٣ العام الثاني للثورة إلى ضريحه بالقلعة ،  
وفي السنة نفسها نقلت رفات زميله وخليفته في ١٥ من نوفمبر ليرقدوا معا ،  
كما عاشا معا . ثم اطلق اسماهما على المدارس والشوارع والمسارح والقاعات ،  
واتخذ من قول مصطفى وخطبه الأناشيد والأغاني الوطنية وترنم بها  
الشباب والرجال .

ف وفاة مصطفى لم تكن وفاة ، لم تكن نهاية ، لم تكن خاتمة المطاف ،  
بل كانت ميلاداً وبداية وبعثاً . . .

## محتويات الكتاب

صفحة	
٥	قرن مضى
١٥	الفصل الأول : الحياة والموت
٢٢	الفصل الثاني : صبي قلق
٤٣	الفصل الثالث : الشهاب الخاطف
٨٢	الفصل الرابع : الرسالة والرسول
١٤١	الفصل الخامس : الإنسان
١٦٤	الفصل السادس : الداعية
١٨١	الفصل السابع : بلاغة الروح
١٩٢	الفصل الثامن : أصول وبدور
٢١٥	الفصل التاسع : أباطيل وأضاليل
٢٢٠	أولا : مصطفى كامل والخديو عباس
٢٣٣	ثانيا : مصطفى كامل وتركيا
٢٤٧	ثالثا : مصطفى كامل وفرنسا
٢٥٤	رابعا : مصطفى كامل والتعصب الديني
٢٦٤	الفصل العاشر : موت أم ميلاد ؟

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية  
تحت رقم ١٩٧٤/٥٢٣٠

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٤  
١/٧٤/٣٠٨



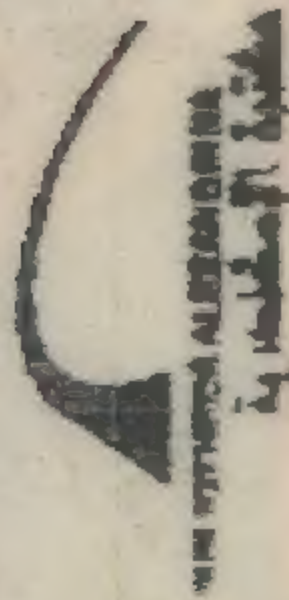




١٠١٥٨٥٤٤٠٠١

١٠١

Bibliotheca Alexandrina



0257250

